المدخل إلى علم الاجتماع

دكتورة
سناء الخولي
كمال



دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

مدخل إلى
علم الاجتماع

دكتورة سناء الخولي
أستاذ علم الاجتماع
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الازاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع

* الادارة : ٤٠ شارع سوتير
الازاريطة ـ الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبي ـ الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

مقدمة

منذ أن وجد الإنسان على الأرض وهو مستغرق فى البحث عن أمنه الشخصى والإجتماعى والغذائى، وقد مرت السنين قبل أن يتمكن بذكائه وقدراته الخاصة من أن يتوفر له هذا الأمن وتنتظم حياته فى تنظيمات اجتماعية مستقرة، حاول أن يفهمها ويحللها ويطورها . ويكشف تاريخ التفكير الاجتماعى انعكاس طابع هذه التنظيمات على اتجاهات الفكر الانسانى ، ولهذا أصبح من المألوف أن نتتبع الأصول القدرية والغيبية والفلسفية والوضعية فى نظرة الانسان إلى ذاته وموقفه من المجتمع والحيـاة الاجتماعية بوجه عام . ولكن عندما بلغت التغيرات المجتمعية ، وخاصة بعد اكتشاف العلم وتطور التكنولوجيا ،قة معينة، ظهرت مشاكل جديدة لم تكن مألوفة من قبل ، وهو الأمر الذى عجل بظهور علم الاجتماع،الذى اهتم منذ البداية بدراسة الظواهر الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى فى موضوعات أخرى عديدة لم يهتم بدراستها واحد من العلوم القائمة ، ولا تصلح لتحليلها أساليب التأمل المجرد أو التفسيرات الشاملة التى لا تستند الا لقلة من المعلومات،فتثير الحوار والجدل دون التوصل إلى الحقيقة .

ومن المعروف أن علم الاجتماع منذ ظهوره فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر،وهو فى تقدم ونمو مستمرين سواء على مستوى الدراسات النظرية أو على مستوى البحث والتجريب والتطبيق، حتى أصبحت نظرته المحددة ومناهجه ومداخله تشكل إطارا أوسع للفهم المتكامل للحياة الاجتماعية .

وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهت علم الاجتماع خـلال مسيرته ،

والاختلافات الحادة بين اتجاهات علمائه (وهى التى تعتبر جزءا من تراث علم الاجتماع) التى ترجع فى المحل الأول إلى التناقضات الايديولوجية، الا أن كثيرا من موضوعاته ومصطلحاته وطرق البحث فيه أصبحت موضع اتفاق نسبى عالميا ، ولعل مصدر هذا الاتفاق قبول الفكرة القائلة بأنه على علم الاجتماع أن يهتم بالسلوك الاجتماعى ، وبحقائق الحياة الاجتماعية، مستندا إلى الظروف الاجتماعية والثقافية المتباينة التى تطرح نماذج وأنماط مختلفة . وليس هناك شك فى أن الأساليب التى يتبعها البحث السوسيولوجى المعاصر حاولت إلى حد كبير على التوصل إلى مجموعة هائلة من الخصائص تصلح كأساس معقول للتفسير والتحليل . وقد تزايد الإهتمام الأكاديمى بتطوير علم الاجتماع كرد فعل لاهتمام الدول والحكومات والمؤسسات بنتائجه منذ أن أخذ على عاتقه تحليل القضايا الأساسية فى المجتمع ودراسة المشاكل الاجتماعية ، وتزايد إسهام علماء الاجتماع فى تقديم المعلومات والبدائل لصنع أفضل سياسة اجتماعية أو قومية لانجاح برامج التنمية فى كل جوانبها .

إن هذا الكتاب الذى أقدمه للطالب والمثقف يعتبر إسهاما متواضعا فى التعريف بعلم الاجتماع وموضوعاته وأهميته بالنسبة للانسان والمجتمع ، ويقع فى نفس سلسلة المؤلفات التى بدأها الأساتذة الذين علمونى وتحمل عنوان الأسس أو المبادىء أو المداخل لعلم الاجتماع ، ولست أنكر أننى تأثرت بهم وأخذت عنهم ، إلا أننى راعيت فى كل فصول هذا الكتاب أن أبسط المعلومات والحقائق بالقدر الذى لا يخل بسلامة العرض العلمى، ليكون مدخلا للمبتدئين أو المتطلعين لمعرفة نظرة علم الاجتماع الخاصة إلى ديناميات الحياة الاجتماعية وعملياتها المختلفة ، وذلك مع الإحاطة بمختلف التطورات التى تمت فى مجال علم الاجتماع

العالمى . وهكذا بدأت بتفسير معنى الترابط الإنسانى الذى يعتبر الموضوع الرئيسى لعلم الاجتماع، ومن ثم تطرقت إلى موضوعين رئيسيين وهما : التفاعل الاجتماعى والثقافة والذى بدونهما لايمكن لمجتمع أن يقوم أو يستمر فى الوجـود .

ولما كنت أعتقد أن الإنسان لايستطيع أن يتفاعل مع الآخرين فى المجتمع دون أن يستوعب الثقافة السائدة ما تتيحه له عملية التنشئة الاجتماعية، من خلال معايشته لأسرته التى تعتبر وسيطا بينه وبين المجتمـع، فقد خصصت لتحليل كل ذلك فصولا مستقلة ـــ وهـذا إلى جانب الفصول التى خصصت لدراسة الجماعات والمجتمـع والتدرج الطبقى . وكان من الطبيعى أن أهتم بالأسرة كجماعة أولية وكنظام إجتماعى فى فصل مستقل لا تمكن من القاء الضوء على المسائل المتصلة بالزواج وأدوار الزوج والزوجـة أو وظائف الأسرة بوجه عام، وكذلك الضغوط والأزمات التى تواجه الأسرة وطريقتها فى مواجهتها .

وربما كان أهم ما يميز هـذا الكتاب هو تخصيص جـزء كبير منه لمسألة التغير الاجتماعى وما يطرحه من مشاكل إجتماعية ، وهو الأمر الذى جعل علم الاجتماع يتصل بصورة مباشرة بواقع الحياة المتغير، ويشارك فى الجهود العلمية وغيرها لتوجيه التغير فى الاتجاه الذى يحقق رفاهية الإنسان أو على الأقل يحصر تأثير المشاكل والانحرافات فى أضيق نطاق .

وفى النهاية وجدت من المناسب أن أشير إلى بعض تطبيقات علم الاجتماع فى المجالات المختلفة ، وهى كثيرة جدا ولهذا اخذت ثلاثة منها تمثل ما يمكن لعلم الاجتماع أن يقوم به لتدعيم أو توجيه

فيه ثلاث نظم شديدة الاتصال بحياة المجتمع وهي : التنمية والتربية والرعاية الطبيـــة .

انى لا أستطيع أن أعدد هنا أسماء كل من عاونني على إنجاز هذا الكتاب، فهم كثيرون ، أشعر نحو كل منهم بالشكر والامتنان،الا أنني أذكر بكل التقدير أساتذتي وزملائي وطلابي الذين حفزوني وتعلمت من توجيهاتهم وتساؤلاتهم ومناقشتهم الكثير .

ولست أنكر الهمة والمعاونة الصادقة التي شارك فيها أصحاب وعمال مطبعة بورسعيد وكذلك السيد صابر عبد الكريم الذى أخذ على عاتقه من خلال الدار التي أنشأها للمعرفة الجامعية انجاز طبع هذا المؤلف ونشره بكل حماس .

سناء الخولى

الإسكندرية ديسمبر ١٩٧٧

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الفصل الثالث : علم الاجتماع العلمي

صفحة

الفصل الرابع : التفاعل الاجتماعى

الفصل الخامس : الثقافة والمجتمع

صفحة

الفصل الثامن : التدرج الطبقى

صفحة

الفصل التاسع : الأسرة

الفصل العاشر : التغير الاجتماعي والثقافي

صفحة

الفصل الحادى عشر : المشاكل الاجتماعية

الفصل الثانى عشر : تطبيقات علم الاجتماع

الفصل الأول

مدخل لدراسة الانسان والمجتمع

مقدمة :

عرف الإنسان منذ القدم الحياة الاجتماعية ، ولذلك فإن هناك اجماعا على أنها ظاهــرة عالمية ، حيث يمكن ملاحظتها في كل زمان ومكان ، وقد اهتم المفكرون عبر التاريخ وخاصة ، الفلاسفة والأدباء والشعراء والمؤرخون ورجال القانون بالجوانب الاجتماعية والانسانية التي تنطوي عليها العلاقات الاجتماعية . وعندما نقول أن الانسان مخلوق اجتماعي فإن هذا يعني انه يدخل في علاقات مستمرة مع الآخرين،ولهذا فإن معظم تصرفات الانسان أو أوجه نشاطه المختلفة لا يمكن تفسيرها الا من خلال علاقاته وارتباطاته مع الآخرين. وعندما يسلك الانسان بطريقة معينة في ظل بعض الظروف فإن ذلك يكون نتيجة للمتطلبات والتوقعات التي تخلقها أو تحتمها العلاقات الانسانية. فالانسان لا يستطيع إتباع أهوائه ونزواته أو يفعل ما يحلو له الا إذا كان يعيش بمفرده. ولكن نظرا لوجوده ومعيشته مع أفراد آخرين فإن هذا يفرض عليه أنماطا معينة من السلوك تكون مقبولة من هؤلاء . وإذن فلكي نتمكن من فهم الفعل الانساني ، لابد من التأكيد على أهمية الترابط الانساني في هذا المجال .

إن الترابط الذي نعنيه يختلف عن هذا النمط من الترابط الذي يوجد عند معظم الكائنات الحية ، ذلك أن معظم المخلوقات في المملكة الحيوانية يرتبطون بعضهم ببعض ، فالنمل كما نعلم يعيش في مجتمعات معقدة ومنظمة للغاية وكذلك النحل وأنواع أخرى عديدة من الحيوانات والطيور التي تتفاعل عن طريق

الغريزة . وباختصار فإن نماط الترابط موجودة فى معظم أشكال الحيــــاة العضوية وليس فى الانسان فقط . إذن ، ما الذى يميز الترابط الانسانى عن أنواع الترابط فى الكائنات الأخرى . إن الترابط الانسانى ثقافى Cultural وهذا لا يوجد فى الكائنات الأخرى . فالانسان يولد مجردا من أى استعدادات فطرية عن كيفية السلوك تجاه الآخرين ، ثم يتعلم Learns تدريجيا كيفية السلوك بطرق ابتكرها الناس أنفسهم عن طريق التجارب العامة للحياة المشتركة .

إن هذا السلوك المتعلم أو المكتسب لايكون واحد وإنما يتغير تبعا للمكان والزمن والظروف ، فالشيء الذى يعتبر موضوعيا أو مقنعا فى وقت ما أو فى مجتمع ما قد يعتبر خاطئا أو ساذجا فى وقت آخر أو فى مجتمع آخر . فالسلوك المكتسب إذن يتميز بالتغير المستمر بعكس السلوك الفطرى أو الغريزى الذى يتميز بالاستمرار والثبات .

ولكى نقدم الدليل على أن الحياة الاجتماعية عند الانسان ، ثقافية ، أساسا الأمر الذى ميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فلابد من أن نتعرف على الجوانب التى يختلف فيها الانسان عن الحيوان. ان الانسان جزء من العالم الطبيعى ،وقد وضع البيولوجيون والفسيولوجيون الانسان فى النسق الكبير للحياة العضوية ،وفى هذا الصدد تبين النظرية البيولوجية كيف تتشابه الطبيعة الفيزيقية للانسان مع بقية الكائنات الحية ، الا أن هذا الاتجاه ليس اجتماعيا Non - Social ونقطة الضعف فيه أنه يتكلم عن انسان لم يتعلم وبالتالى لم يكتسب الثقافة .

إن دراسة الانسان ، كمخلوق اجتماعى ، قديمة قدم النوع الانسانى نفسه . فجميع الأنبياء والفلاسفة والمفكرين أكدوا على معنى الانسان وثقافته . وقد

استخدم مصطلح الانسانيات Humanities منذ خمسة قرون ليس فقط لدراسة الانسان وفهمه ولكن أيضا ليتضمن حلقة واسعة من المجهودات الخلاقة مثل الفن والشعر والدراما وكذلك الدراسات العلمية مثل اللاهوت والفلسفة والتاريخ . ولذلك فانها تتضمن جميع المعارف المتراكمة عن الانسان وحياته الثقافية . وبمرور الوقت اتخذت العلوم الاجتماعية (بما فيها علم الاجتماع) اسلوبا حديثا ومتطورا فى دراسة الانسان وأصبحت المصادر التى تلجأ اليها جزءا لا يتجزء من الانسانيات .

ولقد فتح علم الاجتماع إلى جانب الانثروبولوجيا وعلم النفس مجالا جديدا فى دراسة الانسانيات . إلا أن هذه العلوم لم تظهر كميادين مستقلة للدراسة الا منذ حوالى قرن واحد من الزمان أو أكثر بقليل . وانصب اهتمامها على التقاليد الانسانية فى محاولة لفهم وتحليل الانسان والمجتمع . كما انها تدين لهذه التقاليد فى كثير من أفكارها ومفاهيمها . ومع ذلك ، فإن العلوم الاجتماعية تختلف بصورة واضحة عن الانسانيات القديمة وقد ظهر هذا الاختلاف بشكل واضح عندما حاول المفكرون الاجتماعيون ربط موضوع البحث Subject matter فى الانسانيات مع منهج Method العلم . ولعل هذا هو الذى أدى إلى ظهور علم الاجتماع كموضوع مستقل له إطاره التصورى الخاص به ، الذى استخدمه فى بناء الاتجاه العلمى لدراسة الانسان .

علم الاجتماع يحدد اهتماماته

ظهر علم الاجتماع كميدان مستقل يهتم بدراسة المجتمع الانسانى منذ حوالى قرن من الزمان . ومع أن دراسة المجتمع قديمة فى الفكر الاجتماعى تمتد إلى آلاف السنين ، الا أن هذا الفكر ارتكز على ملاحظة أشكال الاتصال الإنسانى

وتدوينها دون الاعتماد على أية أبحاث تستند إلى المناهج التجريبية التي يستخدمها العلماء اليوم للحصول على الملاحظات المضبوطة والقياس الدقيق للفصل الاجتماعي . ولهذا يختلف علم الاجتماع عن الفكر الاجتماعي القديم في أنه يعتمد على أسس موثوق بها للمعرفة المتصلة بأبعاد الحياة الاجتماعية والتي تقوم على محصلة تحليل الحقائق المتجمعة عن طريق البحث التجريبي .

ويهتم علم الاجتماع بصفة عامة بالظواهر التي يشار اليها بمصطلحات مختلفة مثل : مجتمع Society وجماعة Group ومجتمع محلي Community وسوف نعالج هذه المصطلحات فيما بعد عن طريق تقديم تعريفات أكثر دقة ووضوحاً، ولكن إذا افترضنا أن هذه المصطلحات تعني بالنسبة لكل منا شيئاً واحداً ، فسوف نجد أننا لا نتكلم مباشرة عن الأشخاص بالرغم من أنه لا توجد جماعات بدون أشخاص ، فمصطلح « جماعة » لا يعني فقط مجموعة من الأفراد ، لأن مجرد الأرقام لا تصنع جماعة ، فهي أكثر من ذلك في واقع الأمر . ومثال ذلك أن « الكلية » تتكون من عدد كبير من الأفراد ، ويمكن ملاحظة كل فرد فيها وهو يقوم بأعمال معينة في زمان ومكان معينين ، ففي كل يوم نجد أفرادا عديدين يحضرون في أوقات معينة إلى قاعات المحاضرات أو المعامل ويتخذون أماكنهم ويشرعون في القيام بأعمال معينة وعن طريق تلك الأعمال يمكن تعريفهم كأساتذة أو طلاب . نستنتج من هذا أن الكلية ليست مجرد مجموعة من الأفراد . وإنما هي مجموعة من الأفراد « منظمة » أو « منمطة » بطريقة معينة . من خلال المستويات والقواعد وطرق الاتصال ، التي تجعل الفرد في موقف معين يعرف ماذا يتوقع منه وماذا يتوقعه هو من الآخرين .

ويبدو واضحا أننا لن نعرف شيئا عن « الكلية » بمجرد معرفة الأفراد

المكونين لها بل نحتاج أيضا لتعريف طرق السلوك التي يندرج تحتها مصطلحى طالب Student وأستاذ Teacher وكذلك المستويات والقواعد التي تحكم اتصالات الأفراد إلى جانب أشياء أخرى عديدة . ولا تتحقق هذه الأشياء فى الواقع الا عندما يتفاعل الأفراد بطريقة منظمة ، وهذا ما يطلق عليه مصطلح « علاقات اجتماعية Social Relationships » . وتعنى فكرة العلاقة الاجتماعية بالنسبة للسوسيولوجى : العـلاقة التفاعلية التى تنشأ بين الأفراد نتيجة الفهم المشترك عما يتوقعه كل فرد من الآخر فى هذا التفاعل . ولهذا فإن التوقعات المتبادلة هى التى تحكم عملية التفاعـل . وهى التى تقوم بعملية تنميط التفاعل الاجتماعى بين الناس . وتمثل العلاقات الاجتماعية على هذا النحو بالاضافة إلى أنماط البنـاء الاجتماعى المنظم للمجتمع المحور الرئيسى لعلم الاجتماع . فعلم الاجتماع لا يهتم أساسا بطبيعة الأفراد وإنما يهتم ببناء العلاقات الاجتماعية التى يشاركون فيها .

إن تعريفات علم الاجتماع للعلاقات الاجتماعية أكثر من أن تخضع للحصر ، الا أنها تضع أمام الباحث مجالات عديدة للاختيار . فقد يركز على العلاقات الاجتماعية البسيطة والمباشرة التى تربط الأعداد الضخمة من الناس مثل علاقة الذكر والأنثى والعلاقات بين الأقارب أو بين الأصدقاء ، أو بين الأخوة ، أو بين شركاء العمـل الخ . . وقد يركز على مجموعة من العلاقات المختلفة التى تكون فيما بينها بناء اجتماعيا قائما بذاته مثل الأسرة . وقد يركز آخرون على العلاقات المنظمة التى تشكل ما يعرف فى علم الاجـتماع بالنظم الاجتماعية Social Institutions مثل النظم الأسرية والسياسية والتربوية والاقتصادية والدينية . ومع ذلك كله فإن هناك من يوسع مجال علم الاجتماع فيتصوره كعلم لدراسة المجتمع ككل .

ومهما تكن طبيعة هذه الاختيارات ، فإنه من الثابت الآن أن الفرد ربما يعيش حياته الشخصية منفردا الا أنه يكون فى نفس الوقت مشتركا فى الحياة الاجتماعية مع الآخرين . أى أنه يعيش نوعين من الحياة فردية وجمعية ، ومن المعروف أن دخول الفرد فى علاقات مع الآخرين يؤدى إلى ظهور الأشكال الاجتماعية المختلفة مثل الجماعات والنظم والمجتمعات المحلية وما شابه ذلك . وهذا ما نطلق عليه مصطلح « النظام الاجتماعى Social Order » الذى ينطوى على الانتظام والتنميط اللذين يميزان أى دراسة علمية . ومع ذلك يكون انتظام العلاقات الاجتماعية وتنميطها مسألة نسبية إلى حد كبير ، لأن التغير Change عامل دائم فى الحياة الاجتماعية . فمنذ ظهور علم الاجتماع وحتى الآن فإنه يعرف بأنه دراسة لكل من التنظيم والتغير فى الحياة الاجتماعية . وقد تكلم اوجيست كومت Auguste Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧) وهو صاحب مصطلح سوسيولوجى Sociology عن الاستاتيكا والديناميكا ليشير إلى هذه الفكرة .

المنظور السوسيولوجى :

يضع علم الاجتماع فكرة التفاعل الاجتماعى Social Interaction فى طليعة اهتماماته . ومن هنا تكون رؤية علم الاجتماع للعلاقة بين الأفراد ذات طابع خاص وشكل معين ، ولهذا يهتم علم الإجتماع بالأشياء الثابتة نسبياً فى شبكة العلاقات التى تظهر إلى الوجود نتيجة لاستمرارية التفاعل الإجتماعى ، والنمو والتغير فى الجماعات الإجتماعية ، والعمليات التى عن طريقها يصبح الأفراد أعضاء فى الجماعات الإجتماعيـة ، إلى جانب اهتمامه بدراسة الاختلافات فى السلوك الإجتماعى ، مثل الاختلافات فى المعتقدات والقيم التى تكون نتيجة للاختلافات فى العلاقات الإجتماعية .

وحرصا على الوصول إلى وجهة نظر سوسيولوجية واضحة ومتميزة يحاول المشتغلون فى ميدان علم الإجتماع التوصل إلى النتائج المترتبة على التفاعل الإجتماعى ، وخاصة تلك الأشكال الحديثة الثابتة نسبياً التى يتخذها هذا التفاعل ، ولهذا يلجأون إلى التساؤل عن نوعية التفاعل بين أفراد من أجناس مختلفة ، وكيف يختلف شكل الأسرة الحضرية فى الطبقة المتوسطة عنها فى الطبقة الدنيا أو العاملة وهكذا .

ونظرا لأن علماء الإجتماع يريدون لوجهة نظرهم السوسيولوجية أن تكون علمية ، فإنهم يشعرون بضرورة استنتاج بعض التعميمات من المادة العلمية المستخلصة من دراساتهم ، إذ لا يكون لهذه المادة العلمية أية قيمة إلا إذا تمكنا عن طريقها من التوصل إلى ملاحظات أكثر عمومية عن الحياة الإجتماعية ، ومثال ذلك ،إذا أراد السوسيولوجى دراسة مدى الإنعزال Segregation أو التكامل Integreation فى المدارس الحضرية فى الوقت الحالى ، فلابد أن يهتم بكل فرص التكامل فى المدارس الحضرية فى المجتمع ككل ، ويحاول أن يجد الاجابة على تساؤلاته التى استقاها من أفكاره النظرية .فيبرز العوامل التى تكون ضرورية فى الابقاء على الانعزال فى البناء الإجتماعى أو يحاول معرفة ما إذا كان التصنيع أو الحضرية أكثر انسجاما أو تساوقا مع الانعزال العرقى Racial . وبالمثل عندما يحاول السوسيولوجى أن يظهر الفروق أو الإختلافات بين أسرة الطبقة المتوسطة وأسرة الطبقة الدنيا فى مجتمعه فلابد أن يحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة السوسيولوجية العامة مثل : ماهى علاقة بناء الأسرة ببناء الطبقة فى المجتمع وهكذا .

وهناك عوامل عديدة لها أهميتها القصوى فى التوصل إلى سلامة النتائج

ودقتها ، كالمنظور المقارن The Comparative Perspective فمن المتعارف عليه أن العلماء عادة يهتمون بدراسة مجتمعاتهم المحلية ، إلا أن اتجاها مقارنا للدراسة بدأ يظهر نتيجة لتراكم المادة العلمية عن كثير من المجتمعات وخاصة المناطق النامية Developing Areas التى فتحت مجالا جديدا حتم على علماء الاجتماع ضرورة إعادة اختبار نظرياتهم وفروضهم المستقاه من دراساتهم المحدودة فى نطاق مجتمعاتهم . هذا إلى جانب شمول وجهة النظر السوسيولوجية التى أصبحت الآن أكثر اتساعا لاهتمامها بالاختلافات الثقافية العالمية للأبنية الاجتماعية .

وقد احتل مايعرف الآن بالوعى السوسيولوجى Sociological Consciousnessأهمية خاصةعند المشتغلين بعلم الإجتماع ، إذ عن طريقه يمكن أن نلاحظ بدقة التفاعل بين الناس وبين الجماعات الإجتماعية التى تقوم نتيجة لهذا التفاعل . ولهذا فإن مهمتهم الأساسية هى التركيز على الأبنية الرسمية (الصورية) لحياة الإنسان الجمعية وليس على التنظيم النفسى للحياة الفردية . وهذا يعنى بصورة أخرى أن لعلماء الاجتماع دائما وجهة نظرهم الخاصة التى ينظرون بها إلى الحقيقه الاجتماعية . وهو الذى يعرف الآن بالوعى بالمنظور الخاص الذى يخدم علم الاجتماع جيدا ذلك لانه يقدم وجهة نظر تتزايد أهمية وضرورة فى عالم يتحرك بسرعة من التنظيمات ذات المدى القصير أو المحدود إلى التنظيمات ذات المدى الواسع ، وقد أصبح للوعى السوسيولوجى أهميتهالخاصة فى النظرة المنطقيةالعقلانية للعالم الحديث إن الوعىالسوسيولوجى يتحول الآن ليكون عملية نفاذ أو اختراق Seeing Through لواجهة البناء الاجتماعى ، وخاصة بعد أن تبين أنه من خلف التنظيم السياسى أو البيروقراطى الظاهر للحياة الاجتماعية تكمن الحقيقة الاجتماعية التى تدوم وتبقى أكثر من الأبنية

الرسميـــة (١) ويترتب على ذلك أن عالم الاجتماع لابد أن يهتم أساسا ببحث الدوافع والأفعال والأنماط المعقدة للعلاقات الإنسانية التي يمكن أن تكون غير ملاحظة أو ظاهرة أو تطمسها التفسيرات الرسمية . ولهذا فإن علماء الاجتماع يركزون عادة على الجوانب المتخلفة من المجتمع والأوجه غير المرغوب فيها من الحياة لتقديم تفسيرات أكثر اقناعا وواقعيـة من التفسيرات الرسمية ، ففى الأحياء المتخلفة أو المجتمعات المحلية المنحرفة نجد لغة أخرى وقواعد وقيم أخرى وأسلوبا آخر فى الحيـاة . هـذه الأشياء تظهر مدى دقة ملاحظـة علماء الإجتماع وإذن فالوعى السوسيولوجى يتضمن حساسية من نوع معين تجاه تلك الأشكال من الحياة التى لا تحصره فقط فى دراسة الأشكال السوية من الحياة الاجتماعية .

وجدير بالذكر أن علم الاجتماع وخاصة فى السنين الأخيرة يؤكد على ما يسمى « بالوعى الحديث » بالعالم نظرا لما يصيب القيم فى الوقت الحاضر من تغير . فالمجتمع الحديث يتميز بالتنقل أو الحراك الاجتماعى Social Mobility والتنقل الجغرافى الذى يفتت جموع السكان إلى درجة كبيرة مما يؤدى إلى ابتكار طرق جديدة فى الحياة ، وقيم اجتماعية جديدة ، وبالتالى يكون من الصعب تطبيق المنظور التقليدى على المجتمع الحديث المتغير .

وهناك وجهة نظر لها أهميتها فى هـذا المجـال يعرضها س . رايت ميلز C. Wright Mills فى كتابه « الخيال السوسيولوجى » Sociological Imagination (٢) يعبر فيها عن تصوره الخاص للعقلية السوسيولوجية حيث

1 — Peter Berger : Invitation to Sociology : A Humanistic Perspective (Garden City, N.Y. : Anchor Books, 1963 .

2 — C.Wright Mills, The Sociological Imagination (N.Y. Oxford 19.9, Paper back edition Grove, 1961 .

يقول: وعن طريق الخيال السوسيولوجى يمكن الانتقال من منظور إلى آخر (من السياسى إلى النفسى من اختبار الأسرة الفردية إلى التقييم المقارن للمجموعة الدولية العالم من مدرسة اللاهوت إلى المؤسسة الحربية. من اهتمامات صناعة البترول إلى دراسة الشعر المعاصر الخ ...) أى أن الخيال السوسيولوجى هو المقدرة على التنقل من الأشياء المشخصة إلى الصور الخاصة جدا النفس البشرية ورؤية العلاقة بين الاثنين. وهذا باختصار ومايعنيه الخيـــال السوسيولوجى حيث أن الانسان يتمنى دائما أن يدرك مايحدث على نطاق العالم ويفهم أيضا مايحدث فى ذاته. والخيال السوسيولوجى هو أفضل الصيغ لهذا الوعى الذاتى.

وإلى جانب هذا يجب ألا نغفل أن المنظور السوسيولوجى يتطلب وعيا منظما يرتكز على منهج علمى، حيث لايمكن التوصل إلى افتراضات حقيقية وصادقة دون بيانات علمية صحيحة. وبدون تنظيم لعقل لن يكون المنظور السوسيولوجى سوى مجموعة من المعلومات أو الفروض المتراكمة ولن يؤدى فى النهاية إلى أية نظرية.

ويعتبر التحليل السوسيولوجى أيضا جزء من المنظور السوسيولوجى، لأنه يقيم نوعا من الضبط المنظم على شعور الباحث فى علم الاجتماع حيث يحتفظ بتحقيقاته دائما خلف حدود من المنطق والبرهان.

الوراثة والبيئة:

إن كثيرا من المسلمات التى يصدقها الناس عن البشرية والمجتمع ليست صادقة فى معظم الأحيان. ومن هنا تقع على عاتق علم الاجتماع مسئولية إثبات مدى صدق هذه المسلمات أو كذبها، وذلك عن طريق إحلال أفكار جديدة أكثر صدقا وموضوعية بدلا من تلك التى تبين أنها غير صادقة أو أصبحت غير مقنعة على الإطلاق.

وهناك كثير من المصطلحات المتداولة بين الناس مليئة بالأفكار الخاطئة عن الحياة الاجتماعية مثل مصطلحى الوراثة Heredity والبيئة Environment ومن المتعارف عليه أننا كثيرا ما نلقى اللوم على الوراثة أو البيئة باعتبارهما مسئولتين عن كثير من مشاكل البشرية ، أو النجاح الشخصى ، أو القادة العظماء أو الصراع الاجتماعى . وأشياء أخرى عديدة فى المجالات الانسانية لا يمكن حصرها . ويرجع أصل هذه الفكرة تاريخيا إلى الحجة السائدة التى تقابل بين البيئة والوراثة بطريقة ما للتوصل إلى أن أحدهما أو كليهما تكون السبب فى بعض الأحداث الاجتماعية . ويعبر عن ذلك بالعبارة المشهورة « الطبيعة فى مقابل التنشئة Nature vs Nurtur وهى التى تفسر الأسلوب الذى يتشكل على أساسه الكائن الانسانى ، فهو يكتسب الصفات الوراثية خلال العملية البيولوجية (الطبيعية) أو تتشكل أو تتحدد ملامحه من خلال معايشته للحياة « الإجتماعية التى ولد فيها (التنشئة) . إلا أن « الطبيعة فى مقابل التنشئة » تقدم تقسيما خاطئا ، لأنها تحصر الاختيار بينهما فقط . ولكن الحقيقة أنهما تكونان جزءا من العملية الكلية ولا يمكن الفصل بينهما أو الاستغناء عن أحداهما ، فكل منهما يكمل الآخر .

ومع ذلك فالعلم الاجتماعى الحديث لا يمنح للوراثة دورا بارزا فى تحديد الفعل الاجتماعى ، إذ ليس من المعقول أن نصدق أن الفرد يرث شخصيته ، كما أن معظم الآراء حول الاختلافات بين الأجناس البشرية — من وجهة النظر العلمية — ليس لها أساس من الصحة . والمشكلة إذن هى أن نحدد بطريقة أكثر دقة كيفية مساهمة العوامل الوراثية فى الشخصية الانسانية والاختلافات الملاحظة بين الأجناس المختلفة .

أما مصطلح « البيئة » فإنه يضيف نوعاً آخر من المشاكل ، لأنه نادراً ما يستخدم بمعناه الدقيق ، والاتجاه إلى اعتباره متضمناً لكل شيء يوقعنا في غموض ولبس . فإذا استخدمنا المصطلح بمعناه التقليدى الشائع فهو يعنى الظروف والتأثيرات التى تحيط بالكائن الحى وتؤثر فيه . ومعنى هذا أن البيئة هى كل شيء خارج نطاق الكائن الحى تعمل على التأثير فيه بطريقة أو بأخرى . فإذا قلنا أن البيئة علة السلوك فهذا يعنى أن كل شيء يحيط بالكائن الحى سبب فى سلوكه . ولكن إذا أراد العلماء الاجتماعيون أن يختاروا من مجموع العوامل البيئية تلك العناصر أو العوامل المعينة التى تسبب بعض الأحداث الخاصة فسوف يجدون أن مفهوم البيئة هنا لا يمكنه تقديم الإجابة الملائمة ، ويصبح بالتالى فكرة لا معنى لها .

وعندما نضع « البيئة فى مقابل الوراثة » كما هو الحال فى عبارة « الطبيعة فى مقابل التنشئة » فسوف نتبين أن البيئة تعنى المجتمع وبصورة خاصة الثقافة التى تحيط بالفرد . ولعل أهم تعبير عن دور البيئة فى خلق الفعل الاجتماعى يرجع إلى « البيئة الثقافية » إلى جانب « البيئة الطبيعية » التى تتمثل فى عالم الأشياء الطبيعية مثل المناخ والتربة التى تحيط بنا وتؤثر فينا . ويحاول البعض أن يقدم الدليل على أن البيئة الطبيعية هى العامل الاساسى فى الفعل Action . باعتبار أن المناخ والتربة يحددان إلى درجة كبيرة حياة الإنسان الاجتماعية . وهذه الفكرة ليست جديدة فمنذ حوالى ألفى سنة حاول أرسطو أن يرجع سبب تفوق الشعب اليونانى على غيره من الشعوب إلى موقع اليونان الجغرافى الممتاز كما حاول كثير من الكتاب والمفكرين أن يثبتوا أن المناخ البارد لاوربا الشمالية أثمر شعبا وحضارة عظيمتين .

وقد تبدو هذه الافكار مقبولة ظاهريا ومقنعة إلى حد ما إلا أنها فى حقيقة

الأمر لا تقوم على تحقيق دقيق . فالثقافة الاوروبية المزدهرة فى أوروبا الشمالية ليست أكبر من بعض الحضارات العظيمة التى ازدهرت فى الماضى فى مناخ حار (الحضارة المصرية مثلا) ، إذن لا يمكن أن يكون المناخ سببا فى إختلاف أنماط الحياة الاجتماعية . وأى اختبار للعلاقة بين الموقع الجغرافى والثقافة يظهر أن الثقافة القوية يمكن أن تنمو فى بيئات جغرافية مختلفة تماما ، كما أن الثقافات ذاتها قد تتغير فى أوقات مختلفة فى نفس البيئة .

وهنا تظهر أهمية الأساس الثقافى القوى فى تشكيل البيئة الإجتماعية فعندما تتمتع منطقة ما ببيئة جغرافية غنية تكون أمام الإنسان الفرصة الملائمة لبناء حضارة عظيمة ، إلا أن هذا لا يتحقق إذا كانت ثقافته قاصرة أو محدودة . فهنود أمريكا الجنوبية مثلا عاشوا قرونا طويلة فى بيئة غنية بالفحم والبترول ولم ينتج ذلك مجتمعا صناعيا ، وبقى الهنود الحمر بدائيين يجهلون تماما فرص النمو الإقتصادى الذى كانت بين أيديهم . والعكس صحيح أيضا ، فالإنسان لا يستطيع أن يستخدم البيئة الطبيعية لخلق حضارة مزدهرة عندما تكون الظروف الجغرافية غير مواتية ، هنا إذن تكمن العلاقة بين « البيئة الطبيعية » وبين « الفعل الإجتماعى » فهى تقدم ظروفا محددة وتخلق الفرص المواتية للانسان ، إلا أنه لا يتمكن من الإستفادة من هذه الفرص إلا أذا كانت لديه « ثقافة Culture » تتيح له معرفتها والإستفادة منها . وقد استطاع الإنسان بالفعل أن يؤثر فى البيئة الطبيعية تبعا لاحتياجاته ، فحفر الأرض من أجل الحصول على الفحم والمعادن ، واستخرج البترول والغازات من أعماق بعيدة فيها ، وغير مجرى الأنهار ، واحتفظ بكميات هائلة من المياه خلف السدود ، وحول الأرض البور إلى أرض صالحة عن طريق وسائل الرى الحديثة ، وبطرق أخرى متعددة سخر البيئة الطبيعية لخدمته . وإذن ، فعلى الرغم من

أهمية العوامل البيولوجية الوراثية والبيئة الطبيعية فى تفسير حياة الانسان الإجتماعية ، إلا أن هذه العوامل لا يمكننا تفسير الفعل الاجتماعى ، الذى تحكمه فى واقع الأمر الظروف والمواقف الاجتماعية إلى حد كبير .

دراسة علم الاجتماع :

لا تقتصر دارسة الانسان على ميدان واحد، فالعلوم البيولوجية والاجتماعية والانسانيات تهتم جميعا بالانسان، وتسهم جميعا فى محاولة فهم وتفسير السلوك الانسانى ، وعلم الاجتماع Sociology كواحد من هـــذه العلوم ، يركز على مقدرة الانسان الفريدة فى أن يؤثر ويتأثر بطرق عديدة ، ويبنى العلاقات الاجتماعية التى تمكنه من المعيشة فى النظام الاجتماعى القائم .

وما سبق سرده هو مجرد محاولة لفهم الطبيعة الانسانية والعوامل الداخلية والخارجية التى تؤثر فيها (١) . وسوف نبدأ دراستنا بمحاولة لفهم واضح ومحدد للموقف الذى يتخذه ، عالم الاجتماع ، تجاه الحياة الاجتماعية ، وطريقته الخاصة فى التفكير فيها ، وتحليله للأبنية الإجتماعية ، والمصطلحات التى يجدها مناسبة للتعبير عن اتجاهه . وبعد ذلك علينا باعتبارنا دارسين لعلم الاجتماع أن ننظر إلى المجتمع على طريقة علماء الإجتماع، ونكتشف لماذا ينظرون إلى المجتمع الانسانى باعتباره مصدرا للمشاكل ، ولكى نفعل ذلك ، لا بد من دراسة وفهم المجهودات السوسيولوجية التقليدية لنتمكن من الحصول على شكل تصورى دقيق لكثير من الأنماط الاجتماعية المختلفة للعلاقات الاجتماعية :مثل الجماعات الأولية والثانوية.Primary and Secondary groups،والتنظيمات الرسمية وغير الرسمية

---

١ - سوف نعود فى فصول لاحقة لتقديم تفسير واضح لهذه العوامل .

Formal and Informal Organizatior ، ومجتمع الفولك والمجتمع الحضرى Folk and Urban Society وغير ذلك . ويصنف علماء الاجتماع الظواهر الاجتماعية إلى هذه الأنماط كوسيلة إجرائية للوصول إلى نقطة بداية مرفقة فى تحليل الحقيقة الاجتماعية . وهناك عديد من علماء الاجتماع لا يهتمون بدراسة القطاعات الكبرى فى المجتمع . ويفضلون دراسة القطاعات الصغيرة للحياة الاجتماعية ، فيبحثون مثلا الطريقة التى يتمايز بها المجتمع ، وكيف تنتظم جهود الجماعة فى البيروقراطية ، وكيف تتغير المجتمعات المحلية من الريفية إلى الحضرية ، وكيف تمارس الصفوة Elite القوة الاجتماعية Social power ، وكيف تؤثر الأشكال التنظيمية فى الشخصية الانسانية ، وموضوعات أخرى عديدة عن كيفية معايشة الانسان للمجتمع .

وهناك نقطة سبق الاشارة اليها وهى أن علم الاجتماع ميدان جديد نسبيا ، الأمر الذى جعله يهتم بتحليل حكمة كبار المفكرين فى القرون الماضية (١) ، وخاصة أنه فى مراحله الأولى كان المجتمع محور دراسته يخضع لتغيرات بطيئة ويتميز بالثبات الى حد ما ، الا أنه نتيجة للثورة الصناعية فى أوربا أولا ثم فى جميع انحاء العالم بعد ذلك واتساع نطاق التخصص . وزيادة السكان ، واتساع المدن تدافعت التغيرات الاجتماعية والثقافية السريعة الأمر الذى واجه الانسان بتحديات واضحة لما تعوده خلال سنوات طويلة ، ولهذا فإن الأفكار القديمة بدأت تفقد فعاليتها ، فالمجتمع الجديد الذى نتج عن الثورة الصناعية أصبح واضحا أنه يحتاج لإتجاهات جديدة وأفكار جديدة عن بنائه وتنظيمه ، وأصبح من المحتم على الفرد والجماعة أن يراجعا المناهج التقليدية فى الحياة والنظرة اليها .

١ — سوف نشير فى الفصل التالى الى بعض المصادر التاريخية التى استقى منها علم الاجتماع فى بداية ظهوره الأسس التى قام عليها .

كل هـــذا أدى إلى أن فهم الفعل الاجتماعى ، والعلاقات الاجتماعية بأنواعها المختلفة ، والتفاعـل المنظم بين الأفراد والجماعات ، من أجـل التوصل الى فهم المجتمع والتغلب على المشاكل التى يواجهها من أهم سمات العصر الحديث

وقد تحولت هذه التصورات الجديدة منذ أواخر القرن التاسع عشر الى علم (علم الاجتماع) له موضوعـه ومناهجه وله اهميته البالغة فى فهم الانسـان ؛ وجدير بالذكر أن علم الاجتماع لايقتصر على مجرد الفهم من أجل توسيع نطاق المعرفة العلمية ، بل إنه يقـدم معاونة جوهرية فى تحـديد الاهـداف التى يمكن الاتفاق عليها ، ويعاون فى رسم الوسائل الناجحة لبلوغها .

وإذا كان علم الاجتماع يهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية ، والنماذج والأنماط المختلفة التى تتشكل على أساسها ، فإنه يبذل جهدا كبيرا لدراسة ما يطرأ على هذه النماذج والأنماط من تغير ، الأمر الذى يقوده إلى استكشاف كل الظروف والعوامل التى تؤثر فى مجرى الفعل الانسانى وطابع الحياة الاجتماعية. وعلى هذا فعلم الاجتماع يدرس البناء الاجتماعى للمجتمع ونمو وتفاعل الأنظمة والتنظيمات الموجودة داخل المجتمع ، ومعنى ذلك أنه يعـالج فى دراساته أى جانب من جوانب الانسانية ، أو أى صـــورة من صور السلوك من خلال مداخل تسعى جميعا إلى تحقيق النظرة التكاملية لمســائل المجتمع ، وفى ظل إطار محكم من النظريات التى تنطوى على قضـايا يمكن الاسترشاد بها واختبارها فى نفس الوقت .

ولا يختلف علم الإجتماع من حيث التوجيه النظـرى عن أى علم من العـلوم الإجتماعية ، حيث أن كلا منها يتميز بنوع معين من الاهتمام،وبطرقه الخاصة فى النظر إلى الكل . أما من حيث التطبيق فإن علم الإجتماع يقبى نوعيات خاصة من

من البحوث ، ويركز على عدد من المسائل التى لا تقع فى ميدان أى علم آخر على حدة . وبالرغم من أن علم الاجتماع لم يتوصل حتى الآن إلى نظرية متكاملة مثل نظريات العلوم الطبيعية والرياضية. وبالرغم من وجود نقاط عديدة لم يتفق عليها علماء الاجتماع حتى الآن (١) . إلا أن وضوح نظرة علم الاجتماع وشمولها فى بعض الأحيان ، وما توصل إليه من كفاءة منهجية ، جعل كثيراً من الدارسين فى العلوم الاجتماعية الأخرى يتبنون مدخله الخاص فى الفهم والبحث .

تخطيط عام لموضوعات علم الاجتماع

ان استعراض النظم والعمليات الإجتماعية يكشف عن وجـــود بعض الموضوعات التى لم يتناولها علم معين بالدراسة والبحث . فإذا كانت هناك علوم قائمة بذاتها لدراسة السياسة والاقتصاد والتاريخ والظواهر الأدبية واللغوية وغيرها ، فإن هناك موضوعات أخرى عديدة لم تظهر لدراستها علوم مستقلة كالأسرة والجريمة والطبقات الإجتماعية والمجتمعات المحلية الريفية والحضرية والجماعات العرقية والسلالية وغيرها ، هذه الموضوعات أصبحت الى حد كبير محور اهتمام علم الاجتماع وهو يحاول من خلال البحث فيها التوصل الى نظريات لتفسيرها وفهمها وتحليلها .

وعموما يمكن حصر مصادر الاهتمام فى علم الاجتماع فى النقاط التالية :

---

(١) ان اختلاف المجتمعات خاصة النامية والمتقدمة من حيث النمو التاريخى والثقافة جعل كثيرا من المسائل نسبية وليست نهائية ونظرا لأن علم الاجتماع يقوم على دراسة المجتمع فان ما يتوصل اليه العلماء من نتائج عند دراستهم لمجتمعهم قد لا يصدق على مجتمع آخر ومن هنا أصبح عدم الاتفاق بين العلماء أمرا ملحوظا .

١ — التحليل السوسيولوجى ويتضمن

دراسة الثقافة الانسانية والمجتمع

وتحديد المنظور السوسيولوجى

ورسم أبعاد المنهج العلمى وتصنيف أدوات البحث

٢ — الوحدات الأولية للحياة الاجتماعية التى تتضمن

الأفعال الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية

والشخصية الانسانية

والجماعات (بما فيها العقيدة والطبقة)

والمجتمعات المحلية (الحضرية والريفية)

والروابط والتنظيمات

والسكان والمجتمع

٣ — النظم الاجتماعية الأساسية وتتضمن

الأسرة والقرابة

والاقتصاد

والسياسة والقانون

والعقائد

والنظم التربوية والتعليمية

والنظم الترفيهية والرعاية

---

1 Alex InKeles, 'What is Sociology? An Introduction to the Discipline and profession' Prentice - Hall, Inc; Englewood Cliffs, Newjersey, 1965.

ووصف وتفسير الظواهر الجمالية والتعبيرية

٤ — العمليات الاجتماعية الأساسية وتتضمن

التمايز والتطابق

والتعاون والتلاؤم والتماثل

والصراع الاجتماعى (بما فى ذلك الثورة والحرب)

ووسائل الاتصال (بما فى ذلك تكوين الرأى والتعبير والتغير)

والتنشئة الاجتماعية

والتقييم الاجتماعى (دراسة القيم)

والضبط الاجتماعى

والانحراف الاجتماعى (الجريمة والانتحار الخ ...)

والتكامل الاجتماعى

والتغير الاجتماعى .

وهكذا إذا استعرضنا رؤوس الموضوعات السابقة يتبين لنا مدى الصعوبة التى يمكن أن تواجه الباحث فى علم الاجتماع نظرا لإمتداد البحث إلى مسائل متعددة ومتنوعة ومتداخلة ، فى الوقت الذى قد تكون متصلة بعلوم أخـــرى كالسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ وأحيانا البيولوجيا والرياضيات والتكنولوجيا . ولهـذا لا بد أن نلجأ إلى تصنيف ميادين البحث فى هـذا العلم حتى نتجنب الغموض أو التداخل أو التنوع الهائل الذى وصل اليه الآن .

وعموما فإن كثيرا من موضوعات علم الاجتماع العام بدأت تنسلخ عنه مكونة فروعا مستقلة . وعندما ينقسم العلم إلى فروع فإنه يطلق عليها فـروع

، التخصص العلمي الضيق ، وقد أصبح من المتعارف عليه أن فروع الاجتماع المتخصصة هي كما يلي : -

١ - علم الاجتماع الريفي
٢ - « « الحضري
٣ - « « الأسري
٤ - « « الاقتصادي
٥ - « « الصناعي والمهني
٦ - « « القانوني
٧ - « « الديني
٨ - « « المعرفي
٩ - « « الفن
١٠ - « « السلوك المنحرف
١١ - « « السياسي
١٢ - « « التنظيمات
١٣ - « « التنمية
١٤ - « « القيم

وقد تدعو الظروف التي يمر بها المجتمع إلى نشأة فروع جديدة مثل علم الاجتماع الطبي وعلم اجتماع المستشفى وعلم اجتماع الطبقات الاجتماعية الخ ..

القيمة العملية لعلم الاجتماع

١ — كلما ترامت أطراف المجتمع ، وكلما تعقدت ظروفه الاجتماعية نتيجة للتغيرات المتلاحقة أصبحت المعرفة الاجتماعية أكثر الحاحا وأوسع مدى .

ولذلك لا يتسنى لمشتغل بالسياسة الاجتماعية العامة أن ينجح فى مهمته ، إلا إذا كان لديه قدر كاف من المعرفة عن المجتمع الذى يرسم له خطوط نموه الاجتماعى والاقتصادى . كذلك يلاحظ أن السياسة الاجتماعية لمجتمع معين ، اذا كانت ذات طابع شامل ومحدد فى نفس الوقت أصبحت الحاجة ماسة الى المعرفة ذات الطابع السوسيولوجى أكثر من المعرفة ذات الطابع الاقتصادى أو السياسى . وذلك لأن دراسة المجتمع دراسة علمية تساعد الى حد كبير على التخطيط المستقبلى للمجتمع (١) .

٢ — نظرا لاتساع المجتمعات الحديثة فإن خبرة الفرد تقتصر على عدد محدود من الناس ، ولذلك يظل الفرد فى المجتمع الحديث بعيدا عن أغلب أعضاء المجتمع ، لا يعرف دوافعهم ولا نظرتهم أو طريقتهم فى الحياه . كما أنه تقوم الى جانب الثقافة الكلية فى المجتمع ثقافات فرعية تتميز بخصائص مختلفة ، لهذا يصعب على أغلب الأفراد فهم أفراد أو جماعات أخرى ينتمون إلى نفس الثقافة الكلية . من أجل هذا يصبح علم الاجتماع ضرورة ثقافية واجتماعية ملحه فى المجتمع الحديث . فمن طريق دراسة علم الاجتماع يستطيع الفرد فى المجتمع أن يكون على علم بما يجرى فى نطاق الحياه الاجتماعية لأفراد آخرين أو فى جماعات أخرى قد لا يتيسر عليه طوال حياته أن يتصل بها . إذن علم الاجتماع ينمى التكامل الاجتماعى وهو لذلك عنوان وحدة المجتمع (٢) .

---

(١) مثال ذلك اننا اذا كنا بصدد رسم سياسة لضبط النسل فانه يجب أن ندخل فى اعتبارنا مسائل اجتماعية بحتة مثل : التنظيم الاجتماعى ، والتنظيم العائلى وديناميات السكان وعادات الانجاب والقيم التقليدية ، وكل هذه الموضوعات لايمكن أن نحسن تدبيرها أو تحليلها الا إذا اعتمدنا على علم الاجتماع بصورة أساسية .

(٢) عاطف غيث ، «علم الاجتماع» دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ١٧٥-١٧٧ .

٢ — ان تأثيرات علم الإجتماع على الطالب متعددة فهو يحرره بصفة مبدئية من التعبيرات غير العلمية التي تعود ترديدها عن الزمن والمكان والظروف. كما تحرره من العوائق المرتبطة بثقافته الأم . كما أن دراسة علم الاجتماع تقود الطالب وتعرفه بدور المنطق والمنهج العلمي في اكتساب المعرفة وبالتالي الإسهام فيها ، كما تساعده على الاحساس بالنظام الإجتماعي والإطلاع على أحدث المناهج . بالإضافة الى أن علم الإجتماع هو الفــــرع الذى يستغرق ثقافتين ، العلمية والإنسانيه ويستخدمهما كما يفعل منهج العلم في استكشاف الإهتمامات والأعمال الإنسانيه السابقة واللاحقة ، وأخيرا فإن علم الإجتماع يضع أمام الطالب الصورة الكاملة للمشكلة القديمة ألا وهي العلاقة بين المجتمع والفرد (١) .

٣ — إن الإنسان المثقف بوجه عام لا بد أن يكون لديه الألمام الكافى والتقدير المناسب للاشياء التي قد تفوت الرجل العادى . ومن هنا تكون دراسة علم الإجتماع مفيدة من الناحية الشخصية ، إذ عن طريق هذه الدراسة يستطيع الفرد أن يحصل على فهم أفضل لنفسه وللآخرين، كما يتيح له هذا الفهم أن يكون أكثر مرونة إزاء المواقف الجديدة ، ومن ثم يستطيع أن يوسع مــــدى الإحتمالات والنتائج التي يتصور فيها الفعل . وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله يتجه المسئولون عن التعليم في جميع أنحاء العالم ، إلى جعل دراسة علم الإجتماع جزءا أساسيا من الدراسة في كل الكليات الجامعية والمدارس مهما اختلفت تخصصاتها .

---

1 — Robert Bierstedt, 'Sociology and General Education' in Charles H page (ed) Sociology and Contemporary Education)N.Y. Random House, 1964, pp. 54 - 55.

٤ — قد يتساءل البعض عن فائدة علم الاجتماع ودور عالم الاجتماع فى الاصلاح الاجتماعى وحل المشاكل الاجتماعية ونستطيع أن نجيب عليهم بأن رجل الاجتماع عادة لا يكون لديه القوه التنفيذية لوضع أفكاره موضع التطبيق العملى وإنما تكون مهمته فى أن يحلل وأن يشرح وأن يزيد من كمية المعرفة وأن يقدم المشورة وأن يعاون على تحديد السياسة الاجتماعية ، داخل إطار هيئة منظمة يناط بها مثل هذا التحديد . ان عالم الاجتماع شأنه فى ذلك شأن أى عالم آخر يستطيع أن ينمى المعرفة التى تعاون على حل المشاكل التى تعترض المجتمعات ، ولكنه مثل أى عالم آخر لا يستطيع أن يسيطر على مجرى الحوادث (١) .

وعموما فإن علم الاجتماع يضع نفسه دائما فى خدمة المجتمع المحلى والمجتمع العالمى فى نفس الوقت بعكس كثير من العلوم التى تغلق نفسها على العدد القليل من المتخصصين فيها ، ولا تبذل فيها محاولات حقيقية لجعل المعرفة التى تتوصل اليها فى متناول الجميع (٢) . وردا على هؤلاء الذين يتهمون علماء الاجتماع بأن أسلوبهم غير ملائم حيث أنهم فى كثير من الأحيان يستخدمون اللغة العادية وليس المصطلحات العلمية البحتة نؤكد أن الصورة الأدبية لأعمال هؤلاء العلماء ليست أقل قيمة بصفة عامة مما نجده فى كثير من فروع المعرفة الانسانية .

---

(١) الجيولوجى مثلا لايسأل الاعن تحديد الأماكن التى يحتمل أن يكون فى باطنها خام البترول ، ولا يمكن أن يطلب منه منع الاستغلال السىء للمصادر الطبيعية ، كما لا يمكن أن يطلب من المؤرخ تحويل مجرى التاريخ الخ . . .

(٢) عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ص ١٧٩ — ١٨٠

الفصل الثانى

بدايات علم الاجتماع وتطوره

إن أى فرع من فروع المعرفة العالمية هو من غير شك من صنع الانسان ، ويتأثر نموه وتطوره بالتجارب التاريخية لهؤلاء الذين كانوا سببا فى ظهوره . ولا يستطيع علماء الاجتماع تجاهل أثر الأشخاص البارزين فى أحداث زمانهم الأمر الذى يترك دائماً أثرا بارزا فى نظرياتهم .وتظهر النظريات إلى الوجود عند ما يكرس العلماء جهودهم لدراسة ظـــاهرة أو مشكلة بعينها ، وعن طريق هذا الإهتمام المركز يتوصل الدارسون إلى اكتشاف مناهج البحث ، ومجموعة الإجراءات التى تمكن من التوصل إلى نظرية متطورة .

أصول ما قبل العلم

خضع علم الإجتماع للتأثيرات التاريخية باعتبـــاره فرعا من فروع العلوم الإجتماعية ، ومعرفة هذه التأثيرات ضرورى لكى نفهم لماذا أصبح علم الإجتماع ما هو عليه الآن . ويفترض ذلك التعرف على العناصر التى أثرت فى التشكيل التاريخى لعلم الإجتماع كفرع من فروع المعرفة إلى جانب دراسة العناصر التى تفسر وضع علم الإجتماع المعاصر. لهذا يفضل الكثيرون تتبع أصول نشأته الأولى فى أوربا الغربية فى القرن التاسع عشر وخاصة فى فرنسا وألمانيا ثم ظهور فروعه المختلفة وتخصصاته الدقيقة وخاصة فى أمريكا ،وأخيرا المحاولة التى قام بها علماء الإجتماع المعاصر فى السنوات الأخيرة لكى يصنعوا من آرائهم وأفكارهم علما له مميزات العلوم التجريبية من حيث الموضوعية والثبات والتجريد .

ومن المؤكد أن مصادر علم الاجتماع الفعلية ترجع إلى أزمنة بعيدة فى الفكر

الانسانى فهى تعود إلى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين الذى ظهر فيه الرواد الأوائل فى العلوم المعاصرة المختلفة مثل آدم سميث فى الاقتصاد وأوجست كومت فى علم الاجتماع وسيجموند فرويد فى علم النفس وإدوارد تايلور فى الانثروبولوجيا وغيرهم . إلا أن هؤلاء الرواد لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من علم من العدم مثل نيوتن الذى اكتشف قانون الجاذبية مثلا وإنما كان ما توصلوا إليه يقوم على أكتاف المفكرين العمالقة الذين سبقوهم . واستفادوا إلى أقصى درجة من آرائهم وخبراتهم

لقد اعتمد هؤلاء العلماء أولا على ما تركه قدماء المصريين والبابليون والحضارات القديمة الأخرى ، وعلى الرغم من صعوبة تتبع الأصول Origins إلا أن بعض العلامات البارزة تبدو على الطريق ، حيث تؤكد معظم الكتابات القديمة أن الإنسان كانت له محاولات متصلة لفهم حياة جماعته وضبطها وتشير الدلائل إلى أن المحاولات الأولى للضبط كانت فى المجالات الدينية والسياسية ويبدو هذا واضحا فى تعاليم قدماء المصريين على المعابد وأوراق البردى ، وفى الوحدة السياسية والدينية فى قوانين مانو Laws of Manu فى الهند التى تطور على أساسها نسق الطائفة هناك .

وبالإضافة إلى هذه المصادر الدينية والسياسية فقد أسهمت جهات أخرى فى تأصيل العلم الإجتماعى ، حيث يرجع إلى فلاسفة اليونان الفضل فى وضع أسس العقلانية الغربية التى تعتبر العامل الأساسى فى نمو العلم . إلا أن هذه الجذور الفلسفية والتاريخية لم تنتظم كعلم اجتماعى متماسك فى هذه الأزمان المبكرة لأنهما كانت تفتقد إلى عنصر التكامل النظرى من حيث المنهج السليم واتباع الأساليب العلمية المقننة .

وقد حاول المفكرون القدماء أمثال أفلاطون إقامة نظرية اجتماعية مثالية كذلك حاول ابن خلدون وضع نظرية تؤكد أن المجتمع يعمل نتيجة للقوانين الطبيعية ، ويرى بعض علماء الاجتماع المعاصرين (١) أن ابن خلدون يمكن وضعه جنبا إلى جنب مع أفلاطون وأرسطو وفيكو وأوجست كومت على أنه أحد مؤسسى علم الاجتماع ، إلا أن آخرين يرون أنه مؤرخ ولا يمت، لعلم الاجتماع بصلة . وعموما فإنه يمكن اعتبار الدراسات التى قدمها هؤلاء المفكرون مرحلة هامة من مراحل التوصل إلى المنهج والأسلوب العلمى .

إن الدراسة العلمية الحقيقية يجب أن تقوم على العقل ولهذا فإن التجربة والملاحظة الدقيقة المباشرة كانت الاسهام العظيم الذى قدمه الفلاسفة الاجتماعيون فى عصر العقل Age of Reason حيث تبنى المفكرون مدخلا جديدا يسير على نهج الدراسة العلمية التى قدمها جاليليو ، وكذلك المعرفة النظرية فى مجال الرياضيات ، والطبيعة التى تطورت على يد اسحق نيوتن والتحليل التصنيفى للمعرفة الذى قدمـــه فرنسيس بيكون وكذلك اسهامات رينيه ديكارت فى الرياضيات والفلسفة.وبناء على هذه الأعمال العظيمة فى تاريخ الجنس البشرى حاول فلاسفة السياسة والمجتمع استخدام المدخـــل العقلانى لشرح وتفسير السلوك الانسانى . ومنذ ذلك الوقت أخذت العلوم الاجتماعية تسير فى طريق العقل والتجربة ومحاولة الابتعاد عن الدراسات غير العلمية . وكان من أحد هذه النتائج زيادة التخصص بين فروع المعرفة المختلفة .

وقد ظهرت مؤخرا علوم اجتماعية حديثة مثل علم الاجتماع وإلى حد ما الانثروبولوجيا لاتدرس قطاعات محددة فى المجتمع (مثل السياسة أو الاقتصاد)

1: Pittrim Sorokin, "Society, Culture and Personality. p.10

ولكنها تستخدم منظورا جديدا للملاحظة ودراسة وفهم الحياة الاجتماعية. وقد انحصر اهتمام الانثروبولوجيا فى دراسة الشعوب البدائية والثقافة الانسانية، وعندما كان الانثروبولوجيون الأوائل يشرعون فى دراسة مجتمع غير غربى فإنهم كانوا يحاولون وصف طريقتهم فى الحياة ككل ومن هنا يمكن أن القول بأن الانثروبولوجيا أول علم متخصص فى الحياة الاجتماعية يقارن الثقافات الغربية بغير الغربية.

أما علم الاجتماع فقد كان ظهوره نتيجة حتمية للمشاكل والقضايا الحيوية التى أصبحت تواجه المجتمع الغربى فى أوروبا القرن التاسع عشر. ولعل السبب الحقيقى أو الأساسى يرجع إلى التأثير التدريجى المتراكم للثورة الصناعية التى غيرت بعمق بناء المجتمع الانسانى. فالثورة الصناعية دفعت الفلاحين إلى الانتقال إلى المراكز الحضرية وحولتهم الى عمال، وأقامت المدن مكان القرى، وقد أدى ذلك إلى نتيجتين هامتين:

١ — أصبحت حلقة التجارب الشخصية اليومية للفرد محدودة بالمجال الذى يحده بالعلاقات الحميمة القائمة فى عالمه الخاص (أسرته) وذلك لاتساع ونمو وتعقد العالم الخارجى.

٢ — أصبح العالم يتغير بسرعة فائقة بحيث لا يمكننا الافتراض أن العالم فى عصرنا هو نفسه كما كان فى عصر آبائنا، ولن يكون هو نفسه فى عصر أبنائنا. فالانسان المعاصر يعيش عالما اجتماعيا واسعا ومعقداً يصعب فهمه عن طريق أى تجربة فردية، إلى جانب تغيره السريع والمستمر. فلم يكن فى استطاعة انسان القرن التاسع عشر أن يتنبأ بالتغيرات العظيمة التى أطاحت بالإشكال القديمة للحياه.

وقد ترددت الآراء بين الإعجاب بالتغيرات والتفاؤل بها وبين الخوف والتشاؤم منها . أما الطبقات المثقفة وكثير من المفكرين الاجتماعيين فإنهم ينظرون إلى التحول الصناعى الذى أصبح ينتشر فى معظم أنحاء العالم بأنه مصدر التفاؤل والتشاؤم فى نفس الوقت ويرجع تفاؤلهم للتغير الواضح والسريع فى أنماط المجتمع التقليدية ، أما تشاؤمهم بالنسبة لمستقبل المجتمع الإنسانى فيرجع الى تخوفهم من أن ينتهى هذا التغير العظيم بتحطيم المجتمع نفسه ، فـإذا لم يجد الإنسان نفسه فى وضعه الاجتماعى المألوف ، فماذا يمكن أن يكون ؟ وإذا لم يوافق على المستويات الأخلاقية لأسلافه فماذا يعنى ذلك بالنسبة لسلوكه ؟

هذه التساؤلات تؤكد مدى تأثير التغيرات الثورية عـلى المجتمع الإنسانى ، وتؤكد أيضاً على أن الحياة الإنسانية كان لا بد لها أن تنتظم فى مجتمع ، ولا يمكن أن تكون مجرد أفراد مستقلين ، يعمل كل منهم على هواه .

وقد كان ظهور علم الإجتماع محاولة لتقـديم تفسير منطقى أو عقلى للقوى الثورية التى غيرت بالفعل بناء المجتمع الإنسانى ، لأنه لم يعد فى الامكان النظر إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والمعتقدات والقيم على أنها شىء مسلم به . كما أن الافتراضات القديمة حول الإنسان والمجتمع أصبحت موضع تساؤل نتيجة للتغير المتلاحق للمجتمع وللانسان نفسه كنتيجة للمعيشة فى نوع جديد من الحيـاة . والمجتمع ، باختصار ، ليس دائما هبة أو منحة Given ، فى حيـاة البشر بل إنه قد يكون مشكلة Problem[1] . ومن وجهـة النظـر العلميـة يعتبر أى شىء ، مشكلا ، إذا لم نستطع فهمه بشكل كاف . فالكائنات البشرية تعيش فى العـالم الاجتماعى الذى تفهمه وتعرفه عن طريق مجموعـــة متعارف عليها نسبيا من

---

1. James B McKee, 'Intreduction to sociology' Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1969 pp. 20-23.

التفسيرات والافتراضات التى تكون فى العادة مشتركة بين مجموعة من الناس ، وعن طريقها يصبح عالم الإنسان الإجتماعى وجودا له معنى . فالناس يتحركون فى كل مجالات نسبيا ، ومن خلال نظرة كلية للعالم ، ناتجة عن مجموعة من الملاحظات التجريبية والأساطير والمعتقدات الخرافية والسحر . أما المستويات العقلية العالية فكانت معظم تفسيراتها للمشكلات التى تعترض المجتمع فلسفية أو لاهوتية . وأحيانا فقط (ويكون ذلك جزئيا) تكون علمية . فلم يكن ضروريا أن يفهم كل شيء ويفسر . وكانت معظم التفسيرات العلمية فى المرحلة السابقة على العلم مقبولة كأشياء غامضة وخلف محاولة فهمها التعرض للموت . كما كان العالم فى تلك العصور يتميز بالغموض ويمتلىء بالاسرار التى يعجز الإنسان عن إدراكها وفهمها . إلا أن هذا الغموض لم يستمر إلى ما لا نهاية ، لأن التحول التاريخى الذى تعرض له العالم الغربى بدخول التصنيع والتكنولوجيا خلق أنماطا جديدة للتفكير وطرقا للبحث عن حلول المشاكل تلتزم اسلوب البحث العلمى المعرفى ، فالعلم هو طريقة الاستقصاء فى العالم التجريبى ، الاجتماعى والطبيعى ، وطريقة طرح الأسئلة والبحث عن الاجابة تؤدى بالإنسان المعاصر إلى التوصل إلى درجة عالية من الصدق واليقين أكثر من أى طريق آخر للاستقصاء .

وعندما نفكر فى العلم كطريقة للاستقصاء لا بد أن نؤكد عليه كمنهج Method ونظرية Theory . حيث أن كيان البيانات العامة ينمو عن طريق الاستقصاء العلمى ، لأن العلم هو أسلوب للاستقصاء التجريبى الدقيق . وهو الطريقة الملائمة لحل المشاكل عندما تعبر المشكلة عن أشياء مجهولة أو غير مفهومة فى العالم التجريبى .

وكل علم من العلوم هو أسلوب للبحث فى مشكلة أو أكثر ، أو مجموعة من المشاكل المترابطة ، وموضوع العلم فى هذه الحالة يكون فى تحديد نوع الظاهرة « المشكلة » ، التى يتحرى عنها الإنسان بشتى الوسائل التى تتلاءم مع المبادىء المقررة للمنهج العلمى والتى تؤدى إلى نتائج فعالة وكما تطبق العلوم الطبيعية المنهج العلمى على مشاكلها الخاصة ، تطبقه أيضا العلوم البيولوجية على المشاكل التى تتصل بالكائنات الحية ، والعلوم الاجتماعية تطبقه أيضا للتوصل إلى الأشياء التى يرغب الإنسان فى معرفتها عن نفسه وعن عالمه الاجتماعى . وعلم الاجتماع هو أحد هذه العلوم الاجتماعية ، ويمكن تعريفه من خلال مجموعة المشاكل التى يحاول المتخصصون فيه وضع حلول مناسبة لها عن طريق الدراسة العلميـــة .

مشكلة المجتمع الانسانى

ليس هناك شك فى أن التغيرات الاجتماعية المتلاحقة فى العصر الحديث غيرت بعمق العالم الاجتماعى المألوف ، وبالتالى أصبح من غير المناسب أن نفكر فيه بالطريقة التقليدية التى كانت سائدة فى الفكر العام عن المجتمع . فقد أصبح الناس يشعرون بأن عالمهم الاجتماعى مختلف ، ولذلك يحاولون التعرف عليه بمستوى جديد للمعرفة الاجتماعية ، ويسألون أسئلة عن أشياء لم تكن من قبل موضع تساؤل . فالعلم الحديث بحث على مستوى دقيق ومؤكد للشعور الاجتماعى يفوق جميع العصور السابقة . كما خلق إيديولوجيات اجتماعية وعلوم اجتماعية تحاول إيجاد الاجابة عن تساؤلات الناس حول المجتمع الحديث .

ويرجع مصدر هذا الشعور الاجتماعى المكثف إلى وقوع الحياة الاجتماعية فى أوربا تحت تأثير التصنيع والحضرية — كما سبق أن أشرنا — وهذا أدى إلى

تصادم أفكار الكثيرين ومفاهيمهم عن المجتمع الإنسانى نتيجة لهذا التغير الثورى. وأصبحت كثير من الظواهر الاجتماعية القديمة والحديثة مثل تفكك المجتمع وانهيار الأشكال الاجتماعية المألوفة للقربة والقرابة موضع تساؤل . هل هذه التغيرات الواسعة والجذرية هى بداية تفكك المجتمع ككل ؟ ومتى ستظهر الأنماط غير المعروفة حتى الآن للمجتمع ؟ وكانت هذه التساؤلات نتيجة مباشرة لملاحظات الناس عن التحولات والتغيرات التى يتعرض لها المجتمع أمام أعينهم وفى فترات قصيرة للغاية بالمقارنة بالفترات السابقة .

وفى محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة ظهرت تساؤلات أكثر عمومية مثل : كيف يمكن للانسان أن يخلق وأن يحافظ على بقاء المجتمع الإنسانى ؟ وكيف استطاع الإنسان الابقاء على النظام الإجتماعى وأن يتجنب التفكك ؟ وكيف كانت العناصر الأساسية ضرورية لوجود المجتمع ؟ وكيف كانت الروابط الإجتماعية تربط الناس فى حياة عامة ؟ وما هى مصادر التغير الإجتماعى ؟ وظهرت إلى جانب هذه التساؤلات تساؤلات أخرى لاحقة مثل : كيف يستطيع المجتمع ضبط الإتصال الفردى ؟ وما هى العلاقة الضرورية بين الفرد والجماعة ؟ وما هى أهمية الجماعات الإجتماعية الصغيرة فى المجتمع مثل الأسرة والمجتمع المحلى لكل من الفرد وعلاقته بالمجتمع وكذلك بالنسبة لتنظيم المجتمع ؟

هذا وقد استقل علم الإجتماع عن الفلسفة فى القرن التاسع عشر واتخذ شكله الخاص ، وكان « أوجيست كومت » هو الذى أطلق مصطلح علم الإجتماع Sociology على العلم الجديد (١) ، وقد قسم كومت علم الإجتماع إلى قسمين

---

(١) ينقسم مصطلح سوسولوجى الى جزئين : مقطع Logy يشير الى الدراسة ذات =

رئيسيين هما : (أ) الاستاتيكا الإجتماعية التى تدرس الثبات والاستقرار فى المجتمع و (ب) الدينا ميكا الإجتماعية التى تدرس الحركة والتغير . وقد استمر هذا التقسيم فى معظم الدراسات السوسيولوجية اللاحقة على كومت . وعموما فإن محتوى علم الإجتماع تأثر إلى حد كبير بوجهات النظر النقدية المعاصرة لفترة ظهوره سواء كانت محافظة أو متحررة .

وقد كان لليبرالية الكلاسيكية Classic Liberalism نظرة خاصة للمجتمع تركز على الإحتياجات والإهتمامات المتصلة بالطبقة الإجتماعية المتوسطة فى المجتمع الصناعى الحديث . حيث كانت تضع تصورا خاصا للمجتمع الأفضل باعتباره مجتمعا توجد فيه نظم أساسية متعددة (أسرية ، سياسية ، اقتصادية ودينية) مستقلة وكل منها منفصل عن الآخر ، وتكون الحكومة فيه منحصرة فى وظائفها وسلطاتها ، ويكون الفرد حرا فى ممارسة اهتماماته كما يراها ، ولا يحد من هذه الحرية سوى المحافظة على حقوق الآخرين . إنها صورة للمجتمع تكون القيم الرئيسية فيها هى : الحرية Liberty والفردية Individualism .

وفى مقابل هذا الإتجاه التحررى يقف الفكر الكلاسيكى المحافظ Classical Conservative Thought معارضا لهذه الأفكار الليبرالية تماما ، حيث تقوم وجهة نظره الأساسية على معارضة هذا العالم الإجتماعى الجديد الذى يأخذ طريقة إلى الوجود . ومن أنصاره لويس دو بوندال Louis De Bondal وجوزيف دو ماستر Joseph De Maistre فى فرنسا وادموند بيرك

المستوى الرفيع من حيث الدقة والتعمق اما مقطع Socio فانه يشير الى المجتمع ومن ثم فان الكلمة مجتمعة تعنى : دراسة المجتمع دراسة تتسم بدرجة عالية من التعميم والتجريد

Edmund Burke في انجلترا الذين اعترضوا على الإفتراضات الأساسية للفكر الليبرالي . وأرجعوا ضعفها الأساسي إلى النقاط التالية : (١)

١ ـ « طبيعة المجتمع » ليست مجرد تجمع الأفراد ولكنها « وجود عضوى » Organic entity من التقاليد والتاريخ ، ووجوده مستقل عن الأفراد المكونين له كأعضاء .

٢ ـ « أسبقية المجتمع » على الفرد تؤكد الحقيقة القائلة بأن المجتمع يستمر في الوجود بينما يموت الناس . فالمجتمع يسبق الفـــرد من حيث الوجود ، كما أن الإنسان يصبح إنساناً فقط من خلال مشاركته في مجتمع قائم بالفعل .

٣ ـ « المجتمع لا يمكن ان يذهب إلى الأفراد » لأنه وجود اجتماعى متميز وليس مجرد تجمع للافراد ، كما أن وحدته تكمن في ظاهرة اجتماعية بحتة الا وهى العلاقة الإجتماعية وليس الفرد .

٤ ـ « الاعتماد المتبادل بين جميع الظواهر الاجتماعية » الذى يميز الحياة الإجتماعية ، فالمجتمع نسيج غير متجانس ومعقد للغاية ، والتفكك أو التمزق الذى يتعرض له أحد أجزائه سوف يتشعب بالضرورة إلى بقية خطوط العلاقات الاجتماعية .

هذه الافتراضات العامة التى قدمها الفكر الكلاسيكى المحافظ أصبحت حجر الأساس في الفكر السوسيولوجى الحديث . وبناء على ذلك أصبح في إمكان أصحاب هذا المنظور التأكيد على قيام علم اجتماع مستقل عن الفلسفة وعلم

1 — Robert Nisbet : Conservatism and Sociology, American journal of sociology (September 1952). pp167-175

النفس ، باعتبار « المجتمع » وجودا مستقلا وقائما بذاته يمكن دراسته دراسة مستقلة .

وسوف نستعرض فيما يلي بعض آراء رواد علم الاجتماع من خلال الظروف الاجتماعية التي عايشوها في عصرهم والمشاكل التي ظهرت في تلك العصور والتفسير الذي قدموه لها وطريقتهم في التحليل .

أ ـ دور كايم Durkheim والحقيقة الاجتماعية :

يعتبر اميل دور كايم (١٨٥٨ - ١٩١٦) من أكبر مؤسسي النظرية في علم الاجتماع ، وقد دافع بقوة عن الوجود المستقل لهذا العلم ، وأيضا التصور المتصل بتفسير الظاهرة الاجتماعية Social Phenomena بإرجاعها إلى الحقائق الاجتماعية Social Facts وليس عن طريق خصائص أو صفات الأفراد (١).

ويعرف المشتغلون بعلم الاجتماع دور كايم كواحد من الرواد الذين حددوا وعرفوا بدقة الميدان الجديد لعلم الإجتماع. ولا يمكن اعتبار دور كايم محافظا الا أنه يشترك مع الإتجاه المحافظ في القول بمقدرة الإنسان في المجتمع الحديث في الابقاء على درجة من التماسك والتضامن الضروريين لبقاء المجتمع. ولهذا السبب يمكن اعتباره الرابطة بين الفكر المحافظ للقرن التاسع عشر وعلم الاجتماع المعاصر . وقد ظهرت فكرة التضامن الإنساني في كثير من أعماله مثل « الانتحار » Suicide وكذلك في مؤلفه عن « تقسيم العمل الإجتماعي On the Division of Labor وفي مؤلفه عن « الصور الأولية للحياة

---

1 - Durkheim, ·The Rules of Sociological Method', trans. Sarah A. Soloway and john H.Mueller; ed, Geortge E. G. Catlin (N-Y, Free press, 1950).

الدينية ، The Elementary Forms of Religious Life .

وتعتبر اللامعيارية أو فقدان المعايير Anomie من أهم الموضوعات التى تناولها دور كايم بالبحث والدراسة . واللامعيارية هى حالة اجتماعيــــة من التفكك تظهر عندما تصبح قواعد السلوك ومستويات الأخلاق المتفق عليها بين أفراد الجمــــاعة أو المجتمع غير قادرة على التحكم بفعالية فى سلوكهم. وتعتبر هذه الدراسة القيمة من أهم الاضافات التى أسهم بها دور كايم فى علم الاجتــــماع . وهو يرى أن اللامعيارية تعكس القلق الناتج عن التأثير الهدام للحضرية والتصنيع وانهيار المجتمعات الصغيرة المتماسكة التى كانت فيما مضى البيئة الطبيعية الملائمة لمعيشة الإنسان . وهنا نستطيع أن نضيف فكرة أخرى مستمدة من الفكر المحافظ وهى أن « حقيقة التفكك الاجتماعى تظهر بوضوح من خلال الحضرية والتجــــارة ، والتنقل الطبقى ، والفردية ، فالتفكك وليس التقدم كان هو النتيجة الحتمية للتغيرات الاجتماعية التى تعرض لها المجتمع . ومــــنا نستطيع أن نقول أن علم الإجتماع استعان بآراء بعض المفكرين الأوربيين الكبار أمثال جاكوب باركارد jacob Burchardt المؤرخ الثقافى الذى تنبأ بظهور المجتمع الجماهيرى Mass Society وفقدان الحرية الإنسانية والفردية نتيجة ظهور الأشكال الديكتاتورية التى أصبحت حقيقة واقعة فى القرن العشرين . وقد تأثر علم الإجتماع إلى حد كبير بهذه الأفكار التشاؤمية مما دعاه إلى القول بأن مستقبل الإنسان فى المجتمع الصناعى فى القرن العشرين يتيح اطلاق أى صفة عليه إلا صفة التقدم .

ب - تونيز Toennies : الجماعة والمجتمع (١)

1 - Ferdinand Toennies, 'Community and Society' trans. and ed. by Charles p. loomis (East Lansing : Michigan state University press, 1957)

فكر عدد كبير من علماء الاجتماع فى وضع تعريف لطبيعة التغير الذى نتج عن التصنيع ، وقد توصلوا إلى هذا التعريف عن طريق وصف وتحليل نمطين متعارضين للمجتمع أى قبل وبعد التصنيع . وقد تبنى فرديناند تونيز Ferdinand Toennies (١٨٥٥ - ١٩٣٦) هذا النموذج الثنائى للتحليل وفى ١٨٨٧ قدم دراسته الشهيرة عن المجتمع المحلى والمجتمع Community and Society . وقد عرف تونيز المجتمع المحلى كنوع من المجتمعات يتميز أساسا بالعلاقات الاجتماعية البسيطة المباشرة حيث يشارك الفرد فى القيم الاجتماعية السائدة ويحترم الطرق التقليدية المتوارثة التى تميز طريقة الحياة . ويضع تونيز فى مقابل هذا النوع الطريقة الريفية فى الحياة ، عندما تشكل القرية الصغيرة وحدة المجتمع المنظم . وفى هذه الحالة ينبعث التضامن بين أفراد المجتمع من القيم المتجانسة إلى جانب شعور جماعى قوى ، وتعتبر القرابة أهم دلالات الجماعة الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك أحدث التصنيع تغيرا جذريا أو تحولا نحو ما يسمى « بالمجتمع » الذى يقوم على التجارة والتعاقد ، والتغيرات السريعة والتنقل الإجتماعى والمكانى حيث ضعفت فكرة التضامن إلى حد كبير ولم تعد الثقافة على نفس الدرجة من التجانس ، كما أصبحت الفردية قيمة قوية ، وضعفت أيضا روابط القرابة .

إن هذه المحاولة للتمييز بين المجتمع الزراعى الصغير المتماسك المتجانس وبين المجتمع الصناعى الكبير المتمايز أظهرت أهمية « الجماعات الصغيرة فى المجتمع The Small Graups of Society فى حياة الفرد والمجتمع لأنها بالنسبة لها صورة مصغرة للمجتمع وهى المصدر الحقيقى للأخلاق . وهنا تظهر فكرة أن المجتمع إنما ينبعث من الجماعات الاجتماعية الصغيرة (المجتمع المحلى ، القرابة ، الأسرة) حيث أنه فى العلاقات « الأولية Primary » لأى جماعات تنبعث

الإنسانية فى الإنسان ، وكذلك الشعور الأخلاقى ، والاحساس بالولاء والاحترام كما اوضح كلا من القيمة الأخلاقية وأهمية المجتمع على عاتق الجماعات الصغيرة ، فعن طريقها تتخذ هذه الأشياء أهميتها بالنسبة للجماعات الكبيرة التى تميز المجتمع الصناعى . ومن هنا تأتى أهمية الجماعات الاولية فى علم الاجتماع ويصبح لها قيمة رئيسية. وهنا يستدمج علم الإجتماع فكرة لها دلالتها ولها أيضا قيمة رئيسية ، حيث أن التحليل السوسيولوجى يستطيع ان يتجهز نحو التفضيل الأخلاقى للقديم الصغير ضد الجديد الكبير الا إذا بذل جهودا واعيا للحيلولة دون ذلك . حيث أن فشل علماء الاجتماع فى تجنب الانحياز أصبح الآن جزءا من تاريخ علم الاجتماع .

ح - ماكس فيبر Max Weber : البيروقراطية والعقلانية

تركزت تقاليد الدراسة الرمزية فى بداية ظهور علم الاجتماع كعلم مستقل على خلق نمطين متميزين يبحثان الملامح الأساسية للمجتمع الانسانى قبل التصنيع وبعده وبالتالى تقديم نوع من الدراسة المقارنة يكرز على أساسها التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه المستقبل .

وقد قام ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) بجهد كبير فى هذا المجال وهو يعتبر من أكبر العلماء الألمان الذين أسهموا فى إنشاء علم الاجتماع وقد اشتهر بدراسته عن نشأة الرأسمالية وعلاقتها بالعقيدة البروتستانتية ولذلك فإن أغلب دراساته كانت ذات طابع اقتصادى وإن قامت على أسس نفسية اجتماعية . وقد اهتم بدراسة « الفعل الانسانى » وتحديد جزاءه وآثاره . كما أنه من خلال تصوراته عن البيروقراطية والعقلانية قدم تفسيرا له أهميته عن التحول الذى مر به المجتمع الغربى .

وقد كان ماكس فيبر أول عالم اجتماع اعتبر طبيعة البيروقراطية باعتبارها الصورة الاجتماعية النموذجية للمجتمع الحديث. وقد صور البيروقراطية (١) كشكل التنظيم الاجتماعي واسع، وغير مشخص، ويتسم بمصطلحات القواعد والاجراءات الرسمية إلى جانب كل الأفعال الضرورية والاجراءات المنهجية. وهي تشكل نمو الادارة العقلية التي كانت إحدى مراحل العقلانية في العالم. ويرجع فيبر إلى البيروقراطية زيادة درجة العقلانية في الحياة الغربية، فعالم أكثر عقلانية هو عالم أقل اعتقادا في الغيبيات، وهو عالم أكثر تنظيما وروتينية وأقل عفوية وتلقائية، وهو أيضا عالم انبثق نتيجة الحسابات الدقيقة، والقدرة على التنبؤ وذلك عن طريق القانون والقاعدة، والخطة والاجراء الثابت. والنتيجة (في رأي فيبر) هذا العالم الكئيب الذي يعتبر، السمة الرئيسية للثقافة الغربية.

وقد كان ماكس فيبر مثل دور كايم وتونيز مستغرقا بعمق في عالم عصره، ورسم معهم في خطوط عريضة المنظور الحديث لعلم الاجتماع كما يراه في مصطلحات عامة وغامضة في كثير من الأحيان عبر من خلالها عن العالم المتغير. إذن كانت الطبيعة المشكلة لعالمهم هي التي أدت بهم إلى بذل مجهودات عقلية هامة وخلاقة أقامت الأساس النظري لعلم الاجتماع المعاصر.

---

(١) البيروقراطية هي تنظيم رسمي يتسم بالتباين والتنظيم الشديد وهي تعمل من خلال القواعد الرسمية، والتكوين الاداري، والخبرة الفنية، والتسلسل الرئاسي، وتمركز السلطة في ايدي افراد لهم صلاحيات معينة، والتأكيد المطلق على النظام، ولاشخصية العلاقات. وقد أصبحت البيروقراطية في معظم المجتمعات هي نموذج التنظيم السائد في مجالات النشاط الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي والثقافي.

د — الايديولوجية وعلم الاجتماع :

بتتبع الأفكار والآراء السابقة يتضح أن الأفكار المحافظة كانت أحد المصادر العقلية الرئيسية التى استقى منها علم الاجتماع أفكاره ومنظورة المبكر. وهذا الاتجاه المحافظ ينطبق أكثر على مصدر الأفكار والمشاكل أكثر من انطباقه على التوجيه الايديولوجى للمفكرين الكبار ، فدور كايم مثلا كان متحررا سياسيا وكذلك كان ماكس فيبر . ولكن هناك أيضا مفكرون ليبراليون ساهموا فى تأصيل علم الاجتماع . ومن بين هؤلاء واحد من أشهر زعماء ليبرالية سياسية عدم التدخل Laissez-faire الرأسمالية ، وهو هربرت سبنسر Herbert Spencere (١٨٢٠ — ١٩٠٣) وكانت مؤلفاته الثلاثة فى « قواعد علم الاجتماع Principles of Sociology التى طبعت فى ١٨٧٧ أول مجهود رئيسى لوضع شكل تصنيفى لعلم الاجتماع كمنظور مستقل . وقد تأثر سبنسر إلى حد كبير بالمفهوم الداروينى عن التطور البيولوجى . وكان من أبرز من طبق هذه الأفكار فى تحليل المجتمع الانسانى . وكان هو وليس تشارلز دارون الذى ابتكر عبارة « البقاء للأصلح » ليشرح بها القوة الرئيسية التى تكمن وراء التقدم التطورى . فالصراع فى سبيل البقاء داخل المجتمعات أو بينها يؤدى إلى خلق حالة من التوازن الاجتماعى ، لأنه يحل اللاتجانس محل التجانس . فالمجتمعات فى رأيه تتطور من حالة يعمل فيها جميع الناس نفس الأعمال ، إلى حالة يسودها التخصص . وفى مراحل الصراع الأولى فى سبيل البقاء تظهر الروح الحربية . والحرب المنظمة تدفع الجماعات الصغيرة المنعزلة إلى الاتحاد مع المجتمعات الكبيرة التى يسودها السلام . وفى وقت ما يؤدى التوازن بين المجتمعات إلى اتاحة الفرصة لاستمرار السلام فترات أطول ، ومن ثم تتهيأ الفرصة لقيام المرحلة الصناعية ، وتظل العمليات التطورية مستمرة فى أداء وظائفها ولكن بصورة تختلف عما كانت عليه فى المجتمعات البدائية إذ يحل

العقل والتفكير مكان القوة البدنية(١) .

وقد قدم سبنسر نظرية أخرى لعبت دورا هاما فى نسق أفكاره ، وهى المقابلة بين المجتمع والكائن الحى . إلا أن هذا التصور قوبل بنقد شديد من العلماء الاجتماعيين ، ولم يبق من اسهاماته سوى تصوره عن المجتمع كوجود منظم Organized entity تتماسك أجزاؤه (الجماعات والنظم) بالعلاقة المستمرة بينها . وكان أيضا أول من استخدم المفاهيم المتطورة البناء Structure والوظيفة Function كأدوات لتحليل المجتمعات الانسانية . كما استخدم مفهوم المجتمع كبناء متداخل يعمل كل جزء من أجزائه فى وحدة مع الكل المتكامل .

وقد كان المنظورات الراديكالية Radical(٢) أيضا اسهاماتها فى نمو علم الاجتماع وتعتبر اسهامات كارل ماركس Karl Marx على رأس هذه الاسهامات . وبالرغم من أن ماركس لم يكن يفكر دائما كعالم اجتماع . إلا أن الحقيقة الثابتة أنه كان يهتم بنفس الأشياء التى تهم عالم الاجتماع مثل كيفية انتظام المجتمع وكيفية تغيره . وتعتبر آراؤه عن الطبقة الاجتماعية الاسهام الرئيسى الذى قدمه لعلم اجتماع التدرج الطبقى Sociology of Stratification وكذلك تصوراته عن التغير الثورى التى أوحت الكثيرين بمفهوم المجتمع باعتباره محتويا للانقسامات المتأصلة للطبقة والملكية . وهذه كانت مصدر الصراع الداخلى فى كل المجتمع ، ومن خلال هذا الصراع ظهر التغير الاجتماعى «الثورة» كنتيجة حتمية .

وقد قام تحليل ماركس للمجتمع على التركيز على الظروف المادية الملموسة

1 -Timasheff N. Sociological Theory, N.Y 1955 pp 27-28.

٢ ـ الراديكاليه تعنى الميل الى احداث تغيرات متطرفة فى الافكار والعادات السائدة أو فى النظم أو المؤسسات القائمة.

بدلا من التركيز على القوى الروحية أو المثالية ، ومن أجل ذلك أصبح من اليسير تعريف الظواهر الاجتماعية بطريقة يصبح من الممكن اخضاعها للدراسة العلمية ، كما أن تأكيده على أن العمليات التاريخية لابد أن تفسر عن طريق العلاقات القائمة بين الجماعات ، أكثر أهمية من الناحية السوسيولوجية ، من الأفكار البيولوجية المتعلقة بالتطور البيولوجي أو البقاء للأصلح .

وقد كان ماركس وكل الاشتراكيين الأوربيين في القرن التاسع عشر مقتنعين مثلما كان المحافظون بأن الأزمة الرئيسية ترجع إلى التطور في المجتمع الغربي . ولكن نظرتهم إلى الأزمة كانت تختلف تماما عن النظرة المحافظة ، وهذا الاقتناع بالأزمة الاجتماعية أتاح لعلم الاجتماع اهتمامه الرئيسي بالمجتمع وليس بالفرد ، وبالعلاقات الاجتماعية بين الناس وليس بالسلوك الفردي . وقبل حلول نهاية القرن التاسع عشر كان علم الاجتماع نقطة التقاء لكثير من وجهات النظر المتباينة التي كانت قائمة في ذلك الوقت في أوربا وأمريكا وهي الاتجاه المحافظ والليبرالية والراديكالية (١) .

هـ ـ علم الاجتماع ومشكلة النظام

بالرغم من تشعب الآراء واختلاف وجهات النظر ، إلا أن علماء الاجتماع الأوائل كانوا يشعرون جميعا بالثورة التي تحدث في مجتمعاتهم ، فتحول المجتمع من الأشكال القديمة التقليدية إلى الأشكال الجديدة ، أو الانهيار الواضح في العقائد القيم ، وظهور الاختلافات الاجتماعية المتصارعة بين السكان في المناطق

---

١ ـ الاتجاه المحافظ يدعو للمحافظة على القديم ومقاومة التغير أما الاتجاه الليبرالي فهو ينادي بالحرية الفردية وخاصة الحرية الاقتصادية كما ينادي بالاصلاح الدستوري والاداري .

حديثة التصنيع ، كل هذا طرح تساؤلات ملحة وحاسمة عن كيفية تحرك أو انتقال الناس من النظام القديم إلى النظام الجديد (وليس من النظام إلى التفكك) وعن مصادر التضامن ، وعن نتائج تقسيم العمل المعقد . ويبدو واضحا أن كل هذه الأسئلة ترتكز حول قضية واحدة وهى أن بعض الأشكال العامة والمشتركة الاعتقاد والسلوك تصنع مجموعات مختلفة تميز الأفراد فى المجتمع فالناس فى أى مكان يعيشون فى نظام اجتماعى Social Order ومقدرة الناس على البقاء خلال العلاقات الاجتماعية كل مع الآخر وبالتالى تجنب التفكك (حرب كل انسان ضد كل انسان التى تحدث عنها توماس هوبز فى القرن السابع عشر) هى مشكلة النظام ألاجتماعى ، وهى التى تعرف علم الاجتماع كوجهة نظر محددة .

وإذا كان النظام الاجتماعى هو مشكلة علم الاجتماع ماذا إذن عن التعريف الذى قدمناه فى الفصل السابق وهو أن « العلاقات الاجتماعية وأنماط التنظيم الاجتماعى القائم عليها هى محور الإرتكاز فى علم الاجتماع ؟ إن التساؤلات حول استمرارية النظام التى طرحها رواد علم الاجتماع منذ قرن مضى تعكس أسلوبا ولغة قديمة . ولهذا يحاول علماء الاجتماع المحدثون إيجاد لغة أكثر دقة للتعبير عن الأشكال المختلفة للنظام الاجتماعى ، ولهذا فإن اللغة السوسيولوجية تطورت بمرور الوقت مع بقاء مفهوم التفاعل السوسيولوجى . والتحدث عن كيفية بناء المخلوقات الآدمية للانماط المعقدة للعلاقات الاجتماعية من خلال تفاعلهم ، بما يشكل بالتالى بناء اجتماعيا ، فإن هذا يوضح فكرة النظام الاجتماعى فى اللغة السوسيولوجية المعاصرة فى صورة بسيطة بعيدة عن التعقيد .

والأسئلة التى طرحها رواد علم الاجتماع وتلك التى يطرحها هؤلاء اليوم ،

تدلنا على تغيرات أخرى حدثت ، إلا أن معظم هذه الأسئلة تكون على درجة كبيرة من التجريد والعمومية ومن المحتمل أن يسأل علماء الاجتماع فى الوقت الحالى أسئلة أكثر حداثة من تلك التى سألها السابقون كما ان هذه الأسئلة يمكن أن تسأل بطرق متعددة . ومن أحدث الأسئلة التى يطرحها علم الاجتماع اليوم مثلا محاولة معرفة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية وبين الطموح التعليمى . وهو سؤال موجه لمعرفة علاقات معينة تكون جزءا فى النظام الاجتماعى الأكبر .

وعموما فإن علماء الاجتماع يأخذون كأمر مسلم به بوجود نظام اجتماعى واسع وشامل ، ومجتمع منظم ، ولهذا فهم يوجهون استقصاءاتهم نحو أسئلة عن كيفيه وصول المجتمع إلى هذه الدرجة من التنظيم ، ويركزون اهتمامهم على دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية فى المجتمع والتى تشكل حياة اجتماعية منظمة .

ومشكلة علم الاجتماع إذن ، هى البحث فى النظام الاجتماعى عن طريق دراسة العلاقات الاجتماعية ، والبناء الاجتماعى ، والأنماط التى تصنع حياة اجتماعية منظمة ، وهذه جميعا تشكل الظاهرة التى يدرسها علماء الاجتماع من أجل فهم النظام الاجتماعى .

علم الاجتماع والاصلاح الاجتماعى .

لم يقتصر علم الاجتماع فى بداية ظهوره على ترسيخ المفاهيم النظرية المتصلة به فقط وإنما ظهر اتجاه آخر يهتم بمشاكل المجتمع . ولا يمكن فهم علم الاجتماع المعاصر دون الإشارة إلى الدور الذى لعبه رواد علم الاجتماع فى الاصلاح الاجتماعى .

لقد كانت الفترة من ١٨٨٠ — ١٩٢٠ من أهم الفترات فى حياة سكان المدن من الطبقة المتوسطة (وخاصة فى بريطانيا والولايات المتحدة) من

حيث المجهودات المبذولة لفهم وتغيير أسلوب حياة هؤلاء . أما الطبقات الدنيا فلم يكن لها أدنى نصيب من هذا الاهتمام . وقد أدى هذا التساؤل عن « كيف يعيش النصف الآخر ؟ » إلى استحداث أنشطة قوية لدراسة حالتهم كنوع من المجهودات الاصلاحية المنظمة لتخفيف ظروف الفقر بطريقة أو بأخرى . وقد تبدت هـــذه الاصلاحات أولا في صـــورة « الرعاية الاجتماعية » Social Welfare وطورت بمرور الوقت إلى ما عرف باسم (الخدمـــة الاجتماعية) Social Work . وقد كانت بياتريس ويب Beatrice Webb رائدة في هذا المجال في انجلترا ، وهي امرأة ذكية تنتمي إلى الطبقة الاجتماعية العليا . إلا أنها كانت تشعر بمتاعب وآلام الفقراء ولذلك حاولت أن تقدم لهم يد العون ، وقد قامت مع زوجها سيدني ويب Sidney Webb بمحاولة مبكرة لاقامة الجمعية الفابية Fabian Society (١) والتي تطور من خلالها حزب العمال البريطاني القائم حتى الآن .

وفي هـذا المجال أيضا تجدر بنا الاشارة الى البحث الكبير الذي قام به رجل الصناعة البريطاني الثري شارلس بوث Charles Booth حيث قدم دراسة واقعية للظروف المعيشية للفقراء في لندن ، وقد أطلق على هذا البحث اسم « حياة وعمل الناس في لندن » Life and Labour bour of the People of London وقد نشر في عدة مجلدات إعتباراً من ١٨٩١ الى ١٩٠٢ وترجع أهمية هـذا البحث الى أسباب منها :

١ ـ أنه كان وثيقة رئيسية لتشجيع الاصلاحات الاجتماعية في بريطانيا .

---

(١) ـ مصطلح فابي مشتق [illegible] بالجمعية الفابية وهي جمعية انجليزية انشئت ١٨٨٤ وقد [illegible] الى [illegible] كلية بالوسائل السلمية .

٢ - أنه أرسى بوضوح قواعد السياسة العامة التى يمكن اتخاذها فى تطوير مسار المجتمع بناء على الحقائق المتجمعة بدقة .

٣ - أنه كان رائد الدراسة التجريبية لسكان المناطق الحضرية وخاصة فى مجال الطبقات الدنيا والمناطق المتخلفة .

وعموما فقد كان للعلاقة الوثيقة بين الاصـــلاح الاجتماعى والبحث الاجتماعى أثرها الواضح فى تشجيع البحث العلمى . كما ساعدت العاملين فى المجالات الاجتماعية على تعليم كيفية جمع الحقائق بطرق منهجية وكمية ، وكيفية إستخدام الاحصاء فى تحليل المادة العلمية الغزيرة المتجمعة لديهم . وأهم من ذلك ، أن هذه المجهودات ساعدت علماء الاجتماع فى تنمية مهاراتهم فى ملاحظة وتسجيل الحقائق حول السلوك الانسانى .

وقد كان لهذا الإنشغال المبكر لعلماء الاجتماع بالمشاكل الاجتماعية نتيجة أخرى هامة أيضا وهى خلق باحث اجتماعى مثقف وبارع وفى إمـكانه صنع خطة تجعله قادرا على فهم المشاكل الاجتماعية فى مجتمعه وتحليلها وذلك مثل الفقر والتفكك الاجتماعى والصراعات العنصرية والعقائدية والانحراف والخلافات الاسرية وما يترتب على ذلك من مشاكل شائعة فى المجتمعات الحديثة . وبذلك يصبح الباحث الاجتماعى خبيرا فى عديد من المشاكل ، ويرتكز بحثه فى العادة على غرض تطبيقى . وإذا كان عالم الاجتماع بآرائه وأفكاره وبحـوثه يؤثر فى الرأى العام بالنسبة للمشاكل الاجتماعية إلا أنه من ناحية أخرى يتأثر بهـذه المشاكل نتيجة انغماسه فيها ومعايشته لها .

تطور علم الاجتماع فى مصر

إذا أردنا أن نؤرخ لتاريخ نشأة علم الاجتماع فى مصر فيجب أن يبدأ هذا التاريخ منذ مطالع القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى بدأت فيها الاتصالات بين الشرق والغرب تزداد شدة وعمقا ، فمنذ ذلك الوقت بـــدأ المصريون يتخلصون بالتدريج من الحصار الذى ضربه الأتراك عليهم بعد فترة طويلة من الجمود العقلى والخمول الفكرى وقد تم الاتصال بالثقافة الاوربية عن طريق الأوربيون الذين كانوا يأتون إلى مصر وكذلك الطلبة الذين كانوا يرسلون فى بعثات إلى أوربا بالاضافة إلى المؤلفات التى ترجمت إلى العربية ، والمدارس والمعاهد والمكتبات التى انشئت على النمط الأوربى .

أ ـــ وقد أدى التقاء الثقافتين المصرية والاوربية إلى صراع مرير مما أدى إلى ظهور عديد من المشكلات . وقد بدأت معارك فكرية حامسة فى الوسط المصرى حول الموقف الذى تتخذه الثقافة المصرية وقد حمل لواء تيار التجديد جمال الدين الأفغانى وتلاميذه الذين كان من بينهم محمد عبده وقاسم أمين . وكانت الردود التى يردون بها على الحملات الظالمة للاوربيين على الاسلام تؤدى إلى بحوث اجتماعية مطولة عن النظم الاسلامية ومقارنتها بالنظم الغربية فكانت بهذا جزءا لا يتجزأ من علم الاجتماع النظرى . أما الامام محمد عبده فقد اهتم بالاصلاح الاجتماعى وكذلك قاسم أمين الذى ألف كتابة المشهور عن « تحرير المرأة » والذى أحدث دويا هائلا حين صدوره . ولقد حظيت مسائل الاصلاح فى شتى النواحى الاجتماعية ثم على وجه الخصوص مسألة تحرير المرأة من البحث والدرس من جانب الرواد المصريين فى تلك الفترة قسطا لم تنله فى أى عصر سابق بحيث أصبحت البحوث والمقالات والمؤلفات التى قام بها هؤلاء الرواد مراجع هامة لجميع الباحثين فى الشئون الاجتماعية فى مصر والعالم العربى . وقد

كان المفكرون المصريون يكتفون بدراسة المسائل الاجتماعية التى تواجههم مستعينين فى ذلك بالدراسات الأوروبية التى كانو يجدون فيها ما يؤيد وجهة نظرهم أو يجدون فيها حلولا لمشكلاتهم العاجلة.

أما من حيث دراسة أوتدريس علم الاجتماع كعلم يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة علمية تحليلية للكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فلا نجد من أهتم بهذه النقطة فى هذه المرحلة المبكرة.

ب — وقد كان إنشاء الجامعة المصرية القديمة ١٩٠٨ العامل الأول والرئيسى فى نشأة علم الإجتماع من حيث هو علم يدرس النظم الاجتماعية ليس من هدفه إحداث ثورة إجتماعية كما لا يستهدف اصلاح المجتمع إنما همه الأول — ككل علم وضعى أو وصفى — أن يدرس الظواهر كما هى ويربطبينها ويحللها بقصد استخراج القواعد والقوانين التى تخضع لها. وبذلك تنتهى مهمته وتبدأ مهمة الإصلاح الإجتماعى الذى يتخذ أساسا له ما وصل اليه علم الإجتماع فى دراسته من القواعد والقوانين التى استخلصها لتنير السبيل أمام المصلحين الاجتماعيين (١).

وفى مجال التأليف والترجمة نجد أن الفترة ما بين ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ قد زخرت بمؤلفات وترجمات تتناول وصف العادات والتقاليد المصرية والعربية والأجنبية ووضع الحضارات. ولم يكن ذلك إلا نتيجة لتقابل الثقافات الإجنبية فى مصر مع الثقافة العربية. وكانت المؤلفات والترجمات التى صدرت فى المسائل الاجتماعية بين سنتى ١٩٢٠ — ١٩٣٠ تهتم بنظريات «داروين» فى النشوء

---

١ — حسن شحاته «سعفان، موجز فى تاريخ علم الاجتماع فى مصر»، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٧٠

والارتقاء ونظريات المدارس التطورية ونشأة المجتمعات والحضارات .

ويبدو أن أول مؤلف باللغة العربية عن علم الاجتماع قد صدر فى مصر فى أوائل سنة ١٩٢٠ وهو من تأليف « نقولا الحداد » واسم الكتاب « علم الاجتماع : حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها » ، وفى الجزء الأول تعرض المؤلف لحياة المجتمع وفى الثانى يتعرض التطور الاجتماعى . ويبدو أن المؤلف بحث فى كتابه الأول الحياة الاجتماعية من ناحيتها الاستقرارية (كما كان يفعل أوجست كومت) ثم بحث فى الكتاب الثانى الحياة الاجتماعية من الناحية التطورية وتغير المجتمعات والبواعث والعوامل المودية إلى ذلك . والكتاب متأثر إلى حد كبير بمؤلفات أصحاب النظريات العضوية والتطورية التى كانت سائدة فى أوربا آنذاك . ويمتاز كتاب الحداد بجزئية طائفة ضخمة من ترجمة التعبيرات العلمية ترجمة سليمة ، فى علوم الاجتماع والنفس والحياة والحيوان والأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة ، إذ كان المؤلف يجهد نفسه للوصول إلى تعبيرات ومصطلحات عربية سليمة يحللها ويبين السبب فى اختيارها للدلالة على المعنى العلمى للتعبير الأجنبى .

وأثناء سنوات الحرب ساءت حال الجامعة القديمة من الناحية المالية إذ تجمد كل شىء فى مصر بسبب الحماية التى فرضتها انجلترا على مصر ، إلى أن تم اتفاق على أن تتولى الحكومة شئون الجامعة وأعيد افتتاحها فى ١٩٢٥ وكانت كلية الآداب هى نواة الجامعة المصرية وكانت بها أقسام عديدة منها قسم الاجتماع [١] . وكان انشاء قسم للاجتماع بمثابة اعتراف صريح من الدولة بأهمية

---

(١) الكتاب الفضى لكلية الآداب ١٩٢٥ — ١٩٥٠ القاهرة ١٩٥٠

الدراسات الاجتماعية وعلى رأسها علم الاجتماع . وكانت الصحف والمجلات تثير إلى أهمية الدراسات وخاصة مشاكل المرأة ومشكلات الأسرة والزواج ونظريات الأجناس والأنواع والحضارة والتطور والمشكلات التربوية. ولقد كان إنشاء قسم الاجتماع منها للمدارس العليا لأهمية هذه المادة فبدأت ترسل البعثات إلى أوربا للتخصص فى علم الإجتماع .

وعموما فقد كان علم الإجتماع فى الثلاثينيات مصطبغا بالصبغة الأكاديمية النظرية فكانت البحوث الميدانية فيه قليلة لأنه أصبح مجرد مادة تدرس بين عدة مواد أخرى فى قسم الفلسفة ولذلك نهج علم الإجتماع المنهج الفلسفى واتبع أساتذة الإجتماع ودارسوه منهج دراسة النظريات الإجتماعية وفلسفة الإجتماع أكثر من نزولهم للميدان، ودراسة الظواهر الإجتماعية دراسة ميدانية . وربما كان السبب فى ذلك إلغاء فرع الإجتماع وتحويل الفرع إلى مجرد مادة ، ولو قدر لهذا الفرع أن يبقى وأن يتطور لكان من المؤكد أن تتجه الدراسات الإجتماعية فى مصر اتجاها آخر أو على الأقل لكان تطور هذه الدراسات نحو البحوث الميدانية والتطبيقية قد سار بشكل أسرع .

وقد أنشئت وزارة الشئون الإجتماعية سنة ١٩٣٩ فكانت اعترافا من الدولة بأن المسائل الاجتماعية أصبحت مسائل تستحق أن تجمع فى وزارة واحدة تشرف عليها وتعالجها وفق الوسائل العلمية الحديثة وكانت اعترافا من الدولة بأن هذه المسائل فى حاجة إلى خبراء أعدوا إعدادا خاصا للعمل فى ميدان الرعاية الاجتماعية .

حـ ــ وقد جاهد أساتذه الاجتماع فى القاهرة والاسكندرية حتى أعادوا إنشا فرع للاجتماع سنة ١٩٤٧ يكون مع فرع الفلسفة قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

وكانت كلية الآداب بجامعة الاسكندرية أيضا نواة للجامعة بها وانشات ١٩٤٠ وأنشىء فيها سنة ١٩٤٢ معهد العلوم الاجتماعية . وفى سنة ١٩٥٠ أنشئت جامعة عين شمس ونشأ فى كلية الآداب فرع للاجتماع مع فرع الفلسفة.

وتعتبر الخمسينيات فترة نضوج بالنسبة لعلم الاجتماع فى مصر حيث سيطرت البحوث الميدانية على نشاط المشتغلين بعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية وتمشيا مع هذا الاتجاه فى تشجيع الدراسات الاجتماعية والاعتراف بأهميتها تقرر تدريس مادة الاجتماع فى المدارس الثانوية ، كما ظهر اهتمام واضح بالإحصاء الذى أصبح اللغة الرسمية لشكل بحث علمى . كما أنشىء المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ليقوم بإجراء البحوث الميدانية فى مجال الإجرام والمشكلات الاجتماعية الأخرى . ولقد نشطت معاهد الخدمة الاجتماعية للقيام بالبحوث الاجتماعية فى شتى الفروع الاجتماعية فى الميادين العائلية والإقتصادية وغيرها .

أما عن الجامعات فقد خصصت فى كثير من كلياتها ميزانيات لأقسام الاجتماع لكى ينفق منها على إجراء البحوث الميدانية ، كما أصبح إجراء بحث ميدانى شرطا أساسيا فى رسائل الماجستير والدكتوراه وكذلك أصبحت البحوث الميدانية شرطا من شروط نجاح الطالب فى مرحلة الليسانس (١) .

وبالرغم من أن المرحلة الحالية التى يجتازها علم الاجتماع فى مصر هى مرحلة البحث الاجتماعى ومرحلة تطبيق البحوث الاجتماعية ، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية أو قيمة الدراسات النظرية الاجتماعية . فأى بحث ميدانى لابد أن تسبقه دراسة نظرية لتوضيح المفاهيم وانتقاء الفروض التى تختبر أثناء البحث الميدانى .

---

(١) نفس المرجع السابق، ص١٠٣ ـ ١١٠

والملاحظ أن عمل الاجتماع فى الوقت الحالى لم تعد تسيطر عليه الأسماء الكبيرة كما كان يحدث فى الماضى لأن التخصص والتخصص الدقيق إستدعى تغيير نظام العمل الفردى وإستبداله بطريقة « الجماعة » فى العمل ، حيث يقدم كل فرد خبرته فى مجال تخصصه الدقيق . ولعل آخر ما ظهر فى ميدان البحوث الاجتماعية الآن هو شروع جامعة الاسكندرية فى القيام ببحث اجتماعى ميدانى شامل لإعادة بناء الإنسان المصرى ، يشترك فيه نخبة من الأساتذة والباحثين المتخصصين فى مجالات الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والإحصاء إلى آخره بحيث يقدم كل فريق خبرته فى مجال تخصصه بصورة يمكن تغطية البحث من جميع الجوانب وبالتالى يكون هذا البحث رائدا فى مجال البحوث الإجتماعية الشاملة التى أصبحت الأسلوب الملائم فى العصر الحديث .

الفصل الثالث

علم الاجتماع العلمى

يرى كثيرون فى ميدان علم الاجتماع أنه لا يمكن أخذ نظريات علم الاجتماع التى ظهرت حتى الآن على أنها كاملة النضج وذلك نظرا لتاريخه القصير الذى لم يتجاوز المائة عام بكثير ومع ذلك فرور هذه الفترة على نموه وتطوره منحه عناصر النظرية العلمية من حيث المنظور والمشاكل التى يتبناها ولما كان المنظور Perspective هو طريقة النظر إلى العالم، فإن المنظور السوسيولوجى يضع « المجتمع » فى طليعة اهتماماته على اتساعه وعلى صغره، بمعناه كنحالق للنظام الاجتماعى، أو بمعناه كعالم اجتماعى بناه الناس من خلال تفاعلهم الاجتماعى. ويتغلغل هذا المنظور فى الصلات المعقدة بين حقائق الحياة الاجتماعية وارتباط السلوك بالاعتقاد، ما يؤكد أن الانسان يعيش وجودا جمعيا، وأن كل إنسان يكتشف فرديته ووجوده الخاص من خلال ولادته ومعيشته فى مجتمع معين.

وقد كان ينظر إلى علم الاجتماع - حتى فى بداية ظهوره فى القرن التاسع عشر على أنه « علم » يقوم على المناهج العلمية التقليدية المتبعة فى العلوم الأخرى، ولكن لم يكن هناك ولفترة طويلة أى جهود لاظهاره بالصورة العلمية الدقيقة حيث كان معظم رواده يركزون جهودهم واهتماماتهم فيما أصبح يطلق عليه اسم « النظرية الكبرى » Grand Theory.

ويرجع الفضل إلى جهود العلماء الأمريكيين فى تطوير علم الاجتماع العلمى ورغم هذا فقد كانت هناك محاولات الرواد فى هذا المجال، حيث قام

أميل دور كايم باول دراسة تجريبية فى علم الاجتماع وكانت عن الانتحار Suicide وذلك فى عام ١٨٩٧ ، إلا أن دراسة هذه كانت تقوم على استخدام المادة العلمية بطريقة خيالية وابتكارية ، وذلك لاختبار الفروض المتعلقة بالعوامل الاجتماعية التى تسبب إرتفاع أو إنخفاض معدلات الانتحار فى أنماط مختلفة من السكان من حيث العقيدة والقومية . وفى نفس الفترة ، كما رأينا فى الفصل السابق ، قام بوث بدراساته عن الفقر فى لندن التى أتاحت فرصة ملائمة لتطوير علم الاجتماع العلمى . وفى فترة لاحقة قام بعض علماء الاجتماع الأمريكيين ببحث تجريبى سنة ١٩١٩ عن الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا(١) وقد واكب هذا البحث فترة خلاقة وخصبة فى جامعة شيكاغو ، ظهر خلالها جيل جديد من علماء الاجتماع تولى على عاتقه مسئولية الملاحظة المباشرة للوسط الحضرى . متخذين مدينة شيكاغو كمعمل لهم ، وقد استخدموا فى أبحاثهم طرقا متعددة لجمع المعلومات العلمية بما فى ذلك البيانات الرسمية وغير الرسمية والوثائق الشخصية والمقابلة الشخصية والملاحظة المشاركة . وإذا كان ينظر إلى هذه الأبحاث فى الوقت الحالى باعتبارها متخلفة فهى مع ذلك قدمت الأساس من أجل مزيد من العلمية فى علم الاجتماع (٢) .

وفى خلال الثلاثينيات ظهرت تغيرات هامة أدت إلى ظهور عصر جديد لعلم الاجتماع العلمى ، حيث حرص معظم علماء الاجتماع على التزام الموضوعية

---

1 - William I. Thomas and Florian Znaniecki, The polish peasant in Europe and America (Boston : Gotham Press, 1918 - 20).

2 - John Madge, The Origins of Scientific Sociology (N.Y : Free press, 1962).

فى البحث الاجتماعى ، وقد وسعوا تجربتهم فى البحث المبنى على الملاحظة والاختبار ، كما طوروا أساليب الاختبارات والمقابلة الشخصية والمسح الشامل وأيضا الأساليب الاحصائية المناسبة لهذه الأبحاث . بالإضافة إلى أنهم نتيجة الممارسة الواقعية أصبحوا أكثر خبرة بطبيعة المنهج العلمى . وبنمو علم الإجتماع المعرفى Sociology of knowledge انتقل علم الاجتماع من كونه تجريبياً ، بمعنى جمع الحقائق، إلى كونه علميا بمعنى اختبار الفروض وتطوير القضايا وبالتالى إلى معرفة مؤكدة .

وقد أعتبر ذلك علامة على النمو فى معارف علماء الاجتماع وأيضا علامة على انجازاتهم فى تطوير علم الاجتماع العلمى ، ولكن لم تحدث تغيرات تذكر فى علم الاجتماع منذ الثلاثينيات ، وفيما عدا بعض الأبحاث الكبيرة والمعقدة والتى تحتاج الى الإستعانة بالحاسب الأليكترونى فإن البحث ظل كما هو من حيث التأكيد على ضرورة نزول الباحث بنفسه إلى الميدان حيث يسمع ويلاحظ ويسجل ملاحظاته الخاصة ويختبر فى وضوح وعمق بعض المظاهر البسيطة للفعل الانسانى .

التحليل السوسيولوجى :

إن الجهود التى بذلت لتطوير علم الاجتماع العلمى هى أولا جهود لجعل العمل السوسيولوجى متمشيا مع قواعد المنهج العلمى . فإلى جانب جمع الحقائق ، هناك صياغة الفروض لاقامة العلاقات بين المتغيرات المستقلة Independent Variables والمتغيرات المعتمدة Dependent Variables . حيث تصبح الأخيرة الظاهرة التى تفسر عن طريق الاختلاف فى الظاهرة الاولى فمثلا إذا كان مقدار الدخل يزيد بارتفاع درجة التعليم فإن التغير فى درجة

التعليم (متغير مستقل) يؤدى إلى تغير فى مقدار الدخل (متغير معتمد) .

ويعتبر ذلك نموذجا بسيطا فى التحليل العلمى أمام الأبحاث السوسيولوجية فإنه لا يكفى الاعتماد على متغير مستقل واحد لتفسير الظاهرة الاجتماعية ، لأن النظام الاجتماعى من التعقيد والتركيب بحيث يحتاج إلى عـــدة متغيرات عند محاولة دراسته وتحليله ، والنتيجة هى أن البحث السوسيولوجى يعتمد على التحليل ذى الجوانب المتعددة ، وقد أصبحت طرق الاحصائية الحديثة وسائل مناسبة لكثير من الباحثين فى ميادين علم الاجتماع . كما أن المسح البسيط يعتبر من الوسائل المفضلة لجمع المادة العلمية بحيث يسمح بجمع كمية كبيرة من البيانات من العينة المختارة من الأشخاص فى مجال الدراسة وبأعداد كبيرة حتى يمكن الوصول الى تعميمات إحصائية صادقة . والواضح هنا أن علم الاجتماع العلمى يؤكد بصفة أساسية على التحديد الكمى للمادة العلمية المدعمة بالقياس الاحصائى . إلا أن هـــذا لا يعنى إختفاء الأبحاث التى تعتمد على الدراسة الكيفية التى تحاول الغوص فى أعماق الموضوعات عن طريق الملاحظة المتعمقة ومن الأمثلة الحديثة على ذلك الدراسات التى كتبها س . رايت ميلز C. Wright Mills عن ملاحظاته وآرائه وكشفه لكثير من عيوب ومشاكل المجتمع الأمريكى المتعلقة بالتفرقة العنصرية والمناطق المتخلفة الخ ...

أ ـ البحث والنظرية :

يعتبر البحث والنظرية منذ وقت طويل وحتى الآن إلى حـــد ما عمليتين منفصلتين ومتمايزتين ، ولكن قبل أن نستطرد فى هذا الموضوع نود أن نشير إلى معنى النظرية ، فالنظرية بصفة عامة هى تقديم تفسير ملائم لظاهرة معينة من خلال نسق استنباطى Deductive System ولتفسير ذلك وفهمه نستطيع

أن ننظر فى أى علم تجريبى . إن أساس أى علم تجريبى هو الملاحظـــة Observation ونتائج هذه الملاحظة توصلنا إلى صياغة فرض معين وهو أنه فى زمن ومكان معينين ، تحت ظروف معينة تحدث ظاهـــرة معينة . وعند إختبار الفروض نصل إلى تعميمات عن طريقها نستطيع صياغة قوانين (١) (وهذا يمكن أن ينطبق أيضا على العلوم الاجتماعية) .

وسوف نقدم هنا نموذجا للنظرية الاجتماعية (٢) يتصل بتفسير ظاهرة اجتماعية معينة مثل الانحراف أو الاغتراب أو الانتحار وهى لنظريـــة دور كايم عن قانون معدل الانتحار فى أسبانيا :

١ ـ تختلف معدلات الانتحار فى أى مجتمـع وفقـا لدرجة انتشار الفردية (٣) .

٢ ـ تختلف درجة الفردية تبعا لانتشار العقيدة البروتستنتية .

٣ ـ إذن تختلف معدلات الانتحار تبعا لانتشار العقيدة البروتستنتية .

٤ ـ معدل انتشار العقيدة البروتستنتية فى أسبانيا منخفض .

٥ ـ إذن معدل الإنتحار فى أسبانيا منخفض كذلك .

مما سبق يتبين لنا أن مضمون أى نظرية لا بد أن ينطوى بصفة مبدئية على مجموعة من المفاهيم أو إطـار تصورى Conceptual scheme مثل الفردية ـ الانتحار ـ العقيدة البروتستنتية . وكذلك مجموعة من المتغيرات مثل معدلات الانتحار ـ انتشار العقيدة البروتستنتية .

---

(١) القانون يعنى أنه عند حدوث ظروف معينة فانه تتبعها نتائج محددة بالضرورة .

2 - Timasheff, Sociological Theory, London. 1955, p. 9.

(٣) الفردية هى النزعة الذاتية Egoism

ثانيا ، لا بد أن تتضمن كل نظرية مجموعة من القضايا Propositions بحيث تقرر كل قضية علاقة معينة بين متغيرين على الأقل.

ثالثا ، بعض قضايا النسق الإستنباطى تكون قضايا احتمالية أو ممكنة وهى القضايا التى تكون الخبرة وحدها هى محك صدقها أو كذبها . وعلى الرغم من أن قضايا النسق الاستنباطى تكون متماثلة فى درجة عموميتها ، إلا أنه من الشائع أن تتدرج تلك القضايا فى العمومية . نصل من ذلك إلى أن النظرية هى مجموعة من القضايا يجب صياغتها فى مصطلحات عن تصورات محددة ، كما أن القضايا يجب ألا يكون بينها تناقض ويجب أن تكون مناسبة للوصول منها إلى تعميمات وأخيرا يجب أن تكون النظرية مثمرة وخلاقة وتفسح الطريق إلى ملاحظات أبعد توسع مجال المعرفة . وأى نظرية أمكن الوصول إليها يجب أن تخضع للتحقيق و يمكن اعتبارها صحيحة إذا لم يظهر ما يكذبها أو يتناقض معها. وإن ظهر تناقض فإنه يجب عدم الأخذ بها أو محاولة تعديلها (1)

وبالنظر فى العلوم التى وصلت إلى درجة عالية من النضج مثل الطبيعة والكيمياء نجد اتفاقا فى النظريات بين العاملين فى هذه الميادين ، أن هذا الإتفاق لم يتم التوصل إليه إلا بعد جهد كبير وزمن طويل وبعد المرور بمرحلة من النظريات المتصارعة وهى الحالة التى تميز علم الإجتماع ، فلا توجد حتى الآن مجموعة من القضايا متفق عليها تماما بين جميع علماء الاجتماع يمكن صياغتها بحيث تسمح بتقديم الحقائق النهائية والتعميمات بل على العكس فقد تميز نمو علم الاجتماع بظهور عدد كبير من النظريات المتناقضة أو المتصارعة. إلا أن موقف علم الاجتماع الحالى يختلف كثيرا عما كان عليه فى القرن التاسع عشر

1 - Timasheff, op. cit, p. 10

حيث أن غالبية علماء الاجتماع أصبحوا متفقين على عدد من القضايا المتضمنة فى النظرية السوسيولوجية العامة . وعلى أية حال فإن درجة الاتفاق بين هؤلاء العلماء أصبحت أعلى من درجة الإختلاف

وعموما فقد وجه النقد إلى « النظرية الكبرى » التى كانت النموذج السائد للنظريات فى بداية ظهور علم الاجتماع على اعتبار أنها ليست نظرية بالمعنى الحديث حيث أنهـا لا تقوم على مجموعة من الفروض المنطقية عن العلاقات المحددة بين الظواهر كما أنها لم تختبر تجريبيا ، ولذلك فالنظرية العلمية التى لم يثبت صدقها بالدليل القاطع لا تعتبر نظرية ولكنها مجرد فرض ومن هذا المنظور النقدى إذن ظهر المفهوم الجديد للبحث والنظرية باعتبارهما وجهان لنفس العملية فى البحث الإجتماعى . فالبحث يستخلص من النظرية المفاهيم والفروض التى تحدد المشكلة كما أن النظرية تصقل وتدعم عن طريق البحث .

إلا أن فكرة ارتباط النظرية بالبحث فى علم الإجتماع يعترضها عدد من المشاكل ، إلا أن المشكلة الرئيسية هى مستوى التجريد Level of Abstraction . فقد كانت النظرية فى الماضى تشمل النظام الاجتماعى بأسره ، وكانت مفهوماتها عالية التجريد وعامة بحيث أن علماء الاجتماع الذين يقومون بملاحظات تجريبية من مظاهر محدودة فى العالم الاجتماعى لا يستطيعون بسهولة الاستعانة بهذه النظريات الكبرى . ولهذا لجـأ هؤلاء العلماء إلى ما يسمى بنظريات المدى المتوسط Theories of the Middle-range وقد أكد روبرت ميرتون Robert Merton أن علم الاجتماع تخلى عن النظرية بمعناها الواسع وأصبح يبحث فى نظريات خاصة ملائمة للظواهر المحدودة(1)، وقد أقام بسرعة رابطة ثابتة

1 - Merton, R. 'Discussion' American Sociological Review 13 April 1948, pp 164 - 168.

لكى يتخطى الهوة بين النظرية والبحث . وقد انتقد ميرتون العقم العلمى للأطر التصورية الرئيسية، كما أدان تراث الفكر الاجتماعى لاهتمامه بالاتجاهات العامة أكثر من اهتمامه بالمواقف الواضحة الثابتة للعلاقات بين المتغيرات ، وهذا ما جعل علم الاجتماع فى رأيه لا ينمو بالسرعة التى سار فيها العلم الطبيعى وربما لا يستطيع ذلك مستقبلا .

إن مفهوم النظرية الذى استخدمه ميرتون ومعظم علماء الاجتماع الآخرين مستمد من النظرية الطبيعية التى وضعها فلاسفة العلم . والنظرية العلمية كما سبق أن أشرنا كنتاج تراكمى ينمو ويتقدم ويفوق النظرية القديمة. إلا أن بعض علماء الاجتماع ينظرون إلى مفهوم النظرية السوسيولوجية على أنها مختلفة إلى حد ما ، حيث ينظرون إليها على أنها مجموعة من الاتجاهات على أسئلتنا عن « الحقيقة الاجتماعية » مثل : ما هى الوحدات الأساسية التى يمكن على أساسها تحليل المجتمع والثقافة ؟ وما هى العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ؟ وكيف يكون الإنسان قادرا على الارتباط بشكل معين فى المجتمع ؟ أو لماذا وإلى أى درجة يكون التغير متأصلا فى المجتمعات الانسانية ؟ وما هى مصادر التغير ؟ أسئلة كهذه لا يمكن أن تؤدى إلى نتائج مؤكدة كما يحدث فى البحث الامريكى وتبقى دائما مصدرا للمشاكل .

— ب ـ المفهومات Concepts

تشكل « المفهومات » مصدرا رئيسيا للربط بين النظرية والبحث فالمفهوم الجديد هو غالبا تفسير جديد للفعل الإنسانى ، وهو فى العادة إسهام خلاق لكبار المفكرين أمثال فرويد وماركس ، اللذين قدما مجموعة جديدة من المفهومات المترابطة وإطارا تصوريا جديداً استطعنا من خلاله أن نرى ونفكر بطرق جديدة فى العالم الإجتماعى

والمفهوم هو مصطلح عام يمكن اطلاقه على مجموعة من الأشياء أو الأشخاص أو العمليات أو الأحداث . وكل لغة مليئة بالمفهومات التى لا نستطيع التفاهم بدونها ، ولا تختلف مفهومات العلم عن مفهومات اللغة العادية الا من حيث الدقة والوضوح ، ومعظم مفهومات علم الاجتماع مستمدة من اللغة الدارجة بعكس الحال فى العلوم الطبيعية أو الرياضية ، ولذلك عادة ما تكون هذه المفهومات عرضة لشىء من اللبس أو الغموض. ويعمل المشتغلون بعلم الاجتماع من أجل الوصول إلى مفهومات أكثر دقة ولكن ليس هذا بالأمر اليسير لأن مفهوما مثل المركز أو الدور أو المجتمع المحلى أو الجماعة لا يعكس المعنى المتنوع وغير الدقيق فى اللغة الدارجة فقط ولكنه أصبح عرضة لتعريفات مختلفة ومتنوعة بين علماء الاجتماع أنفسهم (١) .

وعلى الرغم من هذا فهناك بعض المفهومات الأساسية أصبح عليها شبه اتفاق بين المشتغلين بعلم الاجتماع مثل : الجماعة ، المجتمع المحلى ، العلاقة الاجتماعية ، النظام ، التنظيم ، الثقافة ، التفاعل الخ ... وهذا هو نوع المفهومات التى يحاول علماء الاجتماع الوصول من خلالها إلى وضع تعميمات تجريبية كأساس لإقامة علم إجتماع علمى .

جـ ـ المشكلة السوسيولوجية

سبق أن أشرنا إلى أن الطبيعة المشكلة للمجتمع كانت السبب فى أزمة الفكر فى القرن التاسع عشر والتى كان من نتائجها ظهور علم الاجتماع ، فقد تطلب فهم المجتمع ابتكار أنماط جديدة للتفسير والفهم . وكل مشكلة بالمعنى العلمى تحتاج إلى تفسير ، كما ان العلم ينمو ويتطور باكتشاف المشاكل والتوصل إلى

---

1 - Mckee, j., op. cit pp. 41 - 42.

حول مناسبة . ولهذا السبب ينظر إلى العلم كنهج أساسى وكنموذج للاستقصاء التجريبى . ويتحدد كل علم فى مجموعة مترابطة من المشاكل . وكذلك الشأن فى علم الاجتماع فهو يدور حول مجموعة من المشاكل تتصل بالنظام الاجتماعى.

الا أن طرح السؤال الصحيح والملائم يصبح مسألة صعبة ودقيقة ، وقد تستغرق وقتا طويلا وباختصار فإن كل مشكلة فى العلم تشتمل على سؤال أو مجموعة من الأسئلة تحتاج إلى الاجابة . والعلم دائما عملية عقلانية إلى جانب كونه عملية تجريبية . ولهـــذا فهو يبنى من الحقائق ويقوم عليها . ومعظم التعميمات النظارية المجردة التى يقدمها علماء الاجتمـــاع مستمدة من بعض الحقائق الملاحظة . وجمع الحقائق أو البيانات فى علم الاجتماع كما فى أى علم آخـــر يعتبر عملية أساسية ، وملاحظة الحقائق الاجتماعية تعتبر مطلبا رئيسيا بالنسبة للمنهج السوسيولوجى . وتتم هـذه العملية بطرق متعددة متعارف عليها فى الميدان الاجتماعى مثل :المقابلة الشخصية والاستخبارات والملاحظة المباشرة وغير المباشرة وكذلك التجارب العملية . ويهتم علماء الاجتماع دائما بعملية جمع المادة العلمية ويفرقون بين الحقيقة وبين الرأى وأحكام القيمة . وعندما يفعلون هذا تصبح الموضوعية أمراً له قيمته وأهميته القصوى [1] .

د ـ الموضوعية Objectivity

يختلف علم الاجتماع عن التفكير الاجتماعى القديم فى محاولته إقامة دراسة موضوعية Objective للحيـــاة الاجتماعية ويرى معظم علماء الاجتماع المعاصرين أن وظيفتهم ليست هى دراسة ما يجب أن تكون عليه الحياة الاجتماعية ولكن دراسة ما هى عليه فى واقع الأمر . ولهذا فهم يفصلون تماما

1 - Ibid, pp. 42 - 44

وجهات النظر الأخلاقية والفلسفية والايديولوجية والدينية للحياة عن وجهة النظر السوسيولوجية. وهدفهم الأساسي هو الوصول إلى تفسير علمي موضوعي للحياة الاجتماعية . ولكن تقابلهم دائما مشكلة كيفية تطبيق المنهج العلمي في دراسة الانسان .

ورغم هذه المشاكل فهناك وجهات نظر عامة متفق عليها بين غالبية علماء الاجتماع . وهي تبدأ من الفكرة القائلة بأن علم الاجتماع يهتم بالملاحظات المتعلقة بالسلوك وبحقائق الحياة الاجتماعية . بل أكثر من ذلك فإن مهمة علم الاجتماع هي البحث في الحقائق المتعلقة بكيفية معيشة الانسان تحت ظروف إجتماعيه وثقافية معينة . وللوصول إلى الموضوعية يجب أن نبتعد عن التحيز نسبيا ، كما يجب الا نفسد الحقائق الاجتماعية عن طريق مشاعرنا الخاصة نحوها، الا أن الموضوعية الكاملة تعتبر أمرا صعب المنال لأن التحيز والأفكار المسبقة يميزان التفكير في الأمور المتعلقة بالحياة الاجتماعية . وباختصار ، نحن لا نرى الموقف الاجتماعي كما يراه الآخرون لأن عواطفنا وميولنا واتجاهاتنا وآرائنا الخاصة تقف حائلا بيننا وبين الموضوعية المطلقة .

إذن التفكير الموضوعي ليس أمراً سهلا لأنه يتطلب تدريبا وتجربة وتحكما عاليا ، لأننا تعلمنا وتعودنا أن نستجيب بذاتية وعفوية لسلوك الآخرين وأن نحكم وأن نقيم وأن نحب وأن نكره . وقد يكون شخص ما أكثر موضوعية من الآخر أو أقل منه . فالموضوعية مسألة درجة وهي في النهاية مسألة نسبية . وقد حاول علماء الاجتماع الالتزام بالموضوعية ، وتوصلوا بالفعل إلى درجة لا بأس بها من النجاح ، وليس هناك شك في أن الأسلوب الذي يتبعه البحث السوسيولوجي المعاصر ساعد علماء الاجتمـــاع على التوصل إلى ملاحظات موضـــوعية نسبيا عن السلوك الاجتماعي . ومحاولة علماء الاجتماع التزام

الموضوعية فى دراستهم للحياة الإجتماعية يرجع إلى اعتقادهم بوجود حقيقة يجب اكتشافها والتوصل اليها ، حقيقة ليست موجودة فى أى من المعتقدات القائمة التى يشترك فيها الناس ، لهذا تكون الموضوعية فى هذه الحالة قيمة Value وتتجسد فى البحث عن المعرفة (١) .

خطوات المنهج العلمى :

هناك عدد من الخطوات الأساسية يجب الالتزام بها فى كل عمل علمى ، مهما كانت طبيعة المادة التى تعالجها ومهما كانت طرق البحث التى تستخدمها .

١ - *الفرض المناسب* : الفرض فكرة تصورية أو حدس أو ظن ، يمكن أن يكون قاعدة لدراسة منظمة . ومن أجل وضع فرض فى علم الاجتماع لابد من الاطلاع على كل ما كتب فى مجال هذا الفرض ، وخصوصا النظريات التى ترد فى كثير من كتابات العلماء .

ومن شروط الفرض المناسب صياغته فى صورة واضحة ومحدودة ، لأن الفرض يحدد مقدما المصادر التى سنعتمد عليها والميادين التى سفرتادها وبالتالى يجنبنا الجمع العشوائى الحقائق . وهناك خطأ يجب أن نتجنبه وهو أن نعتبر الفرض قضية علينا أن ندافع عنها وبالتالى نختار الحقائق المؤيدة له ونسقط الحقائق التى تتعارض معه .

٢ - *ملاحظة الحقائق وتسجيلها* : تقوم هذه المرحلة على إجراء الملاحظات المضبوطة عن طريق استخدام الحواس الإنسانية بمساعدة الأدوات المناسبة .

---

1 - Mckee, Ibid, pp. 44 - 46.

ومن المسلم به أنه كلما زادت دقة الحقائق المتجمعة ، أمكن الاعتماد عليها وكانت النتائج المترتبة عليها محل ثقة علمية .

٣ ـ تصنيف الحقائق وتنظيمها : تبدو أهمية هذه المرحلة فى أن التشابه والاختلاف لايظهران الا بعد التصنيف والتنظيم . وكلما كان من الممكن أن نبرهن على الإطراد أو الاتفاق فى مجال الحقائق ، أصبحت دراستنا ذات إطار علمى .

٤ ـ التعميم : وبانتهاء المراحل الثلاث السابقة يصبح من الممكن أن نصوغ الأوصاف التى تنطبق على إتجاه الحقائق فى شكل جملة قصيرة يمكن أن نجد لها تطبيقات فى عدة نواح أو نجد لها مشابهات فى ظواهر لها نفس الظروف ، ومثل هذه الجملة يقال لها « قانون علمى » Scientific Law والشكل المثالى لمثل هذه التعميمات هو الصورة الرياضية ومع ذلك فينبغى لنا الا نزعم أن هذه الصورة يمكن أن تكون مضبوطة تماما أو أن لها خصائص الاطلاق غير المقيد بالزمان والمكان ، حتى أنه فى الميادين التى سار فيها البحث العلمى شوطا بعيدا لا نستطيع أن نطمئن الى دقة ما يتوصل فيها من تعميمات ، ذلك لأنها تخضع دائما للتحسين والتصحيح على أساس مزيد من الملاحظات الدقيقة وجمع أوسع للحقائق . ومثل هذه التعميمات تتم نتيجة للاختبار التجريبى . ولكن هذا القول لاينبغى أن نفقد معه الثقة فى قيمة التعميمات كأساس للتنبؤ العلمى . ومع ذلك فلابد أن نحذر تطبيق التعميمات على نطاق واسع ، أى نطبقها على مواقف أو حالات مختلفة عن الحالات الأصلية (١) .

---

(١) محمد عاطف غيث «علم الاجتماع» ١٩٧٢ .

إختيار موضوع البحث :

يعتبر إختيار موضوع البحث من المسائل الهامة التى تعترض الباحثين فى علم الاجتماع ، ولكى يتم هذا الاختيار بصورة مرضية فهنالك مجموعة من العوامل والشروط لابد من توافرها وهى :

١ - التخصص ، إذ يجب أن يكون الباحث متخصصا فى مجال البحث الذى يريد القيام به .

٢ - قبل الشروع فى البحث لابد أن يتلقى الباحثون معلومات منظمة ودقيقة عن ميدان الدراسة ،وذلك عن طريق برنامج تدريب محدد ينظم خصيصا لهذا الغرض .

٣ - يجب أن يقوم الباحث باستكمال ما ينقصه من قراءات لحسن فهم موضوع الدراسة ، وخاصة الأبحاث التى أجريت عليه قبل ذلك أو فى الحالات المماثلة أو الأبحاث المتصلة به .

٤ - يجب أن ينطوى البحث على تحليل دقيق لجزء محدد من ميدان المعرفة السوسيولوجية .

٥ - يجب أن يتعرف الباحث على الإجراءات المتبعة قبل الشروع فى البحث أو أثنائه أو بعده وما يترتب على ذلك من مطالب .

٦ - يجب تكرار البحث أكثر من مرة حتى يتأكد الباحث من أنه قد وصل إلى معلومات عالية الدقة تتوفر فيها خصائص الثبات والصدق .

وعموما فهناك مستويات رئيسية لابد من اتباعها فى اختيار المشكلة التى

تصلح للدراسة منها : الأصالة والجدة ، وكذلك التركيز على أهمية الموضوع محل البحث ، لأنه من غير اللائق أن يهتم الباحث بمسائل عرضية أو وقتية أو سطحية . كل هذا يجب أن يتم على أساس من التثبت من المنهج والإمكانيات المتوفرة فى جمع المادة والتى يجب أن تكون فى متناول اليد مع وضع عامل الزمن فى الاعتبار .

أما منطوق الموضوع محل البحث فلا بد أن يكون فى صورة سؤال أو جملة خبرية مباشرة وتشمل مراحل تعريف موضوع البحث عدة خطوات مثل : تحليله إلى عناصره الأساسية المكونة له ، والمعرفة الواضحة بحدود البحث ومداه وصلته بغيره من الأبحاث المشابهة ومكانه من أبحاث علم الاجتماع بوجه عام ، وكذلك الاطلاع على كل ما يتصل بالموضوع من قراءات يمكن أن تكون صالحة فى تكوين الأساس النظرى الذى يجب أن يوضحه الباحث ويقتنع به وبأهميته قبل أن يشرع فى الدراسة ، وأيضا معرفة مصادر المعلومات وطرق البحث المناسبة وبيان وجه الحاجة إلى هذا البحث ، وأخيراً تحديد دقيق للمصطلحات العلمية التى سترد فى التحليل للمعلومات المتجمعة والتزام هذه التعريفات بشكل دقة فى كل نواحى التحليل ، كما أن الفروض الموجهة للدراسة يجب أن تكون واضحة ودقيقة جدا بحيث لا تختلط فى الأذهان بفروض متشابهة (١) .

المجتمع والبحث الاجتماعى .

عادة ما يلجأ الإنسان إلى العادات والتقاليد لتصريف أمور حياته المختلفة ، الا أن الاعتماد المطلق على مثل هذه الأشياء يعوق تطورة وتقدمه ويجعله عاجزا

---

(١) محمد عاطف غيث ، المرجع السابق

عن مواجهة مطالب الحياة المتغيرة، وهناك مصادر أخرى عديدة لها تأثيرها على الإنسان فالحكام مثلا فى كثير من الأحيان يكونون المرجع فى تفسير الظواهر وفى التماس الحلول لمشاكل المجتمع ، وثمة مصدر آخـــر للحكم على الأمور وهو الخبرة الشخصية ، فالإنسان حين تعترضه مشكلة ما فإنه يلجأ إلى خبراته السابقة فى مواقف مشابهة ويهتدى بحكمه على نتائج سلوكه السابق ازاءها فى تقرير سلوكه الحاضـــر . أو يستهدى بخبرات غـيره من الناس فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، وذلك عن طريق القراءة والمصادر الأخرى العديدة لتلقى المعرفة. الا أن هذه الخـبرة كثيرا ما تكون عرضة لعوامل شتى تقلل من صلاحيتها ، فقد يتسرع الانسان فى حكمه كما أنه قد يكون متحيزا وبالتالى يتجاهل الحقائق التى تخالف رأيه. ويعتبر القياس المنطقى مصدرا آخر للحكم على الأمور ، وهو اسلوب من التفكير ينتقل من العام إلى الخاص أو من المبادىء إلى النتائج ، الا أن هذا القياس يعتمد على بعض المسلمات أو البديهيات التى يتعين التسليم بصحتها وذلك هو موطن الضعف فيه .

أن العلم الحديث يرفض تماما هذه الأساليب من التفكير ويؤكد على الطريقة العلمية فى حل المشاكل . ونعنى بالطريقة العلمية الاسلوب الاستقرائى فى التفكير وهو اسلوب يستند إلى الحقائق ، فيبـدأ بملاحظـة الظواهر كما سبق ان أشرنا وما يتبع ذلك من وضع الفروض والتحقق من صدقها . وتتميز الطريقة العلمية إذن بأن تستند إلى ظواهر وحقائق يمكن لكل شخص مدرب أن يلاحظها فى كل زمان ومكان ، وهى تتميز بتحررها من التحيز العاطفى أى بموضوعيتها وبالتجائها إلى الفروض ، وإلى القياس الكمى الدقيق ، وإلى التصنيف والتحليل، حتى يصبح الفرض قانونا بعد التحقق من صدقه عن طريق إعادة الملاحظـات والتجارب .

ويشكل إتباع الأسلوب العلمى فى علم الاجتماع عقبة كبرى ذلك لأن العالم الطبيعى يستطيع عزل الظاهرة المراد دراستها فى معمله وأن يجرى عليها التجارب التى يريدها، أما عالم الاجتماع فإن مادته العلمية هى الناس، بل الناس فى حالة تفاعلهم وتعاملهم بعضهم مع بعض وهذا لا يمكن وضعه تحت الاختبار بالصورة التى يقوم بها العلماء فى المجالات الأخرى. ولهذا يلجأ علماء الاجتماع إلى وسائل أخرى مناسبة للتوصل إلى النتائج المناسبة ومن هذه الوسائل: المنهج التاريخى والمنهج التجريبى والمنهج القياسى والمنهج الاحصائى. كما أن هناك طرقا عديدة للحصول على البيانات مثل المقابلة الشخصية والاستبيان والملاحظة الخ.

والبحث الاجتماعى يهتم علميا بطبيعة وتغير واتجاه الظواهر الاجتماعية والجماعات والتصرفات الإنسانية بقصد الفهم والتحليل، ثم الخروج بمبادىء عامة عن هذه الظواهر أو التصرفات نتيجة لدراسة بيانات تختار عادة كنموذج ممثل للظاهرة موضوع الدراسة. وعلى هذا الأساس يمكن أن نعرف البحث الاجتماعى بأنه الطريقة المنظمة لاكتشاف حقائق جديدة أو التحقق من صحة حقائق قديمة، وآثارها والعلاقات التى تتصل بها وتفسيرها والقوانين التى تحكمها. وبذلك يهدف البحث الاجتماعى أساسا إلى فهم الحياة الاجتماعية والوصول إلى مقاييس أوسع لضبط التصرفات الاجتماعية (١) وسوف نحاول فيما يلى أن نعرض باختصار لبعض الطرق المتبعة فى إجراء البحوث الاجتماعية.

١ - المنهج التاريخى Historical Method

يستخدم هذا المنهج لدراسة الظاهرة الاجتماعية من حيث نشأتها ونموها

---

(١) عبد الحميد لطفى، علم الاجتماع، دار المعارف، ١٩٧١، ص ٣٧٨

وتحليلها مع دراسة العلاقة القائمة بينها وبين ما يتصل بها من ظواهر ، وكذلك أثرها على حياة المجتمع أو الجماعة موضع الدراسة ، فالتاريخ هو المادة الخام التى يمكن للباحث أن يستمد منه حقائق مفيدة للمعرفة الانسانية . وقيام الباحث الاجتماعى بدارسة التفكير الانسانى فى تطوره يكشف له عن الخطوات التى يمكن أن يتجه اليها تفكيره فى المستقبل ، إن أهم ما يجذب الباحث الاجتماعى فى التاريخ ليس بمجرد الوقوف على الأحداث الانسانية وإنما تحليل المشاكل الإنسانية تحليلا دقيقا وعميقا الوقوف على العوامل التى تؤثر فى تطور الجماعة أو المجتمع أو التى تطرأ على الظاهرة الاجتماعية وتساعد على معرفة العوامل المؤثرة فى المشكلات الاجتماعية الراهنة .

ويستخدم هـــذا الأسلوب من البحث الكتب والاحصاءات والنشرات والوثائق والمستندات والقصص والروايات عن الحياة والعادات الاجتماعية والتنظيم السياسى الذى مر به المجتمع موضع الدراسة وذلك الوصول إلى قواعد عامة للظواهر الاجتماعية على أساس تاريخى للعلاقات المتبادلة التى يمكن جمعها من الحقائق التاريخية

وعند استخدام المنهج التاريخى لا يكون من الضرورى أن نتعمق فى التاريخ حتى نصل إلى أزمنة سحيقة وإنما يهمنا أن نرجع إلى الماضى بالقـــدر الذى يمكننا من تتبع نمو العمليـــات الاجتماعية ودراسة أثر ذلك على المشاكل الاجتماعية الحاضرة ، كما أنه يجب قبل اختيار أى مرجع تاريخى البحث أن نعرف اتجاهات المؤرخ وميوله ، ومدى حياده وموضوعيته ، كذلك يجب التأكد من طريقة جمع البيانات التى اتبعها المؤلف ، لان المعلومات التى يستقيها الباحث من مصادرها الاولية تكون غالبا أدق من المعلومات التى جمعت عن طريق الكتب والنشرات الاخرى أى عن طريق المصادر الثانوية .

ب ـ المنهج التجرابي Experimental Method

يستخدم التجريب عادة فى العلوم الطبيعية ، الا أن البحث التجريبى فى العلوم الاجتماعية يعتبر أمرا صعبا إلى حد بعيد، حيث لا تتوافر للباحث الاجتماعى فى كثير من الحالات الظروف التى تتوافر للباحث فى العلوم الطبيعية نظرا لما تتميز به الظواهر الاجتماعية من تعقيد وتداخل العوامل التى يصعب ضبطها والتحكم فيها ، تلك العوامل التى غالبا ما تتمثل فى الإنسان نفسه أو المجتمعات الانسانية بوجه عام .

وقد تطبق الطريقة التجريبية على الأفراد وقد تطبق على الجماعات. وفى الحالة الأولى كثيرا ما تستخدم معامل الاختبارات النفسية ، أما فى الثانية فتستخدم وسائل البحث العادية . وتستخدم الطريقة الأولى لمعرفة أثر البيئة على مستوى إدراك الفرد مثلا أو طريقة تصرفه أو شخصيته . أما الثانية فتستخدم مثلا لمعرفة أنسب حجم لفصل دراسى فى مرحلة معينة من التعليم أو الاحتياجات الأساسية من مستلزمات الحياة لأسرة عادية . وعند استخدام طريقة التجربة يجب أن نعرف العوامل التى يراد معرفة أثرها على حياة الفرد كذلك يلزم التحكم فى جميع العوامل الأخرى حتى يظهر أثر العامل المراد قياس أثره ، ثم تدون النتائج بكل دقة وبدون تحيز وأن يتمكن الباحث من تكرار التجربة مرات أخرى حتى يتأكد من النتائج التى يصل اليها [1] .

حـ ـ المنهج الاحصائى Statistical Method

ويستخدم هذا المنهج فى معظم الأبحاث الاجتماعية فى الوقت الحالى حيث

---

(١) صلاح النبد ، علم الاجتماع التطبيقى ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ، ص٦٣–٦٤ .

تترجم النتائج إلى أرقام ،وذلك باستخدام عدة طرق فى الاحصاء مثل الاحصاء الكيفى وقد سمى بهذا الاسم لأنه يبين نسبة الذى يتصفون بصفة معينة ونسبة الذين لايتصفون بتلك الصفة ، فيبين مثلا نسبة الاناث إلى الذكور أو نسبة السود ونسبة البيض وهكذا.وهو يستخدم مقاييس عديدة مثل النسبة المئوية Percentage ونسبة كل نوع للاخر Ratio . أما الاحصاء الكمى فتكون نفس الصفة موجودةلدى كل فرد ولكن بمقادير مختلفة،وتستخدم المتوسطات الحسابية لهذا القياس ، كما يحدث عند قياس المتوسطات الشهرية لمجموعة من الموظفين مثلا .

د - منهج دراسة الحالة The Case Study Method

يختلف منهج دراسة الحالة عن المناهج السابقة بأنه يتميز بالعمق أكثر مما يتميز بالاتساع فى دراسته للأفراد والمجتمعات والاتجاهات الفردية والاجتماعية ، كما يتميز بالتركيز على الجوانب الفريدة أو المميزة، ولذلك يشيع استخدامه فى الدراسات المتعلقة بالخدمة الاجتماعية وفى الدراسات النفسيـــة .

وتتم دراسة الحـــالة عن طريق المقابلة الشخصية ، مع الاستعانة ببعض الدراسات المعملية بقصد دراسة كل دورة الحياة أو فترة معينة من هذه الدورة، وذلك بالنسبة لوحدة مفردة ، قد تكون شخصا أو أسرة أو مؤسسة أو جماعة أو مجتمعا بأسرة . وتعتبر « الوثائق الشخصية » من أهم المصادر التى يستعان بها فى طريقة بحث الحالة ، ومن أهم أشكال هذه الوثائق تاريخ الحياة كما كتبه صاحبه بنفسه ، والمذكرات والخطابات والاعترافات . وعموما فإن دراسة الحالة بالنسبة لشخص معين تكشف عما يحتمل فى نفسه من صراع داخلى كما تكشف عن طريقته فى الحيـاة والدوافع التى تدعوه إلى أن يسلك سلوكا معينا

والعوائق التى تمنعه أو تثيره أو تتحداه لاتخاذ سلوك بعينه فى وضع اجتماعى معين ، وهذه الأوضاع الاجتماعية المختلفة هى التى تمدنا بالفهم العميق لأنماط الحياة ككل .

الا أنه على الرغم مما تتميز به دراسة الحالة من عمق فإن التعميم على أساس نتائجها يعتبر أمرا مستحيلا ، هذا علاوة على أن كثيرا ما يسجل يكون عرضة لخطأ الشعور أو الذاكرة أو الحكم أو تحيز اللاشعور (١) .

طرق الحصول على البيانات :

هناك أكثر من طريقة يستخدمها الباحث للحصول على المعلومات أو البيانات التى يريدها ، ومن أكثر الطرق شيوعا فى علم الاجتماع : المقابلة الشخصية والاستبيان والملاحظة .

١ ـ المقابلة الشخصية Personal Interview

يطلق اسم المقابلة الشخصية على طريقة التحقيق التى تتميز بالاتصال وجها لوجه ، وتعتبر هذه الطريقة من أهم الطرق فى جمع المعلومات . ويختلف الوقت اللازم لكل مقابلة شخصية باختلاف طبيعة البحث . فقد يتراوح هذا الوقت بين عدة دقائق وساعة كاملة ، وهذا يتوقف على نوع البيانات المطلوب جمعها وكذلك على مقدرة الباحث فى الحصول على ما يريد .

ومن أهم ما تتميز به طريقة المقابلة الشخصية ارتفاع نسبة الحالات التى يمكن الحصول عليها ، وخاصة إذا كان كل من الإعداد والتنظيم دقيقا ، ويقترن استخدام طريقة المقابلة الشخصية بجداول لتسجيل البيانات يتوقف

(١) عبد الحميد لطفى ، المرجع السابق ٣٩٠-٣٩٥ .

شكلها وتصميمها على نوع البيانات المطلوبة وتصميم هذه الجداول بحيث يستقل كل جدول بموضوع معين ، ومن أمثلة هذه الموضوعات الناحية التعدادية كالسن والنوع وعدد أفراد الاسرة ومكان الميلاد وغيرها من بيانات لها طابع تعدادى .

وقد لاتكون البيانات المطلوبة على أساس أسئلة معينة وإنما على أساس الرواية الحرة وفى هذه الحالة لابد أن يشجع الباحث أفراد العينة لكى يتكلموا فى موضوع معين ، ثم يقوم الباحث بتسجيل اتجاهاتهم وانطباعاتهم أثناء الرواية (١) .

ولهذه الطريقة فى البحث مزاياها وعيوبها الا أنه توجد بعض التوجيهات يجب أن يراعيها الباحث منها أن يشعر العميل باستعداده للجلوس معه أطول مدة وأن يتحدث معه باللغة التى يجيدها وأن يكون مرحا معه حتى يزيل شكوكه ويطمئنه على سرية المعلومات ، وأن يحدد المعلومات التى يريد الحصول عليها من المقابلة ، وأن توجه الأسئلة بطريقة غير مباشرة وأن يشعر الباحث العميل بثقته فى نفسه وأن المعلومات التى يدلى بها سوف يستفاد منها

ب - الاستبيان Questionnaire

يعتبر الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات من أوسع الطرق انتشارا . وهو مجموعة من الأسئلة ترسل إلى الأشخاص الذين يصعب الوصول اليهم أو مقابلتهم وجها لوجه لاستفتائهم فى موضوع معين أو مشكلة معينة . وهناك وسائل عديدة لاجراء الاستبيان مثل النشر فى مجلة أو جريدة أو اذاعة الأسئلة عن

---

(١) نفس المرجع السابق ٤٠٤-٤٠٥

طريق الراديو أو التلفزيون على أن يكون الرد بواسطة البريد ، أو قد توزع باليد ثم تجمع باليد أيضا .

وتتراوح استمارة الاستبيان من مجموعة صغيرة من الأسئلة إلى كتيب صغير قد يتجاوز العشر صفحات ، كما تختلف استمارة الاستبيان من حيث نوع الأسئلة فقد تكون أسئلة مقفلة أى يكون الاختيار من الاجابات المكتوبة فعلا فى الاستمارة .أو قد تكون أسئلة مفتوحة أى يترك للفرد حرية الاجابة بما يتراءى له أو قد تكون أسئلة مصورة فتكون الإجابة فى هذه الحالة الاختيار من بين عدد من الرسوم .

وعموما فإن طريقة الاستبيان تستخدم فى التعرف على أسباب المشكلات الاجتماعية الموجودة بالمجتمع مع تعذر الاتصال بعدد كبير من الناس بشأنها ، وعلى ضوء نتائج مثل هذا الاستفتاء تتخذ الوسائل المناسبة لعلاج هذه المشكلة .

والملاحظ أن البيانات التى تجمع عن طريق الاستفتاء تعتبر أقل تحيزا من البيانات التى تجمع عن طريق جدول البحث وذلك لان شخصية الباحث لاتؤثر فى البيانات المجموعة ، كما أنها أقل تكلفة من الطرق الاخرى . الا أنه من عيوب هذه الطريقة عدم استخدامها الا فى المجتمعات التى تنعدم فيها الأمية والتى يكون أفرادها على درجة كبيرة من الوعى حول أهمية الأبحاث الاجتماعية وإدراك فوائدها .

جـ - الملاحظة : Observation

إن كثيرا من أنماط السلوك يمكن دراستها عن طريق الملاحظة المباشرة ، والذى يهمنا هو الملاحظة العلمية بمعنى أن يشترك الباحث فى حياة الجماعة لمدة

طويلة تساعده على التعرف على الظاهرة المراد دراستها تعرفا دقيقا . وهذا النوع من الملاحظة يعتبر مفيدا إلى حد كبير فى الأبحاث الاجتماعية حيث يساعد الباحث على معرفة نوعيـــة الارتباط بين الظواهر الاجتماعيـة المختلفة مما يمكنه من الحصول على نتائج أكثر دقة فى بحثه إلا أن الباحث يجب أن يكون دقيقا فى ملاحظاته ، وأن تكون ملاحظاته وفق منهج معين ، وأن يكون محايدا أى ينظر إلى أى ظاهرة اجتماعية نظرة علمية موضوعية ، كما يجب أن يسجل ملاحظاته عن الظاهرة التى يدرسها ، وما يتعلق بها من ارتباطات أخرى بصورة يومية منتظمة (١) .

هذا ولا تخلو طريقة الملاحظة من عيوب ، فقد يتطلب الأمر دراسة ظواهر معينة عن طريق الملاحظة التى قد يكون من الصعب التنبؤ بها مقدما ، وهذا ما يحدث إذا أردنا أن نلاحظ ما يحيط بظاهرة الزواج أو الوفاة فى مجتمع ما ، ففى هذه الحالة لابد من انتظار حدوث هذه الظواهر فترة غير محدودة وهكذا .

خطوات البحث :

من أهم المسائل التى تواجه الباحث الاجتماعى عند شروعه فى القيام ببحثه هو تحديد نطاق العمل ، إلا أن مشقة العمل والرغبـة فى الحصول على نتائج لا بأس بها هو الذى يجعل البحوث العلمية تقوم على أساس دراسة عينات محدودة ، على أنه من الواضح أن محاولة التعرف على خواص المجموع عن طريق دراسة عينة مختارة منه تنطوى على بعض التضحية فى دقة النتائج التى نحصل عليها .

---

(١) صلاح العبد ، المرجع السابق ، ٦٨ ـ ٦٩

طرق اختيار العينة :

وهناك عدة طرق تتبع فى اختيار العينة منها الطريقة العشوائية والطريقة الطبقية والطريقة المنتظمة .

أ - الطريقة العشوائية Random Sample

والمقصود بها إعطاء فرص متكافئة لجميع وحـــدات البحث ، أى بطريقة تضمن لجميع وحـدات البحث نفس الفرص لظهـورها فى العينـة : فمثلا لو فرض أن عدد الأسر فى قرية معينة ١٠٠٠ أسرة وتقرر أخذ عينة عشوائية حجمها ١٠٠ أسرة أى تشمل ١٠٪ من عـدد الأسر فتكون طريقة اختيـار العينة كما يلى :

١ - تسجل فى قائمة أسماء أرباب الأسر على أن يكتب كل إسم أمام رقم المنزل .

٢ - توضع أرقام المنازل الألف كل على ورقة مطوية .

٣ - توضع هذه الأوراق فى صندوق وتخلط ببعضها ثم يختـــار منهـا ١٠٠ ورقة .

٤ - يعد كشف بالأرقام التى ظهرت ويجرى البحث على الأسر الموجودة فى هذه المنازل ، وفى هذه الحالة تكون العينة عشوائية وتمثل ١٠٪ من المجتمع المحلى موضوع البحث

ب - العينة الطبقية Stratifical Sample

وتستخدم هـذه الطريقة عادة فى المجتمعات غـير المتجانسة من حيث نوع العمل أو توزيع الملكية أو الاختلاف فى مستويات التعليم أو الاختلاف فى

المستوى الثقافى . وفى هذه الحالة يتم توزيع وحدات المجتمع فى داخل الطبقات التى تحددها ، ثم تسحب عينة عشوائية تمثل كل طبقة ، إذ من الضرورى ان تكون العينة ممثلة لجميع الوحدات بالمجتمع موضع البحث .

جـ ـ العينة المنتظمة Systematic Sample

وتستخدم هذه العينة لضمان التوزيع العادل فى العينة ، وكذلك الدقة فى الاختيار ، وذلك بالنسبة لاطار المجتمع ككل . ولاختيار عينة منتظمة بنسبة ١٠ ٪ من المثال الذى أشرنا اليه فى الطريقة العشوائية يتم ترقيم الأسر من ١ إلى ١٠٠٠ وحدة ، كل وحدة (١٠) أسر ، ثم نأخذ من الوحدة الاولى أسرة ولتكن رقم ٥ فتكون العينة أرقامها ٥ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٣٥ وهكذا (١) .

---

(١) صلاح العبد ، المرجع السابق ٦٦–٦٢

الفصل الرابع

التفاعل الاجتماعى

تطور المنظور الاجتماعى المميز لعلم الاجتماع خلال قرن من التجربة العقلية الخلاقة ، ومن خلال هذا المنظور تغيرت أو تحورت الافتراضات القديمة عن الإنسان والمجتمع ، بل واختفت نهائيا فى بعض الأحيان . ومن هنا ظهرت ضرورة تحرير مفهوم الإنسان من النماذج التقليدية القديمة بما فيها التعريفات العلمية التى تعرف السلوك الانسانى من خلال الغرائز أو العوامل الخارجية الأخرى مثل الظروف الجغرافية أو المناخية أو الجنس. ويهتم العلم الاجتماعى الحديث بفكرة بسيطة ولكنها أساسية وهى أنه لا يمكن تفسير سلوك الفرد أو تنظيم حياة الجماعة باعتبارها استجابات غرائزية للمتنبهات الخارجيـــة فقط وإنما تنبعث الحياة الإنسانية من خلال التجارب الجمعية .

وهناك نقطة بدء أساسية فى التحليل السوسيولوجى ترتبط بتصورين أساسيين هما : التفاعل Interaction والثقافة Culture . فالتفاعل يشير إلى العمليات التى تقود سلوك الناس كل تجاه الآخر، واندماج كل منهم مع الآخر، أما الثقافة فهى تشير إلى المعتقدات والمعانى والأفكار والقيم التى يشارك فيها الناس ، وهى التى تجعل عملية التفاعل ممكنة ولا يفترق مفهوما التفاعل والثقافة فى واقع الأمر ، ولكنه من الأفضل فى حالة دراستهما أن نفصل بينهما من أجل فهم أفضل .

التفاعل : الاجتماعى والرمزى :

عندما توصل عالم النفس الروسى الشهير بافلوف Pavlov إلى ان لعاب

الكلب يسيل عند سماع رنين الجرس ، عاون هذا على ايجاد تفسير للسلوك الإنسانى وهو ما نطلق عليه اصطلاح المنبه والاستجابه Stimulus-Response فالكائن الحى يتعلم أن يستجيب للمنبه الذى يكون خارجا عنه ، ويأخذ هذا المنبه صورة الأصوات المسموعة أو الأشياء المرئية ، وهذه المنبهات تجعل الكائنات الحية تستجيب بطريقة يمكن التنبؤ بها . وقد تطور هذا المدخل فى علم النفس حتى أصبح يدرس مجموعة كبيرة من المشاكل وخاصة تلك المتعلقة بالسلوك المتعلم ، وهو فى هذا يشير فى جانب منه إلى أن الانسان كائن حى « سلبى » يستجيب للمنبهات Reacts . أما التصور السوسيولوجى فهو يعزو إلى القدرة الإنسانية أكثر من مجرد القدرة على الاستجابة ، فالانسان إلى جانب مقدرته على الاستجابة والانفعال فإنه أيضا يستطيع أن يبادر وأن يوجه الفعل نحو أشياء أخرى (بما فى ذلك الأشخاص) فى العالم المحيط به . فأفعاله إذن ليست مجرد استجابة لمنبهات خارجة عن ذاته .

ويبدأ علم الاجتماع بمفهوم التفاعل ويعنى به الموقف الذى يتفاعل فيه شخصان أو أكثر كل تجـــاه الآخر ، على أن يتضمن ذلك استجابة كل منهم للاخر فى نفس الوقت . ويمكن اعتبار الحادثة بين شخصين مثلا نموذجا بسيطا للتفاعل ، فكل فرد يوجه سلوكه اللفظى للاخر ويستجيب بالتالى لما يبدر من الآخر من ألفاظ ، ويعنى ذلك أن فعل كل فرد يتحدد بما يتوقعه من الفرد الآخر ، ولهذا فمن الضرورى أن يكون على معرفة مسبقة به ، وأن يعرفه كشىء اجتماعى بمعنى معين (مثل أن يكون صديقا ، أو مدرسا ، أو بحارا ، أو يكون لطيفا أو سخيفا . له مكانة عالية أو منخفضة) والقاعدة المستفادة من ذلك أن هذه المعلومات عن الآخرين تجعلنا نستطيع التفاعل معهم . وإذن فأى فعل يقوم به الناس فى عملية التفاعل الإجتماعى هو فعل له معنى

meaningful ، بمعنى أن الأفراد « يفعلون » عمـــدا وليس مجرد استجابة لاشعورية لمنبهات متعددة تأتى اليهم من بعض المصادر الخارجية .

إن الحادثة فى حد ذاتها فعل له معنى يقوم به الأشخاص فى عملية التفاعل الاجتماعى ، وهنا يمكن القول أن التخاطب ليس مجرد اصدار أصوات ، ولكنه يعبر عن بعض المعانى الثقافية من خـلال الـكلمات والرموز اللفظية ، ومن هنا فإن معنى هـذه الكلمات يجب أن يكون « مشتركا » بين الفاعلين ، الأمر الذى اظهر معه أهميـة وسائل الاتصال Communication فالناس كما نعلم يتصلون ببعضهم من خلال اللغة Languge إلى جانب نسق معقد من الرموز المنطوقة والمكتوبة التى ابتدعها الانسان وطورها لتوصيل المعانى إلى الآخرين .

إن تعريف الانسان بأنه المخلوق الذى يعيش من خـلال الرموز ، وأن اللغـــة هى العملية الرمزية الأساسية ، ليست فكرة جـديدة ، فقد قال بهذا كثير من المفكرين أمثال ديـكارت وجون لوك منذ عـدة قرون . إلا أن أهمية الانسان الرمزية أصبحت دعامة رئيسية فى تصوراتنا عن الانسـان فى الوقت الحاضر . وقد قدم لسلى وايت Leslie White فى كتابه « علم الثقافة The science of Culture » تدعيما للرأى القائل بأن « الرمز » أساس فى جعل الانسان إنسانا وكذلك فى بناء الحضارة[1] ويشير وايت فى هذا المقام إلى أن الحيوانات تستطيع الاستجابة للاصوات ، وهى هنا تعنى الاشارة sign . والاشارة يمكن أن تكون شيئا طبيعيا أوحدثا يقود إلى شيء أوحدث آخر[2]

---

1. Leslie White, "The Science of Culture" N. Y, Farrar Straus, 1949.

2. Ibid, p. 27.

وهناك بعض الاشارات تحدث فى الطبيعة مثل السحب الداكنة والرياح التى تكون إشارة إلى العاصفة القادمة . ولكن معظم الاشارات تكون من صنع الانسان ، مثل اشارات المرور فى الشوارع المزدحمة ، والحيوانات تستطيع تعلم الاشارات حتى المعقـــدة منها بعد تدريب ، ولكن يلاحظ أن عملية الاستجابة للمنبه تكون واحدة بالنسبة للحيوانات المدربة (بما فى ذلك الانسان) وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بالاستجابات المتعددة والمتنوعة للاشارات ، إلا أن وايت يؤكد على نقطة هامة وهى أن الانسان فقط هو الذى يستطيع أن يلعب دورا فعالا فى تحديد قيمة الاستجابة الصوتية التى يقوم بها . ولكن إذا كانت الحيوانات تستطيع الاستجابة للاشارات ، فالانسان وحده هو الذى يستطيع الاستجابة للرموز ، حيث توجد كثير من الرموز تحمل معانى وقيم معقدة يقتصر فهمها والاستجابة لها على الانسان ، ومثال ذلك أن الصليب يشير إلى معان وقيم مختلفة فى العقيدة المسيحية .

أ ـ الطبيعة الاجتماعية للغة .

تظهر اللغة من خلال عمليات التفاعل الاجتماعى ، وهى بالتالى تعتبر نتاجا اجتماعيا ، ومع ذلك فإنها تصبح فى نفس الوقت الموجـــه الرئيسى للحياة الاجتماعية ، فاللغة هى نسق رمزى انسانى يسمح للانسان بالتعبير عن نفسه ويسهل عملية اتصاله بغيره . ولهذا فان المقدرة على الكلام ظاهرة عالمية مع أنها غير موروثة ويتعلمها الانسان من البيئة المحيطة به. وكما أن الثقافة تعتبر مسألة نسبية تختلف من مجتمع لآخر نتيجة لأسباب عديدة متشابكة فان اللغة أيضا (والتى تعتبر بعدا رئيسيا من أبعاد الثقافة) تنبثق من خـــلال مضمونات اجتماعية مختلفة ، ولهذا تتعدد اللغات بتعدد الشعوب بل أنه فى الشعب الواحد الذى يتكلم لغة واحـده ، تتعدد فيه اللهجات الإقليمية . ونتيجة لاستعمال اللغة

يصبح الإنسان أقدر على التعامل مع العالم المحيط به ، لأنه يكون واعيا تماما بكل العمليات الاجتماعية ونتائجها بالنسبة له . فى الوقت الذى يستطيع أن يضيف كثيرا من المعانى إلى تجربته وبالتالى يعطى لها دلالة خاصة(١) .

ولكن ماهى العلاقة بين اللغة والعقل ؟ إن الإنسان مخلوق عاقل ومفكر واللغة هى الأداة الاجتماعيـة التى من خلالها يصبح التفكير ممكنا ، ومن خلالها أيضا يبنى الإنسان بيئة رمزية يعيش فيها . فالحقيقة ليست شيئا خارجا عن الإنسان ولكنها بيئة أو مجال موضوعى يعتمد وجوده ويظهر من خلال رموز معينة هى اللغة . وتشير اللغة إلى خاصية أو شىء أو حدث ، ومن خلالها نستطيع تصنيف التجارب والأحداث . والتمييز بين الأشياء المتشابهة والمختلفة بطرق نتعلمها خلال الممارسة العملية فى البيئة المتوارثة . وباختصار فان اللغة تنظم عملية الادراك أى أنها تختار وتحدد وقد تحذف وتهمل أيضا فنحن نفكر باللغة ونفكر لنتكلم . وهذا يعنى أنه لا تفكير بدون كلام ولا كلام بدون تفكير ، أو كما قال افلاطون اسقراط ، عندما يفكر العقل فانه يتحدث إلى نفسه ، وهذه ملاحظة قديمة تؤكد اعتماد التفكير على اللغه .

ب ـ التفاعل الرمزى

يحدث التفاعل الاجتماعى إلى حد ما من خلال اتصال المعانى بعضها ببعض عن طريق اللغة أو الاستخدام الرمزى لعمليات أخرى ، وهـذا مايسمى التفـاعل الرمزى Symbolic Interaction الذى يعتمـــد على مقدمتين منطقيتين هما (٢)

1. Mckee, op. cit, pp. 60-61

2. Herbert Blumer, Symbolic Interactionism : Perspective and Method, 'Englwood Clifs, New-jersey, Prentice-Hall, Inc., 1969, p. 2.

١ - إن الناس يتعاملون مع الأشياء على أساس معانيها بالنسبة لهم. وقد تكون هذه الأشياء جمادا أو مخلوقات آدمية أو نظما اجتماعية أو مثلا عليا أو أنشطة تتصل بالآخرين.

٢ - إن المعانى مشتقة أو ناشئة عن التفاعل الاجتماعى الذى يمارسه الفرد مع رفقائه لأن المعنى هنا يكون صادرا عن تركيب الانسان النفسى والعقلى، فمشاعر الفرد وذكرياته ومثله العليا واتجاهاته ينتج عنها المعنى. ومن ثم يختلف التفاعل الرمزى تبعا لاختلاف وتنوع كل ذلك. ولهذا طالما أن المعنى ينشأ أو ينبثق من خلال عملية التفاعل بين الناس فإنه يكون نتاجا اجتماعيا.

ومن هذا يتبين أن الكائن الانسانى المهيء اجتماعيا هو الذى يستطيع الاتصال رمزيا، ويشارك فى المعانى، ويفعل وينفعل ويتفاعل. يؤكد ذلك أن الدارس لا يستطيع فهم السلوك ببساطة عن طريق دراسة البيئة الخارجية أو القوى الخارجية، لأنه لابد أن يرى العالم من وجهة نظر موضوع بحثه، فالانسان لا يستجيب للمنبه، بل يختاره ويفسره. الأمر الذى يصبح معه من الضرورى أن يكون لهذا التفسير معنى معروف.

إن افتراض أن الانسان يفعل ويتفاعل يكشف أن الناس وحدهم هم الذين يستطيعون القيام بدور الآخرين. فنحن نحزن لمصائب الصديق، ونشارك أطفالنا السعادة والمرح، والزوج يستطيع توقع استجابة زوجته إذ أرسل لها زهورا أو دعاها للعشاء. وباختصار، لا يكون سلوك الفرد مجرد استجابة للآخرين، بل هو استجابة ذاتية، أى استجابة لمحصلة الرموز الداخلية(١).

---

(١) سناء الخولى، الأسرة والحياة العائلية، ١٩٧٧، ص٢٥.

أنماط التفاعل : الدور والبناء

إن مفهوم التفاعل لاينفرد به علم الاجتماع ولكنه أساسى بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية . فالإنسان العادى لا يمكن فهمه دون الرجوع إلى التفاعلات الاجتماعية التى تكون ذات دلالة وأهمية فى تجربة حياته . ولهذا يصبح مفهوم التفاعل أساسيا بالنسبة لتطور علم الاجتماع وفى الجهود المبذولة لتنمية البحث السوسيولوجى . وعند دراسة النظام الاجتماعى لابد أن نبدأ بفهم الناس الذين يتفاعل بعضهم مع بعض، ومن هذا المنطق نستطيع التحدث عن تنميط أو تقسيم عملية التفاعل الاجتماعى إلى الأدوار Roles والعلاقات Relations والبناء الاجتماعى Social Structure .

ومع أن التفاعل الاجتماعى كما سبق أن كررنا عملية دائمة وعامة بين الناس فى كل مكان وزمان إلا أن اهتمام علماء الاجتماع ينصب على التفاعل الذى يتميز بالانتظام والذى يحدث فى مواقف محددة . لأن بعض التفاعلات تكون مؤقتة وبعضها يكون دائما . وتتردد كلمة «علاقة اجتماعية» كثيرا فى أحاديثنا اليومية ، فالزواج مثلا علاقة اجتماعية وكذلك الصداقة إلى آخر القائمة التى لانهاية لها مثل علاقة الأب بالابن والطبيب بالمريض والطالب بالأستاذ . هذا ويمكن تحليل العلاقات الاجتماعية عن طريق المكانة Stauts أو الوضع Position أو الأدوار . ويطلق مصطلح «الوضع الاجتماعى» كتعريف للمركز أو المكانة فى نسق التفاعل الاجتماعى . مثل وضع الأستاذ فى الجامعة ، ويستمد مفهوم الدور الاجتماعى معناه من الحقيقة القائلة بأن شاغلى الأوضاع الاجتماعية يتبادلون التوقعات المتعلقة بسلوك كل منهم تجاه الآخر . وإذن فالدور الاجتماعى هو توقع لسلوك مشترك بين الفاعلين فى العلاقات الاجتماعية ؛ وهو يظهر من خلال التفاعل الاجتماعى ويدعمه كما أنه لا يمكن أن يوجد خارج العملية التفاعلية التى ينبعث منها التوقع .

أ ـ المركز والدور

أخذت كلمة «دور Role » من الدور يقوم به الممثل في المسرح إلا أنها في الواقع وفي الحياة تختلف عن ذلك لأن الممثل في المسرح يلتزم بالحوار الذى كتبه المؤلف وبالحركات التى حددها له المخرج. فلا تفرض توقعات الدور في الحياة الاجتماعية سلوكا معينا يتحتم القيام به ولكنها توحى بالاتجاه نحو شيء معين ولا يوجد الدور إلا عندما توجد أدوار أخرى يتجه إليها . والتوقعات تقوم أساسا على فهم المعانى أو السمات البارزة للأفعال ، وإذا كانت التوقعات التى تحدد الدور لا يمكنها أن تفرض سلوكا معينا فهى على الأقل ترشدنا إلى أن نتوقع أن الفاعل Actor لابد أن يسلك سلوكا معينا إذا أراد أن ينجز بعض الأغراض المعينة . ومثال ذلك ، أن الأنثى في أى مجتمع تتعلم كيف تسلك كامرأة وكيف تتعامل مع الآخرين من خلال توقعات مشتركة عن السلوك الأنثوى ، فهى عندما تتزوج لابد أن تسلك كزوجة وعندما تصبح أما يظهر نوع آخر من التوقعات يحدد اتجاهها نحو زوجها وطفلها والآخرين. فدور الأم نحو طفلها يتحدد بتغذيته والعناية به والقيام باحتياجاته المادية والجسمانية وتدريبه وأحيانا عقابه ، فنحن نتوقع من الأم دائما العناية والرعاية والرقة والحنان وعلى هذا الأساس نبنى بعض التوقعات عن كيفية سلوك الأم وتصرفها .

إذن لعب الدور أو القيام به ينظم السلوك ، وهو يصلح لتحديد نموذج التفاعل الذى يعين الأفراد على الاشتراك في توقعات عامة مشتركة (الزوجة ، الصديق ، المعلم) وبالتالى تحديد ما يمكن توقعه من الآخرين بصدق وموضوعية ، وكلما ظل الناس يشاركون في توقعات معينة ، كان هذا عاملا من عوامل

بقاء المجتمع وانتظامه (١) .

ويعتبر مفهوم الدور خطوة تحليلية أساسية فى العلم الاجتماعى وخاصة على المستوى السيكولوجى للانسان ، كما أنه يعتبر أيضا وحدة أساسية ودائمة فى تحليل النظام الاجتماعى لأن مقدرتنا على التفكير التحليلى لا تنحصر فى مجموع الأفراد الفاعلين (الأم أو المعلم أو القاضى أو الصديق أو القائد) الذين يستجيبون لتوقعات تقوم على الفهم المشترك ، ومن هذا المنطلق نستطيع تفسير نمط التنظيم الذى نعيشه . وتصبح مهمة علماء الاجتماع هى تحليل مايدور فى عقول الأفراد كأعضاء فى المجتمع . إن كل لغة مليئة بالألفاظ التى تشير إلى الأدوار مثل : مواطن ، سياسى ، رجل بوليس ، عسكرى ، أب ، عامل ، مدير الخ ... هذه الكلمات تستخدم فى الحياة العاديه اليومية لتميز كل فرد عن الآخر وتحدد الدور أو الفعل الذى يتوقعه منه الآخرون .

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى العلاقة بين «المركز» «والدور» ، فكما هو الشأن عند تعريف البناء والوظيفة يمكن تعريف المركز والدور ومناقشتهما مستقلين إلا أنهما لا يفترقان فى الواقع ، فهما يكشفان الرابطة بين الفرد وبين المجتمع الذى ولد فيه ، وبهذا المعنى لايشير المركز إلى المكانة بل إلى الوضع فى البناء الاجتماعى ، فكل فرد فى المجتمع له عدة مراكز بعضها موروث وبعضها مكتسب فمثلا الجنس (ذكر . أنثى) والطبقة الاجتماعية تعتبر مراكز موروثة أما المركز الزواجى والمركز المهنى فهى مراكز مكتسبة وكل فرد فى المجتمع يشغل عدة مراكز فى نفس الوقت ، وكل مركز أو مجموعة من المراكز تتطلب سلوكا مناسبا ، وهذا ما أطلقنا عليه مصطلح الدور(٢) .

---

(١) Mckee, op. cit. pp. 64-67

(٢) سناء الخولى ، المرجع السابق ، ٢٧ .

ب - البناء الاجتماعي

تعني كلمة بناء Structure بمعناها الواسع تنظيم أو ترتيب أو تداخل أجزاء الشكل . حيث تندمج الأجزاء الأساسية التي تصنع الكل بطريقة معينة ، ونستطيع أن نضرب لذلك مثلا إذا شبهنا البناء الاجتماعي بالساعة ، فالساعة أكبر من مجموع أجزائها ، فإذا كان لدينا ساعة وقمنا بفك أجزائها فإنها في هذه الحالة لن تصبح ساعة وإنما كومة من الأجزاء . وإذن فالساعة ليست مجرد مجموع لأجزائها لأن المهم هنا هو الطريقة التي تنتظم على أساسها هذه الأجزاء، وارتباط كل جزء بغيره،وبنفس الطريقة يمكن القول أن المجتمع أكبر من مجموع الناس الذين يعيشون فيه وخاصة إذا أضفنا الأسلوب أو الطريقة التي تنظمهم وتربطهم بعضهم ببعض ولهذا يقال أن هذه الأشياء مجتمعة تشكل مايسمى بالبناء الاجتماعي Social Structure وعند دراسة المجتمع فإننا نستطيع تفسير فعل كل فرد من خلال تنظيم الجماعات التي ينتمي اليها ، وبالتالي فإن فعل هذه الجماعات يفسر من خلال تنظيم المجتمع ككل أو بنائه الاجتماعي . إلا أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن الأشخاص والنظم والجماعات يختلفون عن مكونات الساعة وأجزائها التي صممت لإنجاز غرض محـــدود وهو قياس الزمن . فالبناء الاجتماعي يتميز بصراع المصالح بين الأشخاص والجماعات ، ذلك الصراع الذي ينجم عن الأوضاع المختلفة للجماعات في البناء الاجتماعي ، وعن المكاسب المتفاوتة والمتمايزة التي تحصل عليها من وراء ذلك .

وقد يتخذ معنى البناء في علوم أخرى أبعاداً غير معنى البناء الاجتماعي الذي نتحدث عنه هنا ، إذ أنه في الأساس بناء غير مادي ، ذلك أنه مفهوم أو تصور استخدم في علم الاجتماع للتوصل إلى فكرة معينة وهي أن الناس يتفاعلون من خلال أدوار يرتبط بعضها ببعض بطريقـــة منظمة ، ومن هنا

يكون الدور مكوناً أو جزءاً أساسياً فى كل كبير منظم ، وينطبق هذا أيضاً على العلاقة الاجتماعية ، فالأسرة مثلا تتضمن أدواراً مختلفة مثل الأب والأم والابن والابنة إلى جانب مجموعة من العلاقات الاجتماعية التى تظهر نتيجة التفاعل بين أعضاء الأسرة من خلال أدوارهم ، إلا أن هذه العلاقات المختلفة والمتنوعة لا بد أن تتجه إلى التماسك حتى يصبح للأسرة وجوداً منظماً . والخلاصة أن البناء الاجتماعى هو تكامل الأدوار الاجتماعية فى نمط من التفاعل يتميز بالتماسك إلى درجة معينة. (حيث لا يوجد بناء اجتماعى متماسك تماماً) ، وهذا يعنى احتمال وجود التوترات والضغوط أو الأسباب الداخلية المفضية للصراع، وعندما تتوفر هذه العوامل بدرجة كافية فإن التغير الإجتماعى يصبح أمراً لا مفر منه .

وقبل الانتقال إلى تفسير معنى العملية الإجتماعية نود الاشارة إلى أن مايطلق عليه بعض علماء الإجتماع مصطلح « بناء اجتماعى » يسميه آخرون «نسقاً اجتماعياً» Social System ، ويلاحظ أن المصطلحين يتضمنان الفكرة القائلة بأن التفاعل الاجتماعى يقوم على مجموعة مركبة من الأنماط التى تتميز بثبات ودوام نسبى ، وأحياناً يطلق بعض العلماء على نفس الفكرة مصطلح التنظيم الاجتماعى "Social Organization" الذى يعنى فى جانب منه معيشة الناس مجتمعين ، ومايترتب على ذلك من تنظيم يؤدى إلى استمرار الحياة الاجتماعية . وقد يعنى فى جانب آخر أكثر خصوصية مايطلق عليه الآن «التنظيم الرسمى أو التنظيم البيروقراطى» (1)

العمليات الاجتماعية

عندما يتحدث المشتغلون بعلم الاجتماع عن العمليـــة الاجتماعية

1. Mckee. op. cit. p, 68

Social Process فهم يتحدثون عن أشكال أو نماذج التفاعل الاجتماعى يتحرك الانسان من خلالها ليؤدى أفعالا معينة أو يقوم بسلوك محدد . ولهذا تنطوى العملية الاجتماعية على ما يسمى « بالدينامية » فى الوقت الذى يتضمن «البناء» فية معنى الثبات Static ، ويمكن التعبير عن ذلك بصورة أخرى عندما نقول إن العملية تشير إلى النشاط الدائم المستمر ، أما البناء فيشير إلى العناصر الثابتة التى تمنح العلاقات داخل أى جماعة نوعا من التماسك . وقد اتفق معظم علماء الاجتماع على مجموعة معينة من العمليات الاجتماعية الأساسية التى توجد فى أى مجتمع مهما كانت نوعيته ومن أهمها التعاون Cooperation والتنافس Competition والتوافق Accommodation والتمثيل Assimilation والصراع Conflict . وهناك اتفاق عام على أن الحياة الاجتماعية منتظمة وتعيد تنظيم نفسها بصفة مستمرة ، أى أنها فى تدفق مستمر على الدوام . وهذا هو الذى يجعلنا نشير اليها باعتبارها عملية مستمرة وليست أنماطا بنائية ثابتة . ولعل هذا هو الذى يجعل مفهوم العملية الاجتماعية جزءا رئيسيا فى المنظور السوسيولوجى ، ويحسن نشير إلى العمليات الاجتماعية الأساسية باختصار فيما يلى :

١ - التعاون : لا يستطيع الناس ان يجتمعوا بدون تعاون ، أو دون أن يشتركوا معا فى العمل من أجل السعى وراء المصالح المشتركة . وهناك طرق عديدة للتعاون فى الحياة الاجتماعية أهمها التعاون المباشر مثل اللعب المشترك والصلاه المشتركة والتعاون فى انجاز الأعمال الخ ... وهناك أيضا التعاون غير المباشر ، وهو يشير إلى جميع مظاهر النشاط التى يقوم فيها الناس بأعمال غير متشابهة بغية تحقيق هدف مشترك . وعموما فقد صاحب التعاون غير المباشر النظام التكنولوجى المعاصر الذى يتطلب تخصصا فى المهارات والوظائف .

٢- التنافس: يظهر التنافس بصور متعددة ودرجات متفاوته فى أى اتصال يقع بين انسان وآخر . وتتغير طرقه دائما مع تغير الظروف الاجتماعية والثقافية فى المجتمع . فالتنافس هو تنازع خفى بين الأفراد للحصول على أغراض معينة فى الوقت الذى تكون فيه الفرص محدودة ، سواء أكانت هذه الأغراض مالية أو امتيازات أكاديمية أو تتعلق بالمركز الاجتماعى. فالمنافسة لاتتدخل تدخلا مباشرا فى جهود الآخرين للحصول على هذه الأغراض وإنما تتدخل بطريقة مباشرة فى نجاحهم(١)

٣- الصراع : يشير إلى نوع عنيف من التنافس ، وهو فى أقصى صورة عبارة عن العملية التى عن طريقها تحاول الجماعة أن تدمر أو على الأقل أن تقلل من مركز جماعة أخرى . ويركز التحليل السوسيولوجى على الصراع ويستخدم مفهومه بطريقتين مختلفتين . فعندما يتحدث عن صراع الدور Role-Confict فهو يشير إلى التضارب فى توقعات الدور فى الجماعة ، والنتيجة المتوقعة بالنسبة للفرد الذى لايستطيع الوفاء بالتزامات توقعين متضاربين فى نفس الوقت أو فى نفس الموقف أن يقع فى صراع .

المفهوم الثانى للصراع هو النضال من أجل قيم معينـــة عندما تحاول كل جماعة أن تفرض تعريفها أو مفهومها على الموقف وأن تبقى أو تغير النظام الاجتماعى تبعا لقيمها الخاصة . وهـذا المفهوم الآخر للصراع يسمى فى علم الاجتماع الخلل الوظيفى الذى يتعرض له النظام الاجتماعى (٢)

---

(١) ماكيفر «المجتمع» الجزء الأول · ترجمة الدكتور على عيسى ١٣٠ – ١٣٤

(٢) Lewis Coser, The Functions of Social Conflict (N. Y) Free Press, 1956.

وعموما فإن ما يشير اليه المصطلحان السابقان يتداخل بعضه مع الآخر فى واقع الحيـاة ، ولذلك يمثل كل اصطـلاح ناحية معينة من نواحى السلوك الإجتماعى المتكامل . أو بمعنى آخر ، يكون فى كل موقف اجتماعى قدر معين من هذه العمليات . ومثال ذلك إذا درسنا السلوك فى مباراة رياضية نجد أن تصوير الموقف من وجهـة نظر المتفرج ينحصر فى إدراك كل فريق عـلى أنه وحدة متعاونة بينما الأمر قد يكون من وجهة نظر أحد أعضاء الفريق منافسة سافرة بين فريقه والفريق الآخـر ، وربما حيث وسائل التنافس فتنقلب إلى صراع (مثل ما يحدث فى مباريات كرة القدم) .

٤ - التوافق : يشير إلى الحلول السلمية أو الاتفاقات التى يلجأ اليها الناس ليتخلصوا من الارهاق أو المواقف الصعبة التى تواجههم فى الحيـاة . وهناك صور سلوكية عديدة يلجأ اليها الناس ليتوافقوا مع ظروف الحياة المتغيرة مثل : « المهادنة » وهى تعنى الاتفاق على الكف عن الصراع الدائر عـلى الرغم من عدم حل المشاكل موضع الخلاف . « والتوفيق » أى تنازل أحـد الطرفين عن بعض مطالبه فى مقابل موافقة الطرف الآخـر عن التنازل عن بعض مطالبه أيضا . « والتحكيم » ويعنى قبول الطرفين المتنازعين حكم طـرف ثالث فى موضوع الصراع وأخيراً هناك « التسامح » الذى يظهـر حين تقرر الأطراف المتنازعة الكف عن الاستمرار فى النزاع دون محاولة من أى طرف للتغلب أو تعديل أو قبول أى نمط من أنماط سلوك الجماعات الأخرى التى بدأت بالعدوان أول الأمر .

٥ ـ التمثيل . يشير الامتصاص أو التمثيـل إلى عملية التكيف المتبادل التى من خلالها تقلل الجماعات المختلفة اختلافاتها إلى الحد الذى لاتصبح معه هـذه

الاختلافات ذات أهمية اجتماعية ملحوظة . الا أن التمثيل يكون نسبياً فى كثير من الأحيان ، فقد تعتنق جماعة معينة « كل » ثقافة جماعة أخرى دون أن يطرأ أى تعديل فى ثقافة الجماعة الأخيرة ، ومن ناحية أخرى قد تتبادل جماعتان التأثر بثقافة كل منهما الأخرى ، مما يترتب عليه ظهور نمط ثالث من الثقافة يختلف عن نمط الثقافة فى كل من الجماعتين المتفاعلتين (١) .

وعموما فهناك بعض القضايا أو المبادىء الهامة التى تتصل بالعمليات الإجتماعية نعرضها فيما يلى :

- يناضل الناس فى كل مكان من أجل الوصول إلى أهدافهم . والاشتراك فى النضال مع الآخرين (التعاون) أو النضال ضدهم (التنافس) يعتبر أحد الصور المكتسبة للسلوك .

- التنافس بين الجماعات يشجع التعاون داخل الجماعة الواحدة .

- صور التنافس والتعاون فى ثقافة معينة ، تعتبر وظيفة لتكامل عدد من العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة .

- إذا كانت الأهداف أو القيم نادرة فى أى ثقافة ، يصبح طابع السلوك فى معظم الأحوال تنافسيا أما إذا كانت كثيرة فإن السلوك يصبح تعاونيا .

- يتنافس الناس أو يتعاونون للحصول على المزايا المادية ، كما أنهم يفعلون ذلك للحصول على مزايا لا مادية مثل النفوذ أو القو

- لا يوجد مجتمع تكشف ثقافته عن « تنافس كامل » أو « تعاون كامل » .

---

(١) محمد عاطف غيث «علم الاجتماع» ص ٢٨٨ - ٢٣٠

ذلك ان كل مجتمع يشتمل على درجات متغيرة منهما. وهذا هو الشأن بالنسبة للصراع والتوافق والامتصاص.

— الصراع ليست له صفة الاستمرار ، فهو متقطع ، بينما يكون التنافس مستمـــرا .

— الصراع بين الجماعات المختلفة يؤدي إلى التضامن داخل الجماعة الواحـــدة .

— التوافق يمهد السبيل للتمثيل .

— يتوقف التغير من الصراع إلى التعاون على التغلب على الأنماط المتحجرة والصور الخاطئة التي يحملها البعض للاخرين (١) .

معنى النظام الاجتماعي .

إذا كانت فكرة النظام الاجتماعي Social Order تشد انتباهنا ، فإنه من المناسب أن نوضح معانيها بصورة أوضح في المضمون السوسيولوجي ، ان فكرة النظام أساسية في العـــلم ، حيث أن وجود النظام في الظاهرة يعتبر الافتراض الأساسي في العلم . فإذا لم يوجد النظام يعتبر العلم مستحيلا . والتنبؤ بالظواهر الذي يعد أساسيا في العـــلم يفترض وجود نوع من الانتظام حتى تصبح الدراسة العلمية ممكنة . ولهذا كان مفهوم النظام الاجتماعي يشتمل على نفس الفكرة العلميـــة عن الانتظام إلا أن كلمة اجتماعي تعطيه معنى مميزا . فالنظام الذي يقصده عالم الطبيعة في قوانينه هو الانتظام في السلوك والعلاقات بين الظاهرة الطبيعية والعضوية ، التي تلاحظ وتفهم عن طريق العالم وليس عن

---

(١) عاطف غيث المرجع السابق ٢٣٢ — ٢٣٥ .

طريق الظاهرة . ولهذا كان مفهوم النظام فى هذه الحالة خارجاً عن نطاق الظاهرة المنتظمة . فالظاهرة الطبيعية أو البيولوجية يمكن أن تعمل فى إطار من العلاقات المنظمة ولكنها لاتشعر بهذا النظام ، وإذا كان سلوكها يسير وفقا لقوانين معينة فهى غير معروفة بالنسبة لها.

أما الانسان فهو يشعر بالنظام الذى يعيشه ، كما أن لديه إحساسا بنمط التوقعات المنتظمة الذى يستمده من تجربته اليومية فى الحياة . إذن فشعوره بعالمه وانتظام العلاقات الانسانية التى يسلم بها والتى يفترض أنها حقيقية وطبيعية تصبح فى المقدمة وامكانية شعور الإنسان بنظامه الاجتماعى يمكن اعتبارها ضرورة لسبب رئيسى وهو أن الانسان هو الذى خلق النظام الاجتماعى الذى يعيشه ، وهو بالتالى يعيش عالما اجتماعيا من صنع يديه . وهنا يكمن الاختلاف بين النظام الطبيعى والنظام الاجتماعى ، وإذا كان الناس يبنون نظمهم الاجتماعية ، فهم يبنون نظما شديدة التباين تحت الظروف والشروط المتباينة . لكن ما هو عالمى بالنسبة للانسان ، أنه يعيش نظاما اجتماعيا دائم التغير الا أن التنظيم الداخلى لهذا النظام ليس نمطا قدريا أو حتميا موجوداً فى طبيعة الانسان الموروثة . فقد عاش الانسان خلال عصور التاريخ المختلفة وفى أماكن عديدة من الكرة الأرضية بنى فيها مجتمعات عديدة بالغة الاختلاف .

ومع هذا يتضمن النظام الاجتماعى فكرة الثبات stability ولكن من الخطأ أن نعتقد أن هذا كل ما نعنيه كلمة النظام الاجتماعى لأننا بذلك نغفل الأساس الايديولوجى الذى يستند اليه والذى يؤكد ضرورة «النظام والقانون» كسبب للابقاء على نمط اجتماعى معين . ففى فترات كثيرة من التاريخ كان

الناس ينظرون إلى التحديات التاريخية لطرقهم فى الحياة كنوع من الاختيار بين النظام Order والتفكك Disorder ومعنى هـــذا أنهم كانوا ينظرون إلى طريقتهم الخاصة فى الحيـــاة على أنها مناظرة للنظام وأى طريقة أخرى تعنى التفكك ، الا أنه لوحظ دائما أن تقبل أى تهديد لنظام قديم يمكن أن يؤدى إلى تفككه كان دائما استجابة لظهور نظام جديد ، ومع ذلك فإن تغيير النظام الاجتماعى من شكل إلى آخر ليس أمرا سهلا ولا يتم الا بعد فترات طويلة جدا ، لأن الناس أقاموا وجودهم وبقاءهم الشخصى من خلال أنماط لها معنى تتخلل مضمون النظام الاجتماعى القائم ، ولهذا فإن ارتباطهم به يكون عميقا وتاما الأمر الذى يصعب معه عليهم التخلى عنه (1) .

وتقودنا دراسة النظم الاجتماعية إلى فهم أحد الميكانيزمات الأساسية التى عن طريقها يتوصل الانسان إلى « التناسق » فى السلوك الاجتماعى وتبدو أهمية هذا التناسق فى مجتمعات تتطور وتنمو وتتغير باستمرار ، اذ أن بدونه تصبح الحياة الاجتماعية نفسها مستحيلة ، ويفهم التناسق هنا على أنه نوع من الاضطراد والوحدة ينمو على مر الزمن ويميل فى نفس الوقت إلى « الدوام » فالتناسق والاضطراد والدوام هى من أهم العناصر التى تخلق الانساق والنظم الاجتماعيـــة .

وإذا كان التفاعل الاجتماعى رمزيا كما سبق ان اوضحنا فالنظام الاجتماعى أيضا رمزى كذلك لأنه يقوم أساسا على المعانى الرمزية التى خلقها أو ابتدعها الانسان . وهو من أجـــل ذلك ومن الناحية السوسيولوجية البحتة يعنى : تنظيم سلوك الفاعلين الواعين فى أنماط متماسكة لها معنى بالنسبة لهم ، وهو

1 - Mckee, op. cit pp. 71-73.

الأمر الذى يجعل الحياة الاجتماعية داخل مجتمع ما أمرا ممكنا وهو الذى وجه كذلك علم الاجتماع إلى طريقة البحث الملائمة فى السلوك الانسانى .

ومن ناحية أخرى فإن دراس النظام الاجتماعى لابد أن يهتم به من حيث البناء والوظيفة ومعنى هذا أن يهتم بما يلى :

١ — ترتيب الأجزاء وعلاقاتها أحدها بالآخر ، ذلك لأن الاجزاء هى التى عن طريقها يتم «السلوك» الذى يسير فى الحدود التى رسمها النظام، وينطابق مع القالب المعين .

٢ — العمليات الاضطرادية المرتبطة بهذه الترتيبات أو التنظيمات ، مثل مدى اتصال أو إسهام أجزاء المجتمع فى الكل ، وذلك اتفاقا مع الفكرة القائلة، بأن حسن فهم الجزء لابد أن يكون فى ضوء الكل ، وحسن فهم الكل لابد أن يكون فى ضوء الأجزاء المكونة له (١).

وعموما يمكن مناقشة مفهوم البناء « والوظيفة » بشكل مستقل ، كما يمكن مناقشتهما مجتمعين لارتباط كل منهما بالآخر ، فالوظيفة هى الدور الذى يلعبه البناء الفرعى فى البناء الاجتماعى الشامل (٢) ونظرا لأن النظام الاجتماعى عبارة عن مجموعة أفعال متبادلة يقوم بها الأفراد ، فإن بناءه يجب أن يتضمن درجة من الانتظام والتكرار لهذه الأفعال . ويمكن النظر إلى المشتركين فى النظام الاجتماعى كشاغلين للادوار . الا أن الأدوار فى حد ذاتها تكون

---

(١) عاطف غيث ، المرجع السابق ، ٤٥٣ — ٤٥٤

(٢) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ٥٧ .

أكثر ثباتا من شاغليها، ولهذا فإن من يشغلون الأدوار ينتظمون فى جماعات فرعية فى النسق الكبير ، وهى التى تدوم أكثر من أعضائها .

العلاقات المتبادلة بين النظم

يوجد فى كل مجتمع عـــدد كبير من النظم عن طريقها تستمر الحياة فيه ، والنظم الاجتماعية عديدة،الا أن أهمها : النظام الاقتصادى ، والنظام السياسى، والنظام الدينى ، والنظام العائلى والنظام التربوى ، وهناك عـــلاقات عديدة ومتشابكة تربط هذه النظم بعضها ببعض ، فكل نظام يكيف نفسه تبعا للنظم الأخرى ، إلا أنه يوجد اختلاف بين الثقافات المختلفة من حيث درجة انفصال أو اتصال النظم أحدها عن الآخر ، ففى المجتمعات البدائية يقوم نظام واحد (النظام العائلى) بكل وظائف النظم الأخرى بعكس الحال فى المجتمعات المتقدمة أو الحضرية حيث تستقل النظم الاجتماعية فى عملها .

والملاحظة الهامة فى العصر الحديث ،أن وظائف النظم أصبحت تنتقل من نظام لآخر ،فقد فقدت الأسرة مثلا بعض وظائفها فى الإنتاج والترفيه والأمن الخارجى ، وانتقلت هذه الوظائف المفقودة من الأسرة إلى الحكومة والصناعة ، كما يظهر الانتقال الوظائفى بوضوح فى الوظائف المتغيرة للقرية والمدينة ، كما أن الدولة تنتقل إليها بعض الوظـائف التى افتقدها النظم الأخرى نتيجة لزيادة عمليات التغير وتعدد عوامله .

ومن أجل فهم شامل للنظم الاجتماعية وإبراز جوانبهـا الهامة وخصوصا الجوانب البنائية الوظيفية فإن الجدول التالى يكون مفيدا .

الجوانب الوظيفية والبنائية للنظم الاجتماعية الكبرى

الوظيفة	النظام	الأدوار الرئيسية	السمات الفيزيائية	السمات الرمزية
إنجاب الأطفال وتربيتهم	الأسرى	الأب - الأم - الأبناء	المنزل - الأثاث	الخاتم - حفل الزواج - الرغبة
تقديم الغذاء والمسكن والملبس	الاقتصادى	صاحب العمل - الموظف أو العامل - المستهلك والمنتج	المصنع - المكتب - المخزن	الثقة - الشعار - العلامة التجارية
تنفيذ القوانين والقواعد والمستويات الموحدة	السياسى	الحاكم - المحكوم	الأعمال الشعبية - الأبنية العامة	العلم - القواعد الدستورية الترخيص
تنمية الاتجاهات التعاونية والاعتقاد والأمل والاحسان	الدينى	رجل الدين - التابع أو المؤمن	الجامع - الكنيسة	الهلال - القرآن - الكعبة الصليب - الإنجيل

1 - Lundberg and Others, Sociology, N.Y, 1938, p. 525.

العادات الجمعية والطرائق الشعبية والآداب العامة :

لا يمكن لأى من النظم السائدة فى أى مجتمع أن تنظم إلا إذا ارتكزت على مركب من العرف وأساليب السلوك . ولهذا يوجد فى كل مجتمع طرق تتفق عليها لتناول الطعام ، والتخاطب ، والإلتقاء فى المناسبات ، وطلب يد الفتيات للزواج ، وتربية الأطفال ، والعناية بالمسنين الخ . . وتسمى طرق السلوك التى يقرها الجميع ويتفقون عليها « بالعادات الجمعية » .

والناس يسيرون وفق عادات مجتمعهم دون وعى منهم فى معظم الأحيان ، ذلك لأن العادات جزء أصيل من حياتنا الجمعية ، وهى متأصلة فى ذواتنا ونفوسنا لدرجة أننا كثيرا ما نخطىء عند ما نتوهم أن العادات الجمعية السائدة فى مجتمعنا هى خير الوسائل على الإطلاق ، لأننا غالبا ما نكون متحيزين لثقافتنا فى مقابل الثقافات الأخرى .

إذن يتبع الناس عادات جمعية ، كما يخضع سلوكهم للقواعد التى تفرضها النظم السائدة ، وهذا ما يطلق عليه مصطلح « الطرق والآداب الشعبية » ويعرفها Sumner كما يلى :

« إنها تشبه نتائج القوى الطبيعية التى يستخدمها الناس دون وعى منهم ، أو هى تقابل مظاهر السلوك الغريزية عند الحيوان وتنمو مع التجربة ، وتبلغ أعلى درجاتها بتلاؤمها مع مصلحة مطلوبة ، وتنتقل من جيل إلى جيل دون شذوذ أو انحراف ، ومع ذلك فهى قابلة للتغير لتتفق مع الظروف الجديدة ، فى نطاق نفس الأساليب المحددة ، ودون تعقل أو بحث فى الأسباب التى تدعو

التغير . ومن هذا نستنتج أن حياة الناس جميعا فى جميع العصور ومراحل الثقافة المختلفة تسيطر عليها أولا وقبل كل شيء مجموعة من الطرائق أو الآداب الشعبية منذ القدم عن الأجناس الأولى ، متفقة فى ذلك مع طرائق السلوك العام عند أنواع الحيوان الأخرى، ولم يتغير فيهــا إلا ظاهرها نتيجة الفلسفة الإنسانية والأخلاق والديانات أو نتيجة لتفكير ممتاز »(١) .

ومن هذا يتبين أن الطرائق الشعبية هى كل ما هو مؤيد ومعقـــول من أساليب السلوك فى المجتمع ، وتشتمل على ما تواضع عليه الناس من آداب وتقاليد ، أو كل أساليب السلوك التى تكونت والتى لا تزال فى طريق التكوين عند الناس ليهتدوا بها فى حياتهم . إلا أنها تختلف بالطبع من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر ، فحرص الرجــال مثلا على ارتداء « رباط العنق » فى كثير من المجتمعات ما هو إلا أسلوب من أساليب السلوك العام المتعلقة بالتزين (٢) .

أما إذا نظرنا للطرائق الشعبية ، لا من حيث كونها معايير للسلوك ، وإنما كأدوات تنظيمية، فاننا نطلق عليها فى هذه الحالة مصطلح « آداب عامة » والأعراف Mores الإجتماعية وكل مظهر من مظاهر السلوك العام، هو بدرجة ما وسيلة الضبط الاجتماعى وحتى أبسط قواعد السلوك أو أتفه مظاهر التقاليد تصاحبها فكرة كونهـا السلوك الأمثل . ومن ثم لا ينبغى أن نظن أن الآداب

---

1 - Sumner W.G. and Keller A.G. 'The Science of Society' New Haven' 1927, p 20.

2 - Maciver R M and Charles H. page, society : An Introductory Analysis, Macmillan and Company Limited, 1964, p. 19

العامة شيء يختلف عن الطرائق الشعبية من حيث هي أدوات ضبط ، عن معايير الجماعة وإحساساتها هو ملائم وسليم (١)

وهناك وظائف هامة تؤديها الآداب العامة في الحياة الاجتماعية تجدر بنا الإشارة إليها :

١ — تحدد الآداب العامة كثيرا من سلوك الأفراد . فهي تقوم بمهمة الجهاز الآمر الناهي في المجتمعات الذي يضطر كل عضو في المجتمع أن يسير في الطريق المرسوم .

٢ — تعمل الآداب العامة على إدماج الفرد في المجموع، فاذا كانت تمارس الضغط على الفرد ، لكي يتمشى مع أساليب مجتمعة ، أو طبقته الاجتماعية ، أو نوعه سواء كان ذكرا أم أنثى ، فان الفرد من ناحية أخرى ، يكسب اندماجه مع أقرانه بالتماثل معهم ، الأمر الذي يبقى على هذه الروابط الاجتماعية التي التي تعتبر أساسية للمعيشة المرضية .

٣ — وأخيرا فإن الآداب العامة تعتبر الوسيلة الكبرى لحماية التضامن الاجتماعي. وهناك آداب عامة لكل جنس ولكل الأعمار ولكل الطبقات ولكل الجماعات من الأسرة حتى الدولة . ومعيار كل من هذه الوظائف هو الإبقاء على تماسك الجماعة ،ومن أجل هذا فإن كل جماعة تسعى إلى تماسك أكبر تحاول تقوية تأثير الآداب العامة على أعضائها .

ونظرا لتنوع الآداب العامة وتناقضها فيما بينها في المجتمعات المختلفة فإن قوتها تضعف في المجتمعات الكبيرة نظرا لتعدد الجماعات فيها . وعلى العكس من

1 — Ibid, p. 20.

ذلك تكون الآداب العامة أشد قهرا وأكثر تماسكا فى الجماعات المحلية الزراعية منها فى المدن الكبيرة . كما تصبح الآداب العامة أكثر تخصصا Specialized كلما تطور المجتمع . فهى تظهر كسلسلة من قواعـــد السلوك والعادات الجمعية والعادات المستحدثة والقوانين والقواعد الدينيـة والجمـــاعات الثقـافية الأخرى . وهذه العناصر المكونة للآداب العامة تجعل سيطرتها أكثر مرونة وأشد فعالية (1) .

1 — Ibid, p. 22.

الفصل الخامس

الثقـــافة والمجتمع

مقـــدمة :

إن وجود اللغة التى يتحدث من خلالها الإنسان ، والاستخدام الرمزى الذى يوجد فى التعبيرات اللغوية ، والفعل الذى يحدد المواقف المختلفة يؤكد أن الإنسان خلق شيئا يطلق عليه الدارسون مصطلح الثقافة Culture والثقافة نتاج إنسانى ، إذ ليس بمقدور أى كائن آخر أن يخلقها . ويرجع ذلك إلى طبيعـة الإنسان المتميزة من حيث قدرته على التعلم والتذكر وبالتالى قدرته على التحكم والسيطرة على البيئة المحيطة به .

وتتضمن ثقافة أى أمة من الأمم وجهة نظر كل فرد عن السلوك الفردى والعلاقات الاجتماعية ، وموقفه من الدولة ومن غيره من الناس ، واتجاهه الفكرى نحو الأسرة ، وواجبات الآباء نحو الابناء، وكذلك الابناء نحو الآباء، ومستويات الذوق، والأخلاق وما يختزنه الفرد من الحكم المأثورة التى يسوقها فى الأمثال ، ومايقدسه وما يظهره من ولاء ، ويشكل هـذا جميعـا كلا ثقافيا يصل إلى كل فرد فى المجتمع ، وكذلك عن طريق وسائل مقرونة أهمها عملية التنشئة الاجتماعية وكذلك عن طريق الآباء وكبار السن الذين ينقلونها للأجيال التالية عن طريق التلقين ، أو عن طريق الدين والمدارس والقراءة سواء كانت من الكتب أو الجرائد أو وسائل الإتصـال المختلفــة بالجماهير [1] .

---

1 - Wilson Wallis, The Nature of Culture, in Nordskog (ed.), Social Change, McGraw Hill Book Company, N.Y, 1960, p 81,

ويشير هذا الوصف إلى الثقافة غير المادية ، إلا أن الثقافة تتضمن فوق هذا أشياء ذات صفات مادية .ولعل أشهر تعريفات الثقافة ذلك الذى قدمة أدوارد تايلور على أنها .ذلك الكل المعقد الذى يحوى المعارف ، والمعتقدات، والفنون ، والأخلاق ، والقانون ، والعادات ، وكل مايكتسبه الإنسان كعضو فى المجتمع (١) . فالثقافة إذن أعلى بكثير من الفرد فهو ليس إلاحاملا أو ناقلا لها،وقد يستطيع الفرد أحيانا أن يعدل فيهاأو يضيف اليها ولكن يكون ذلك فى أضيق الحدود ، حيث لا يستطيع أن يبتكر نسبة كبيرة من مكونات الثقافة التى يشارك فيها (٢) .

ويرى علماء الاجتماع أنه لا توجد ثقافة محلية بحتة،فالثقافة الغربية مثلا تتألف من عنصرين : ثقافة محلية وخليط من ثقافات تمزج بين الجرمانية والرومانية وغيرها من الآثار الثقافية . ويلاحظ أن كثيرا من سمات الثقافة الغربية مستعار من البابلية والمصرية واليونانية والرومانية والفلسطينية والايرانية والصينية أو اليابانية أو ثقافة الهنود الأمريكيين . ومع ذلك فالمدنية الغربية ينبغى إعتبارها ثقافة تقوم فيها وحدة أساسية وتوازن كلى ، وإذا نظرنا إلى الثقافة المصرية لوجدناها أيضا مكونه من خليط من العناصر والسمات تراكمت عبر القرون نتيجة لظروف عديدة مربها المجتمع،فهى مزيج من الثقافة الفرعونية واليونانية والرومانية والاسلامية والتركية والفرنسية والانجليزية ،إلا أن هذه العناصر شكلت فى النهاية ثقافة مميزة ذات طابع خاص.

ومن أهم صفات الثقافة أنه يمكن حفظها ، وتتميز بتراكيبها فضلا عن أنها

1 - Edward Tylor., Primitive Culture, Vol. 1, p 1.

2 - Wallis, op. cit, p. 82

تتمتع إلى درجة ما بخاصتى الثبات والاستمرار ، ويرجع ذلك إلى أن الثقافة لم يخلقها فرد واحد أو جيل واحد وإنما هى نتاج لتراكم معرفة أجيال متتالية ، فكثير من عناصر الثقافة يرجع أحيانا إلى عصر ماقبل التاريخ (١) ، والثقافة أيضا نتاج التعلم لأن الآبناء يتبعون الطرق التى يستخدمها الآباء ، ونظرا لأن الناس يشعرون بالراحة فى عمل الأشياء بالطرق المألوفة فإن ثقافات العالم هى أنساق من العادات الجمعية . والاختلافات التى يمكن ملاحظتها بين الثقافات ترجع إلى طبيعة ومدى وعمق التعليم تحت ظروف جغرافية واجتماعية متباينة وتتعلم الثقافة على وجه الدقة خلال نفس العمليات التى تشتمل عليها جميع أشكال العادات مثل، الجوع ، والجنس ، والخوف ، ودوافع انسانيـــة أخرى تدفع الإنسان إلى العمل ، الذى قد يتعرض للنجاح أو الفشل ، ومن المعروف أن الإنسان عندما يواجه والألم أو التعب فانه يحاول أن يقوم بفعل آخر محل الفعل الذى سبب له المتاعب والآلام (٢) . ومن ناحية أخرى نجد أن النجاح يزيد من الاستجابة للموقف عندما يظهر نفس الدافع فى موقف مشابه وبتكرار هذا النجاح تصبح الاستجابات عادات . وهذا هو الذى يبرر القول بأن الثقافة تتكون من عادات يتقاسمها أفراد المجتمع سواء كانت قبائل بدائية أو مجتمعات متحضرة . ومن العادات المشتركة مايشمل المجتمع بأسره مثل عادات اللغة .

إذن نستطيع أن نقول إن الثقافة هى الوسيلة التى يتوافق بها الفرد مع بيئته ، وهى وسيلته فى البقاء ، أى أنها التكيف أو التوافق الذى يقوم به الإنسان

---

1 - John Biesanz and Others 'Modern society' Prentice Hall, N.Y. 1954, p. 47.

2 - Peter George Murdock., 'How Cultures Change' in shapiro (ed.), Man, Culture and society, Oxford University Press, N.Y 1956, pp. 247-249.

تجاه الظروف المتغيرة، لأنه يخترع دائما طرقا التكيف مع المتطلبات الضرورية للبيئة الطبيعية . وبمرور الوقت تتراكم معارفه وخبراته ويصبح أكثر مقدرة على تشكيل عالمه الاجتماعي المنبثق من تعامله مع الطبيعة، ويظهر نوع من التطور التدريجي البطيء نحو ثقافات أكثر تعقيدا . وهـــذا ما يطلق عليه مصطلح (التطور الاجتماعي) الذى يعتبر من الأفكار الرئيسية فى علم الاجتماع منذ بداية ظهوره .

خصائص الثقافة

تتميز الثقافة بطبيعة مرنة وقابلية للتراكم والتغير ، إن أى طفل طبيعى تكون لديه المقدرة لتعلم أى ثقافة وذلك خلال عملية التنشئة الاجتماعية. فالطفل يكتسب الاتجاهات والمعتقدات السائدة ،وأشكال السلوك التى تناسب الأدوار الاجتماعية التى يشغلها،وكذلك أنماط السلوك السائدة فى المجتمع الذى ولد به . ولأن الثقافة مكتسبة وليست محمولة بيولوجيا فإنها تسمى أحيانا « الميراث الاجتماعى للإنسان » ونظرا لمقدرة الإنسان الخاصة ومرونة عقله فإنه لايتعلم أو يكتسب الثقافة فقط،بل يضيف إليها أشكالا سلوكية مختلفة . وبالرغم من أن الثقافة والمجتمع يخرجان نتاجا متشابها إلا أنه ليس متطابقا ، فلا يوجـــد فردان يسلكان نفس السلوك ، حيث أن كل فرد فى المجتمع له شخصيته المستقلة. وهناك خصائص عديدة للثقافة تجعلها مصدرا ملهما لعدد كبير من التغيرات على مستوى الأنساق والعلاقات الاجتماعية وهى :

أ ـ الثقافة متغيرة .

إن جميع الثقافات تتغير باستمرار ولا توجد ثقافة ثابتة تماما ، ومن أهم المفهومات المرتبطة بالثقافة ، مفهوم التجديد باعتباره حصيلة لتراكم الثقافة

ونزوعها نحو الابتكار وخاصة فى مجالات السلوك أو العلم أو الفنون . هذا ويفهم التجديد أحيانا على أنه تغير أو اختلاف Variation ويستخدم هذا المصطلح عندما يحدث تعديل واضح لعادات السلوك التى كانت موجودة من قبل تحت ضغط الظروف التى تتغير بالتدريج ، ومن المعروف أن التغيرات تحدث فى جميع الثقافات وفى كل الأوقات .

وعندما يشتمل التجديد على تحول فى عناصر عادات السلوك من مضمون إلى آخر أو فى مكوناتها التى يصبح لها ترتيب مختلف، فإنه يسمى فى هذه الحالة إختراعا Invention ويتعين فى هذه الحالة أن ينطوى الاختراع على درجة من الخلق والابداع . ومعظم التجديدات التكنولوجية الهامة هى من هذا النوع . فاختراع مثل الطائرة يشتمل على تركيبات مستعاره من آلات أخرى مثل أجنحة المنزلق وموتور السيارة وتكييف معين لرفاص السفينة (١) .

وتظهر الاختراعات أيضا فى المجالات غير المادية من الثقافة مثل اختراع وسائل جديدة التعليم أووسائل لرعاية الأحداث والمسنين وتخطيط المدن . إذن فالاختراع يشتمل على تركيبات جديدة للعادات التى كانت موجودة من قبل أى أنه يعتمد على المحتوى الموجود للثقافة ويحدث فيه تجديدات وتغييرات بحيث تلائم الظروف الجديدة للمجتمع . فالمركب لا يمكنه الظهور إذا كانت العناصر التى يتكون منها غير موجودة أصلا فى الثقافة .

أما النمط الثالث للتجديد الذى لا يشبه النمطين السابقين ، لأنه يعتمد على مصادر خارجيـــة ، فهو الاستعارة الثقافية Cultural Borrowing حيث لايكون المخترع هو مبدع العادة الجديدة ، بل هو الذى مهد لدخولها إطار

---

1 - Murdock, Ibid, p. 253.

الثقافة ، والمخترع يواجه بموقف يجد فيه أن العادات المشتركة فى مجتمعه ليست مرضية تماما، وبالتالى يقتبس سلوكا ناجحا لاحظه عند أفراد مجتمع آخر بدلا من اللجوء إلى التغيير أو الاختراع لحل مشاكله . وعموما ، تعتبر الاستعارة الثقافية من أهم أشكال التجديدات وأعمقها أثراً لأنها تعتمد على الاتصال الثقافى أو الاحتكاك (١) ، وتحدث الاستعارة بسهولة أكثر فى المجتمعات التى تتشابه فى ثقافتها . فالعربى يستعير من العربى أو الشرقى بسهولة أكثر مما لو استعار من إنجليزى أو أمريكى أو روسى وذلك لتشابه اللغة وأشياء أخرى عديدة .

وفى كل ثقافة يوجد مخترعون ومكتشفون،وهؤلاء هم الذين يسهمون فى إحداث التغير ، ولا يكون التغير سريعا إذا اعتمد على براعة أفرادها فقط ، فالفرصة أمام التغير فى هذه الحالة تكون محدودة ، فتعقد الحضارة الحديثة يرجع فى جزء منه إلى نبوغ بعض أفراد المجتمع،ويرجع الجزء الأكبر إلى رغبة الأفراد الآخرين فى المجتمع فى تبنى الطرق التى يستخدمها غيرهم والاستفادة منها .

ب ـ الثقافة مشتركة

يعرف علماء الاجتماع الثقافة على أنها مشتركة Shared وعامة بين جماعة من الناس ، وهى لذلك ليست ظاهرة فردية . وهذا التأكيد على فكرة عمومية الثقافة يؤدى إلى تعريف الجماعة الإنسانية من خلال مشاركتها فى ثقافة معينة . وهنا تكمن مشكلة ترجع جذورها إلى اختلافات تاريخية بين تحليلات الأنثروبولوجيين وتحليلات الاجتماعيين . فالأنثروبولوجيون درسوا الثقافة من خلال المجتمعات البدائية والريفية . والثقافة فى رأيهم « طريقة حياة

1 -Ibid, p. 255-257.

مجموعة من الناس ، كما ينظرون اليهما ككل يتميز بالتنظيم والتماسك ، ولذلك فإن أجزاء الثقافة تتلاءم مع بعضها فى شكل متسق بالضرورة .

أما المشاركة فى الثقافة من وجهة النظر السوسيولوجية فهى تعنى شيئاً آخر . فأبحاث علماء الاجتماع لم تتجه دائما نحو تحليل مجتمع بأكمله (لتعذر هذا فى كثير من الأحيان لاتساع المجتمعات وتعقدها) وخاصة أنهم يركزون على المجتمعات الصناعية الحديثة ، وبالرغم من أنهم يوافقون مبدئيا على المفهوم الأنثروبولوجى للثقافة باعتبارها « كلا » متكاملا ، الا أن معظم دراساتهم تركز على بعض العناصر الثقافية دون غيرها ، مثل المعايير والقيم والمعتقدات السياسية المشتركة فى بعض الجماعات العقائدية أو الطبقات الاجتماعيـــة فى المجتمع الكبير . فالناس يتفاعلون عاطفيا مع ثقافتهم ، وليسوا محايدين فى اتجاهاتهم نحو عناصرها ، وهذا يبدو جليا فى تصنيف مظاهر الحياة إلى جيد وسيء ، مرغوب وغير مرغوب ، حق وباطل . فالنسق القيمى يعطى الثبات للثقافة ويبرر لنا أفعالنا وأفكارنا ، والقيمة الإجتماعية تساعدنا فى تفسير كيفية عمل أو سلوك الناس بطريقة معينة، بينما لا يسلك غيرهم بنفس الطريقة ، ولذلك يهتم علماء الإجتماع بدراسة الثقافة الفرعية Subculture لتعريف النسق المميز من المعتقدات والقيم التى تساعد على تكامل وتوافق مجموعة معينة من الناس ، كما أنهم يستخدمون مفهوم الثقافة الفرعيـــة عندما تكون المعتقدات والقيم فى حالة عـــدم استقرار أو فى صراع مع قيم جديدة مستحدثة فى المجتمع، وهو ما أطلق عليه ميلتون ينجر Milton yinger مصطلح الثقافـــة المضادة Contraculture (1) .

1 - Milton Yinger, 'Contraculture and subculture' American sociological Review 25 (October, 1960) pp. 625-635.

هـ - الثقافة ككل

وهناك خاصية أخرى تتميز بها الثقافة ، هي انها « كل وظيفى متكامل » فالعادات والتقاليد لم تتجمع تجمعا عرضيا ، بل هناك تشابه بين الثقافة والكائن العضوى لأن كل جزء منها يرتبط بطريقة أو بأخرى ببقية الأجزاء . ولهذا فإن كل نظام يعكس قيم الثقافة ككل فى نهـــاية الأمر . والقول بأن الثقافة تشكل وجودا منطقيا ووظيفيا متكاملا لا يعنى أن أجزاءها تتفاعل فى انسجام تام وبدون ضغوط ، فقد يحدث هـذا فى المجتمعات ثابتة البناء التى تكون موضوع دراسة الأنثروبولوجيا ، أما بالنسبة لعلماء الإجتماع فإن الثقافـة فى رأيهم تتغير وتتغير أجزاؤها فى اتجاهات مختلفة ، ونتيجة لذلك يصبح التكامل والانسجام أمرا مستحيلا (٢) . فوجود ثقافة متكاملة فى المجتمعات الصناعية الكبيرة لا يمكن أن يتحقق فى الواقع ، حيث توجد أعداد لا نهائية من العناصر الثقافية ، ولذلك فإن معظم إهتمام علماء الإجتماع لا يتركز بصفة مبدئية على تحديد الخطوط العريضة للثقافة الكلية ، لأن هذا يزيد من تعقيد المسألة . فعلم الإجتماع كما أشرنا من قبل ظهر مصاحبا لظهور تأثيرات التصنيع على المجتمع الإنسانى التى أدت إلى عدد من التغيرات العميقة وما صاحبها من تمزق وتفكك مما أصبح محورا لاهتمام علماء الإجتماع . وقد أصبح تكامل المجتمع (والثقافة على وجه الخصوص) مشكلة ، وسؤال فى حاجة إلى إجابة وليس مقدمة منطقية عن الحقيقة المعاصرة يمكن التسليم بها جدلا

فمفهوم الثقافة ككل متكامل يمكن أن يكون له دلالة بالنسبة لهؤلاء الذين

---

1 . George M. Foster, 'Traditional Cultures and the Impact of Technological change' N.Y, 1962, pp 16-17.

يستخدمون مفهوم الثقافة الفرعية، حيث أنهم غالباً ما يحاولون إيجاد نمط متكامل من المعتقدات والقيم التي تظهر بوضوح في سلوك جماعة إجتماعية معينة، ولكن ليس في المجتمع ككل فالمشتغلون بعلم الإجتماع يدرسون موضوعات معينة ومحددة مثل السجون أو التنظيمات الحربية أو التعليم العالي أو يلاحظون العصابات ومدمني المخدرات والهيبز واللصوص المحترفين باعتبار أن هؤلاء يتميزون بنمط متكامل من القيم والمعتقدات، يميزهم عن الجماعات الأخرى ويشكل تفسيرا متنوعاً للتجربة الإنسانية.

وبعض علماء الإجتماع يدرسون الثقافات الفرعية الأقل انحرافا، فهم يفعلون نفس الشيء عندما يتحدثون عن «أسلوب الحياة» Life - style وهو مصطلح مواز لمصطلح الثقافة الفرعيـة . وهكذا فإن «أسلوب حياة الضواحي» يشير إلى طريقة معيشة مجموعة معينة من الناس يسكنون الضواحي المزدحمة بالسكان وتكون مقار أعمالهم في المدينة، كما يشير المصطلح إلى نمط القيم والمعتقدات المشتركة التي تظهر في أنماط سلوكية عامة وبالتالي يتحقق نوع من الاتساق المنطقي بين الاعتقاد والسلوك.

ومع ذلك، فقد عالج كثير من علماء الاجتماع الثقافة ككل متكامل وخاصة عند استعاروا المصطلح الذي صكه عـالم الأنثروبولوجيا جلوكهون (١) Kluckhohn الذي تحدث عن الثقافة باعتبارها «مخططا من أجل الحياة» Design for Living حين يقول: «إن الثقافة هي نسق خلاق تاريخيا من

---

1 - Clyde Kluckhohn and W.H. Kelly, 'The Concept of Culture' in Ralph Linton, ed., The science of Man in the World Crisis (New York : Columbia University Press, 1945), pp. 78-107.

خلال مخططات ظاهرة وباطنة من أجل الحياة ، ومن خصائصها أنها تميل إلى أن تكون مشتركة بين أعضاء الجماعة عند فترة معينة من الزمان » . إن مثل هذا المنظور يبدو أنه ينظر إلى الثقافة باعتبارها نمطا انبثق تاريخيا ليوجه السلوك لمن يشتركون فى الانتماء اليها ، ولهذا لا يمكن أن يكون معادلا لما يسمى بالسلوك الفعلى ، وإنما يمكن أن ينظر اليه على أنه نموذج للسلوك المثالى أو على أنه بناء من التوقعات التى اكتسبت نوعا من القداسة أو الإحترام بمرور الزمن .

د ـ الثقافة المادية واللامادية :

إن ما تحدثنا عنه حتى الآن فى موضوع الثقافة يتصل بالنواحى اللامادية Nonmaterial فيها مثل القيم والعرف والعادات والتقاليد... الخ . ولكن الثقافة لها جانب آخر هام ولا يقل أهمية عن الجانب الأول ، وهو الجانب المادى فيها Material فالتكنولوجيا وكل ما صنعته يد الإنسان يعتبر جزءا من الثقافة ، ويشير المصطلح إلى الأدوات ، والأبنية ، والمراكب ، والعربات ، والأجهزة الألكترونية وسلسلة لا نهاية لها من الاختراعات والاكتشافات التى تظهر بصورة مستمرة ، إلا أن أكثر الآراء حداثة ، ترى أن هذه الأشياء ليست متضمنة لمفهوم الثقافة فى ذاتها ، ومع ذلك فتعريف difinition هذه الأشياء (معرفة كيفية صنعها ، واستخدامها ، والقيمة التى نعول عليها) متضمن . فخاتم الخطبة على سبيل المثال هو شىء مصنوع ، الا أنه يكون ذا معنى معين للارتباط بين الزوجين . فهو رمز متجسد فى شكل ملموس ، لعلاقة إنسانية خاصة . « فالثقافة » تكمن فى المعنى الرمزى للاشياء وليس فى الأشياء ذاتها [1] .

1- McKee. op cit, p. 81.

العمليات الثقافية

الثقافة كأن ينمو و يتحرك ويتطور ، وهى فى ذلك تتبع مما يقرب من طبيعة النمو الحيوية ، بمعنى أن الخلايا التى تتجدد فى تكوينها تفوق الخلايا التى تتحطم أثناء هذه العملية . وهناك أسلوبان تاريخيان تجرى فيها الثقافة لتحقيق غايتها وهما : النمو الثقافى Cultural Growth والتغير الثقافى Culturl Change

أ - النمو الثقافى هو حركة تنشأ من داخل الثقافة ذاتها تتجه نحو التغير التدريجى ، ذلك أن كل جيل يضيف إلى ما ورثه من الثقافة ، وتسمى هذه العملية ، التراكم الثقافى accumulation وهى تقوم بدور هام فى عملية التغير الثقافى ، ذلك أن تراكم العناصر الثقافية وكثرتها فى مجتمع من المجتمعات من العوامل التى تسرع بايقاع التغير وتزيد من حركته . وهناك ظاهرة أخرى متصلة بالتراكم هى الاستمرار Continuity وعملية الإستمرار نفسها عملية تصفية وتنقية وتأليف ، فالعناصر الثقافية المتراكمة تعمل وتستمر فى صور كثيرة طالما استمرت الوظيفة التى تؤديها فى المجتمع ، فعنصر ثقافى معين قد تتغير وظيفته وقد تتغير صورته ويصبح جزءا من ظاهرة أخرى ، كما هى الحال فى الاختراعات . وفى خلال عملية الإستمرار قد تتحول بعض الظواهر الثقافية التى تفقد وظيفتها أو التى ورثتها ظواهر أخرى ، تتحول فى صورة أخرى ، فإن بعض صور السلوك الدينى والأخلاقى مثلا تتحول إلى الفولكلور الشعبى أو فى صور أساطير وأمثال . وكذلك السيف ما زال يحتفظ بشرفه بعد أن ورثت وظيفته أسلحة أخرى فما يزال رمزا للقوة والنبل (١) .

1 — Ralph Linton, 'The tree of Culture' Alfred Knophe, N.Y 1956. p. 45.

ولعل ظاهرة الإنتشار Diffusion من المفاهيم التى قامت بنصيب كبير في علم الثقافة ، فهى تتعلق بالحركة الخارجية الثقافة ، وقد ثبت أن أكثر التغيرات تفد إلى الثقافة من الخارج . ولهذا فإن المناطق الجبلية والجزر المنعزلة ذات حظ قليل من التغير الثقافى (١) . وظاهرة الانتشار تختلف عن العمليات السابقة، ذلك أن خصائص الثقافة كالنمو والتراكم والاستمرار تمثل « الإنتاج » ، أما الانتشار فيمثل « التوزيع » ، وقد أصبحت الثقافة الصناعية الحالية تنطوى انطواء عضويا على الإنتشار الذاتى ، وذلك بما ابتكرته من وسائل الاتصال المختلفة التى اختزلت عوائق الزمان والمكان التقليدية .

وموضوع الإنتشار الثقافى يحتم مناقشة موضوعين آخرين هما : موقف الثقافات الأخرى ، وكيف تستقبل العنصر الجديد ، اتقبله أو ترفضه ، وما هى الصور التى تدخل بها الظاهرة الجديدة إلى المجتمعات الأخرى ؟ أتكون عن طريق القهر ؟ أم التقليد ؟ أم الإعارة ؟ أم تكون عن طريق الاقناع والقدوة ؟ والموضوع الثانى يدور حول وسائل الانتشار نفسها ، فقد كانت الهجرات والحروب من أهم الوسائل المعروفة تاريخيا ، أما الآن فقد تغير الموقف وأصبح الإنسان المعاصر ينتقل من مكان إلى آخر كما ينتقل الوهم ، ويحدث شىء فى أقصى الأرض وما يلبث أن يكون خبرا ، يعرفه الناس فى كل مكان ، حتى لقد أصبح هناك تزامن حدثى ، فالكلمة تقال ، والفعل يحدث فى قارة يسمعها الناس ويرونه فى قارة أخرى فى نفس الوقت ، وبينهما المكان البعيد والزمان الطويل (٢) .

---

1 — Ogburn and Nimkoff, 'Handbook of Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 2nd ed., 1950. pp 817-825.

٢ — محى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٦٢ ، ٨٤ — ٨٥ .

ب - التغير الثقافى

نظراً لأن النمو يكون عن طريق العناصر المحلية فإن المنطق الداخلى للثقافة يقبل النمو ، بل يفرضه ، بينما ينشأ الصراع حين يقع التغير ، فالتغير ثورة على الشكل والمضمون الثقافيين ، تصحبه وتعقبه بصفة منتظمة هزات فى المجتمع . والتحولات الثقافية الكبرى كانت نتائج لعمليات التغير الثقافى بوجهيها الإيجابى والسلبى : الإيجابى الذى يتمثل فيما يقوم من صــورة مادية للنموذج الثقافى الجديد ، والسلبى فيما ينشأ عن هــذه العملية من ظاهرة التخلف الثقافى Cultural Lag التى تترسب فيها بعض العــلاقات وبعض صور السلوك القديمة ، وتعجز عن مسايرة الوضع الجديد ، وما يتطلبه من خبرات أو مواقف .

المعيار الاجتماعى .

إن النظام الإجتماعى الذى يشارك فيه الناس ويحافظون عليه هو فى نفس الوقت نظام أخلاقى ، فالحياة الاجتماعية لاتصبح ممكنة دون حد أدنى من الاتفاق النسبى على المقاييس الأخلاقية التى تحدد ما يتعين على الفرد أن يفعله فى موقف معين . فالإنسان الذى يعيش بمفرده فى الصحــراء هو فقط الذى يستطيع أن يتصرف بحرية مطلقة ، ولكن مـا دام الإنسان يعيش وجــودا جمعيا ، فإن حياته الاجتماعية تحكمها القوانين الأخلاقية للمجتمع ، وكل سلوك اجتماعى يكون موجها معياريا ، فقواعد السلوك هى التى تحدد ما يجب أو يتعين أن يكون عليه السلوك فى موقف اجتماعى معين ، ولذلك تعتبر المعايير Norms عناصر لها أهمية كبيرة فى الثقافة .

وقد تختلف المعايير بوضوح من حيث أهميتها بالنسبة للجماعــة التى

تعتنقها أو تعتقد فيها ، وعموما ، فإن المعايير هى تلك المستويات التى ينظر إليها الناس باعتبارها موازية أو مساوية لسعادة ورفاهية الجماعة . وفى هذه الحالة يكون انتهاك هذه المعايير مسألة تستوجب توقيع العقاب الفورى . وخاصة إذا كانت انتهاكات تهدد حياة أو أملاك أو الفرص الاجتماعية للأفـــراد .

وحياة أى جماعة تبنى على تصورات معينة للحقوق والواجبات والالتزامات والامتيازات وهذه التصورات يكون لها دلالتها الأخلاقية بين أعضاء الجماعة. وفى أى تحليل سوسيولوجى لحياة الجماعة لا يمكن تجاهل العنصر المعيارى فى السلوك الإنسانى . والمعايير هى قواعد منتظمة ومضبوطة توجد كتوقعات أخلاقية مشتركة للسلوك ، والنظام الإجتماعى هو نظام أخلاقى بالضرورة ، وعندما تخضع هذة المقاييس الأخلاقية للتسجيل والتشريع فإنه من الضرورى أن تقوم إلى جانبها عقـــوبات معينة توقع على من ينتهكها وتقام الهيئات الاجتماعية التى تتولى تنفيذها ، وهذه القواعد المكتوبة تشكل القانون Law . وهذا القانون فى الواقع هو جسم المعايير النظاميـــة Institutionalized

وتظهر المعايير الإجتماعية من خلال عمليات التفاعل الاجتماعى التى تخلق النظام الاجتماعى وتصبح جزءا مكملا ومتمما لهذا النظام . وهى كالسلوك ذاته تكون موضوعا للتعديل ، وتخضع للتغير عند تعرضها لمواقف ومشاكل جديدة تكتسبها الجماعة تدريجيا . والدليل على ذلك أن بعض المعايير المقدسة بالنسبة للجماعة تكون عرضة أيضا للتغير مثلما يحدث لجميع أجزاء الحياة

الثقافة والفرد

إن ما تقدمه الثقافة للانسان ، متعدد الجوانب عميق الأهمية ، فهى تكيف الفرد ككنوع بيولوجى مع البيئة التى يعيش عليها . وتقدم له الطرق الممهدة التى يمكنه أن يسير عليها فى توافقه مع البيئـــة الطبيعية ، ومع أقرانه ، ومع احتياجاته الفسيولوجية والطبيعية . كذلك تعمل الثقافة من ناحية أخرى عـلى ضمان وحدة الجماعة واستمرار وجـودها ، ويمكن أن نلخص ما تقدمه الثقافة للفرد فيما يلى :

١ — تعطى الثقافة الفرد ، القدرة عـلى التصرف فى أى موقف ، كما تهيئ له أساس التفكير والشعور . فمنذ المولد يتعلم الطفـل أساليب الثقافة التى تعيشها أسرته ومدرسته والجماعة التى ينتمى اليها . وإذا حدث أن إحتج الطفل على أسلوب أو طريقة بعينها ويسأل لمـاذا ؟ تكـون الإجابة ، إن الأمر هـو كذلك .

٢ — تزود الثقافة الفرد بما يشبع حاجاته البيولوجية . فليس عليه أن يبدأ من نقطة الصفر ليضمن المناخ المـلائم ، أو ليشبع جوعه أو ليطفىء ظمـأه ، وليس عليه أن يتلمس طريق اشباع رغباته الجنسية أو حاجته إلى الراحة . ذلك لأن كل الطرق التى تنظم هذه الوظائف وتصبها فى قوالب محـددة معروفة من قبل ، ويواجهها الإنسان بالتدريج فى مراحل نمـوه المختلفة ، كما تعلم الثقافة الفرد أين ومتى يشبع حاجاته هـذه . ومثال ذلك ، يتعـلم الفرد طريقة الأكل وطريقة التبول والتبرز ، ويتعرف عـلى الأصول التى يجب اتباعها فى مخاطبة الغير وفى ارتداء الملابس ، بل أن الثقافة تعلم الفرد طرق المغـازلة والتقرب الجنسى (١) .

(١) عاطف غيث ، علم الاجتماع ، ٢٩٩—٣٠٠ .

٣ — إن الثقافة لا تقتصر على تزويد الفرد بطرق إشباع حاجاته ، بل إنها تخلق حاجات جـــديدة ، فرغبة الناس فى التدخين مثلا ، قد تكون فى بعض الأحيان أقوى من حاجاتهم للطعام والشراب . كما أن حاجة الفـرد ورغبته فى النجاح والثروة ، قد تكون فى بعض الثقافات أقوى من رغبته الجنسية .

٤ ـ يجد الفرد فى الثقافة التفسيرات المقنعة عن أصل الانسان وطبيعة العالم ودور الإنسان فى الحيـاة . وقد تكون هذه التفسيرات من نوع خرافى أو قد تكون قائمة على أساس علمى . وفى كلا الحـــالين تجيب الثقافة عـلى تساؤلات الفرد بطريقة أو بغيرها . ومثال ذلك أن تساؤل الطفل عن سبب الرعد والبرق قد يجاب عليه بطريقتين ، أولها أن أسرته تحاول أن تفهم هـذا الطفل أن الظاهرة الطبيعية مصدرها غضب من الله ، وقد تجيب أسرة أخـــرى إجابة علمية ، فتحاول أن تفهم الطفل بعض مبادىء الطبيعة كالضغط الجوى وسبب الشرارة الكهربائية .

٥ ـ تحدد الثقافة المواقف وتعرفها لأعضائها ، فتزودهم بمعانى الأشياء والأحداث ولهذا يستمد الفـــرد من الثقافة مفهوماته الأساسية وتحديداته لما هو طبيعى وغير طبيعى ، ومنطقى وغير منطقى ، وعادى وشاذ ، وأخلاقى ولا أخلاقى ، وجميل وقبيح ، ومهم وقليل الأهمية ، وخير وشر . وبمعنى آخر ، تعطى الثقافة معنى الحياة وهدفا للوجود ، فتزود لأجل ذلك الفرد بالقيم والأهداف والآمال .

٦ ـ الضمير نتاج للثقافة ، مقدمة للفرد ، ولهذا كان الضمير شيئاً يكتسبه الفرد ، وإذا كانت له عمومية فى كل الثقافات ، وقد يبدو الضمير مع ذلك على أنه « نداء داخلى » الا أنه فى واقع الأمر منبثق من الاجماع الذى انعقد فى

الجماعة الانسانية المعينة على ما هو خطأ أو صواب . ذلك أن استبطان قيم الجماعة ومستوياتها يؤدى فى العادة إلى امتزاجهما فى شخصية الانسان الأمر الذى يؤدى إلى شعور الفرد بالذنب إذا اجترأ على هذه القيم أو المستويات .

٧ — الثقافة المشتركة تعطى الانسان شعورا بالانتماء ، ذلك لأنها تربط الناس معا فى جماعة يشعرون بالاندماج فيها . ويظهر هذا جليا عندما يتقابل شخصان من ثقافتين مختلفتين ، فيحس كل منهما بمدى التصاقه بثقافته .

٨ — تعمل الثقافة على أن تكيف الشخص مع مكانه فى المجتمع ، لأن كل ثقافة تشتمل على وسائل لتدريب الناس للقيام بأدوارهم ولقبول أوضاعهم فى الجماعة . ولذلك كانت الثقافة تربة خصيبة للشخصية .

٩ — الثقافة المركبة أو الغنية تضع أمام الفرد احتمالات كثيرة ، فقد يجد نفسه مضطرا لمواجهة عدد من الصعوبات ، وقد يجد أمامه أيضا عددا كبيرا من الفرص . ومن أجل هذا يقال أن شخصية الفرد فى الثقافة البسيطة تكون أكثر وضوحا من شخصية الفرد فى الثقافة المعقدة (١) .

١٠ — يواجه الفرد فى الثقافة المركبة احتمالات تفكك الشخصية فى بعض الأحيان أكثر من احتمالات التكامل ولهذا تكثر الأمراض النفسية نتيجة تعرض الفرد لضغوط كثيرة ولتعدد الجماعات التى ينتمى اليها والتى تحتاج كل منها إلى تكيف من نوع معين قد يفشل فيه .

وخلاصة القول أنه يمكن النظر إلى الثقافة (كبنك الذاكرة المجتمعية) تخزن

---

(١) المرجع السابق ٣٠١-٣٠٢

فيه المعرفة . ويصلح دائما وفى أى وقت لارشاد الأفراد والجماعات فى المواقف التى يجدون فيها أنفسهم : فالثقافة تمدهم بالمعلومات التى تجعلهم قادرين على فهم وتوقع سلوك الآخرين والاستجابة لهم . إن وظيفة الثقافة كما بينا هى تسهيل العلاقات الانسانية وجعلها أكثر وضوحا ، ولكن الناس لا يتساوون فى مدى تقبلهم لأى تغير ثقافى يطرأ على نظمهم الاجتماعية أو قيمهم وبالتالى فإن عملية « القبول الاجتماعى » من أهم العمليات التى تواجه نجاح أو فشل التغير الاجتماعى . فسواء كان التجديد أصيلا ونابعا من المجتمع أو مستعارا من مجتمع آخر فإن المخترع أو المجدد هو الذى يبدأ باستخدامه فى مجتمعه ، فالتجديد إذن يبدأ باعتباره عادة فردية وليس عنصرا ثقافيا ، ولكى يصبح كذلك يجب أن يلقى استحسان وقبول الآخرين[1] . ويسمى « القبول الاجتماعى » داخليا أو « رأسيا » وذلك لتمييزه عن الاستعارة الثقافية التى يطلق عليها انتشارا « خارجيا » أو « أفقيا » وهناك عامل آخر يجب ألا نغفل أهميته فى القبول الاجتماعى وهو « مكانة » المجدد أو الجماعة التى صاغته فى بادىء الأمر . فالتغيرات التى يقودها القادة السياسيون أو الدينيون يتبعها الناس بسرعة لأن المجدد المغمور غالبا ما لا يتبعه أحد لعدم معرفة الناس به أو عدم ثقتهم فيه .

وكما توجد ملامح عامة لجميع الثقافات، فهناك احتياجات أساسية ورغبات عامة عند جميع الناس وفى جميع المجتمعات والتى يجب أن يحسب حسابها فى جميع الثقافات أما الطرق الخاصة التى عن طريقها ترضى هذه الثقافات تلك الحاجات فهى متفاوتة للغاية ، ولكن الحاجات هى نفسها وذلك مثل : العناية

1 — Murdock, op. cit. pp. 257 - 258.

بالأطفال وتنشئتهم الاجتماعية (وتقابل هذه الحاجة فى جميع المجتمعات ببعض أنماط الجماعة الأسرية المنظمة) وحاجة الفرد إلى مكانة معروفة فى مجتمعه ، وإرضاء الحاجات الاقتصادية والرغبات فى أشياء مثل : الطعـــام والمأوى والملبس ، وكذلك ضرورة وجود حكومة للمحافظة على النظام ولتسهيل عمل الجماعة ، وكذلك التعبير الفنى من خلال الشعر والموسيقى والأغانى والرقص والرسم ، والحاجة أيضا إلى وسائل الحرب ، ووسائل الاتصال المختلفة وأهمها اللغـة (1) .

التفاعل والثقافة :

إذا كان التفاعـل الاجتماعى رمزيا فإن الناس يتفاعلون فى مضمون ثقافى لأن الرموز التى تتوسط تفاعلهم هى فى الحقيقة عناصر ثقافية ، وتعبر الرموز عن القيم والمعانى التى تكون مشتركة بين الجميع ، كما أنهـا فى نفس الوقت توجه عمليات التفاعل نحـو الأهداف الثقافية المرغوبة ، وإذن فالتفاعل الاجتماعى يتم من خـلال مضمون ينطوى على المعـانى الثقافية . فالناس يتصلون بعضهم ببعض عند تفاعلهم من خـلال اللغة فيتعرفون على بعضهم وفقا للمواقف التى يتفاعلون فيها ويعبرون عن القيم والمعتقدات ويقومون بالأفعال التى تعبر عن المفهومات المشتركة بينهم ، ومن ناحية أخـــرى فإنه لا يمكن إدراك التفاعل الاجتماعى كمسألة سوسيولوجية بدون الثقافـــة ، أى أنه لا يمكن تحليلها سوسيولوجيا إذا جردت من المعانى والمعايير التى يشترك فيها الفاعلون (الناس) فى نفس عملية التفاعل ، وقد يعنى ذلك بصورة أخرى أننا نستطيع أن نؤكد

---

1 —Elgin Hunt, 'Social Science' Macmillan Company, New-York 1955, p. 36.

الفكرة القائلة بأن الناس عندما يتفاعلون فإنهم يفعلون ذلك فى مواقف محددة ثقافيا فى الوقت الذى تقوم فيه على قاعـــدة من المعانى والمعايير التى تقود سلوكهم فى المواقف التفاعلية ، ولهذا يقال إن التفاعل يستمر ويتم دائما لإبراز العناصر الثقافية ذلك لأن الثقافة تسبق دائما أى نوع من أنواع التفاعل ، ونفهم ذلك بنفس الطريقة التى نفهم بها وجود المجتمع سابق على وجود أى فرد .

إلا أن نفس الثقافة هى فى حد ذاتها نتيجة لتفاعلات سابقة تاريخيا ولهذا فإنها تخضع لتأثير التفاعلات الجديدة ، ومعنى ذلك أن الثقافة إذا كانت تتدخل فى تشكيل التفاعل الاجتماعى ، فان التفاعل بدوره يترك بصماته على الثقافة ، لأن كل تفاعل يعبر عن تجربة مشتركة بين المشاركين فيه وهم يستمدون من التفاعل بعض المعانى التى تبقى بعد أن ينتهى الموقف التفاعلى ، ومثل هـــذه الخبرة يمكن أن تقوى القيم والمعانى التى كانت موجودة عندما بدأ التفاعل، إلا أن الخبرة لا تمنح الثقافة القائمة التأكيد أو القوة لأنها يمكن أن تمد لها أو أن تتسبب فى وجـود عنصر ثقافى جديد أو اتجاه أو قيمة أو معنى جديد كذلك إذن يمكن أن يؤدى التفاعل إلى تغير فى الثقافة بنفس الدرجة الذى يمكن أن يحافظ عليها .

إن التفاعل والثقافة من هذا المنطلق يعتبران مفهومين جوهريين فى المنظور السوسيولوجى لأنها يعبران عن فكـرة هامة وهى أن الانسان يخلق حياته الاجتماعية عن طريق تفاعلاته مع الآخرين فى الوقت الذى يوجه نفسه لعالمه ووجوده الانسانى من خلال مجموعة مشتركة من المعانى والقيم التى تكون هى نفسها محصلة تفاعلات إنسانية ماضية . ولهـذا يعتقد كثير من علماء الاجتماع أن الحياة الاجتماعية إذا كانت قد بنيت على أساس الخبرة التى استمدت من التفاعل السابق مع الآخرين فانها تتعدل بصفة مستمرة من خلال الخبرة الدائمة

التى نحصل عليها عن طريق التفاعل الاجتماعى . ويشير هذا المنظور إلى ان الحياة الاجتماعية هى فى حالة من التغير المستمر وهذا فهم يترتب عليه القول بأن النظام الاجتماعى نسبى وليس مطلقا ، وهذا يعنى من ناحية أخرى أن النظام الاجتماعى لا ينفى التغير . فاذا كان من مهام عالم الاجتماع أن يبحث عن النظام فى الحياة الاجتماعية ، وإذا كان من مهامه أيضا أن ينظر إلى أنماط أكثر ثباتا فى التفاعل فانه يكون قد إدعى أن هناك بعض المظاهر البنائية الدائمة إلى جانب العمليات المتكررة فى التفاعل الاجتماعى . إلا أن هذا لا يمنع وجود إدعاء يتمشى مع الإدعاء السابق مؤداه أن النظام الذى يمكن اكتشافه يمكن أن يوجد خلف التغير والتعديل الذى يبدو أمام أعيننا ، ومع أنه من الضرورى والمنطقى أن نؤكد على مسالة النظام الا أنه من الضرورى أيضا وبشكل متساو أن نتذكر أن تلك مسألة من فعل العقل الانسانى أو أنها شكل معرفى لتوجيه النظر نحو الظواهر القابلة للملاحظة وهذا يعنى أننا بصدد تجريد ذهنى يهدف الى تحليل أكثر عمقا وشمولا . اننا اذا استطعنا أن نقوم بذلك أمكننا أن نتجنب ذلك الخطأ الشائع المتضمن فى التحليل السوسيولوجى عندما نتحدث عن النظام منفصلا عن التغير وأن نعطى وزنا أكثر من اللازم للثبات الذى يمكن أن نلحظه فى الحياة الاجتماعية .

الفصل السادس

الفرد فى المجتمع

مقـــدمة

تعتبر دراسة الشخصية الإنسانية من الموضوعات الرئيسيه المجتمع ، وعلى الرغم من انتمائها الشديد إلى موضوعات علم النفس إلا أنه من الصعب إقامة نظرية عن المجتمع دون الرجوع إلى النظريات النفسية بشكل أو بآخر . فتصور الطبيعة الإنسانية وعلاقة الفرد بالمجتمع تعتبر من المطالب الضرورية لأى عمـل سوسيولوجى وقد حاول علماء الإجتماع تفسير الافتراضات السيكولوجية المندرجة تحت مفهوم المجتمع والتفاعل الاجتماعى وأيضا الافتراضات المختلفة حول الطبيعة الانسانية والفرد ونود أن نشير هنا إلى وجهـــة نظر تقليدية بالنسبة لهذا الموضوع قدمها كل من جون لوك John Locke وجان جاك روسو Jean-Jaques Rousseau وتوماس هوبز Thomas Hobbes تعبر عن تصورهم لعلاقة الفرد بالمجتمع الذى يعرف بنظرية العقد الاجتماعى Social Contract ، وتشير هذه النظرية بوجه عام إلى أن الإنسان ولد حرا ولكنه سعى إلى وضع الضوابط والقيود فى المجتمع ليضمن عمومية الرعاية الاجتماعية وتظهر اختلافات أصحاب هذه النظرية حين يؤكد روسو أن طبيعة الإنسان ذات منزلة رفيعة ولكنها مقيدة بالمجتمع بينما يرى هوبز أنها وحشية وأنانية .

إن البحث فى أصل المجتمع الإنسانى لم يكن الاهتمام الأول لأصحاب نظرية العقد الاجتماعى لأن اهتمامهم فى حقيقة الأمر كان منصبا على أصل أو مصدر الروابط الاجتماعية التى تربط الناس بعضهم ببعض فى المجتمع . ومثل هذا

الموضوع كما هو معروف شغل اهتمام علماء الإجتماع فى القرن التاسع عشر . وينسب إلى هوبز أنه أول من صاغ المسألة بشكلها المحدد ، أو كما عبر عن ذلك تالكوت بارسونز T. Parsons (١) بقوله «المشكلة التى أبرزها هوبز عن النظام» وذلك عن طريق تأكيده أن أفعال الناس تنبعث من رغباتهم وعواطفهم وهـــذه بدورها مختلفة ومستقلة وليست عامة ، وعلى ذلك فإن الإنسان الفرد يمكن أن يكون عائقا لغيره فى سعيه الناجح من أجل التوصل إلى الأهداف التى تقوده اليها رغباته وعواطفه . والصراع الذى يترتب على ذلك لا يمكن أن يتجنب ما قاله هوبز فى عبارته الشهيرة «حرب كل انسان ضد كل إنسان» (٢) لهذا يصبح وجود المجتمع الانسانى ضرورة وهو أمر لا بد أن يخلقه الناس من أجل صب اهتماماتهم الفردية فى وعاء من المصلحة المشتركة التى يمكن أن تجنب الصراع المدمر الهدام . والمجتمع من هـذه الزاوية عند هوبز ميكانزم ضرورى لتنظيم وكبح جماح الوحشية الطبيعيـــة والسلوك الأنانى للانسان .

إلا أن المشكلة التى أثارها هوبز لم تعد بالنسبة لعلماء الاجتماع المعاصرين مشكلة على الاطلاق ، حيث لا يوجد عندهم انفصال بين الفرد والمجتمع لأنهم يرون أن الطبيعة الانسانية تتشكل وتتطور من خـلال المجتمـع ، ذلك لأن الانسان يصبح إنسانا واجتماعيا من خـلال مشاركته فى المجتمع فقط ، كما أنه يتمتع بطبيعة مرنة تمكنه من مسايرة أومواجهة المشاكل التى تعترضه فى مجتمعه

---

1 — Talcott parsons, 'The Stucture of Social Action, N.Y : McGraw - Hill, 1937 pp 89 - 94

2 — Thomas Hobbs, 'Leviathan', Oxford, England : james Thorneton, 1831 p. 95.

فالانسان يعيش داخل المجتمع وليس خارجه ، وهناك ارتباط وثيق بينهما فكما أن الانسان هو الذى يخلق المجتمع، فالمجتمع أيضا هو الذى يصنع الانسان. ورغم هذا فهناك بعض الصفـــات الانسانية ليست مستمدة من المجتمع ولكنها تتأثر بالتجربة الاجتماعيـة إلى حـــد ما . ويرى سيجموند فرويد Sigmund Freud [١] أن الانسان مزود بامكانيات غريزية متعددة من بينها قدر بارز من العدوانية كتلك التى تظهر عند استغلال الانسان لغيره من بنى الانسـان أو كما قال « الانسان ذئب لأخيه الإنسان» وهنا نلاحظ أنه فى السنوات الأخيرة ظهرت كتابات جديدة تحاول أن تؤكد العدوانية الموجودة فى الانسـان بطبيعته . وقد كان دينس رونج Dennis Wrong [٢] من بين علماء الاجتماع الذين يؤكدون أن علم الاجتماع الحديث يحـاول أن يعرض وجهة نظر أكثر من اجتماعية للانسان وأكثر من تكاملية المجتمع .

ويمكن النظر للضغوط الاجتماعية باعتبارها «ضبطا ذاتيا» ينتج عنها درجة عالية من الامتثال Conformity فكل إنسان يتلقى تنشئة معينة ولـكن هـذا لا يعنى أن الجميع تشكلوا بنفس المعايير والقيم القائمة فى ثقافتهم وقد ابتعد علماء الاجتماع عن التصورات السابقة للطبيعة الإنسانية القائمة على المصطلحات البيولوجية، وذلك بإقامة صور للانسان ، اجتماعية تماما ، متجاهلين الجسم وأيضا الجنس والدوافع والاهتمامات المادية ، فهناك درجة معينه من الاتفاق

---

1 — Sigmund Freud, 'Civilization and Its Discontents, N. Y: Norton, 1961, p.58.

2 — Dennis Wrong, 'The Oversocialized Conception of Man in Modern Sociology'. American Sociolcgical Review, 26 (April 1961), pp. 183-193.

بين الفرد والمجتمع إلى جانب درجة معينة من الصراع أيضا ، و«الفعل المعيارى المضاد » Contra-normative action لا يكمن فى الدوافع البيولوجية للانسان وإنما فى العلاقة المركبة بين الانسان والمجتمع ومعاييره (١)

الشخصية الانسانية :

الشخصية الانسانية هى نتاج التفاعل الاجتماعى ، ومكوناتها تقوم على أسس ثقافية واجتماعية ولهذا فإن دراسة الشخصية لاتكتمل دون دراسة المجتمع والثقافة معا ، لأن المجتمع هو المكان الذى يتم فيه التفاعل . والثقافة هى التى تصب هذا التفاعل فى قوالب معينة ، وتقدم للفرد أنماط السلوك المناسبة للموقف وكذلك القيم والمعايير التى يحسن بها التفاعل ويحقق أغراضه . وعلى الرغم من أن الفرد يولد دون أن يحمل أى سمة من سمات الشخصية ، إلا أنه يكون مزودا باستعدادات معينة تعينه على اكتساب هذه السمات . وتظهر أهمية هذه الاستعدادات فى حالة حدوث خلل أو نقص بها ، ففى هذه الحالة يتعثر الفرد ويعجز عن اكتساب الثقافة ولو بشكل جزئى ، ولايتم تفاعله مع الآخرين بصورة مرضية ، ومن ثم تظهر عليه علامات هامة يوصف معها بأوصاف متعددة تكون محل اهتمام الطب وعلم النفس والتحليل النفسى .

ويفترض علماء الاجتماع تماثل هذه الاستعدادات عند جميع الناس فيما عدا الحالات الشاذة ، ومادام الأمر كذلك فهى « عامل دائم » لايدخل فى نطاق التحليل السوسيولوجى للشخصية ، وينحصر الاهتمام فى العوامل الحقيقية

---

1 — Judith Blake and Kingsley Davis 'Norms, Values and Sanctions in Robert E.L. Faris. ed., Handbook of Modern Sociology, shokie ,1964.

التى تشكل الشخصية ، وهى عوامل ثقافية واجتماعية فى المحل الأول . كما أن كثيرا من الآراء والأفكار المتعلقة بتكامل الشخصية يمكن أن تغفل المسائل المتعلقة بالوراثة البيولوجيـــة . وتركز على حسن اكتساب الفرد لمقومات الشخصية ومكوناتها وكذلك المرونة والتوافق والتكيف الذى يتصف بهما الشخص المتكامل فى مواجهة الظروف المختلفة التى تترتب على تعدد انتمائه لجماعات مختلفة البناء والوظيفة فى الحياة الاجتماعية ، ومع ذلك فمن المناسب استكمالا لفهم الشخصية من حيث مكوناتها الأساسية أن ندرس بصورة عامة الأسس البيولوجية للفرد مثل « المقومات الوراثية » التى تتضمن المزاج والدوافع المتعلقة بالحواس الخ .. وعموما فالميراث البيولوجى له أهمية من حيث أنه يشكل الأساس الذى تركز عليه الشخصية ، كما أنه يصنع حدودا للنمو المحتمل ، وقد سبق أن تكلمنا عن الوراثة والبيئة فى الفصل الأول ، وليس هناك شك فى أهمية هذه العوامل عند دراسة الشخصية ، إلا أننا يجب ألا ننظر اليهما باعتبارهما العوامل الوحيدة فى نموها . وهناك عامل آخر له أهمية خاصة فى تكوين الشخصية الانسانية و هو « الذكاء » ، وعندما نتكلم عن الذكاء النظرى فأننا نعنى القدرة على سرعة خلق الأفكار والكلمات والمعانى والرموز وتحصيلها . وكذلك القدره على التفكير والتعقل وهذه المقدرة تكون وراثية إلى حد كبير ، أما « الذكاء الاجتماعى » أو القدرة على التعامل مع الناس فهو من غير شك يكون نتيجة للخبرة البيئية ، والذكاء الحركى أو الآلى هو القدرة على استخدام الأشياء التى يمكن تناولها واستخدامها استخداما فعالا . ويضع الذكاء الحدود للقدرة على التعلم وهى الحدود التى تكون منخفضة جـــدا عند ضعاف العقول .

---

(١) عاطف غيث ، المرجع السابق ، ٣١٥ — ٣١٦.

إذن تكون العوامل الوراثية مهمة إذا نظرنا اليها باعتبارها لقاعدة التى تنمو عليها المؤثرات الثقافية والاجتماعية. وإذاكانت هذه المؤثرات تصل إلى الأفراد بطريقة تكاد أن تكون متشابهة ، فإن اختلاف الأفراد بعد ذلك يمكن تفسيره إلى حد ما فى ضوء الاستعدادات التى جاءت نتيجة هذه الوراثة ، ، يمكن أن يقال مثل هذا عن الذكاء ، فإذا كانت الخبرة التى يتعرض لها فردان متشابهة ومع ذلك يختلفان فى مدى تفاعلها واستفادتها منها ، فإن هذا الاختلاف الفردى يمكن رده بطريقة ما إلى أسباب يتعلق بالمخ والجهاز العصبى . ويميل عدد من الباحثين فى موضوع الشخصية إلى القول بأن الدراسات المستمرة حول الغدد الصماء وأثرها فى السلوك الشخصى يمكن أن تعطينا تفسيرا مقنعا للاختلافات التى نلاحظها فى حياتنا اليومية والتى تظهر على الأفراد عند الاستجابة لمواقف اجتماعية أو ثقافية متشابهة .

والشخصية المتكاملة هى التى لايظهر عليها تناقض أو صراع أوعدم اتساق. وتكامل الشخصية مسألة درجة لايمكن أن يتحقق فى الواقع بصورة كاملة ، وذلك لأن درجة عالية نسبيا من التكامل توجه إذا كان الشخص يقوم بأدوار محددة تحديدا واضحا ويعتنق اتجاهات ملائمة وينتمى لجماعات متلائمة من حيث ثقافاتها وقيمها . وقد أصبح تكامل الشخصية فى المجتمعات الحديثة المعقدة مشكلة على الفرد أن يحاول حلها بقدر الإمكان (١) .

التنشئة الاجتماعية

إن وجود أى مجتمع يعتمد على وجود الناس الذين يشتركون فى الثقافة ويعرفون كيف يلعبون الأدوار أو بمعنى آخر يعملون على استمرار المجتمع ،

---

(١) نفس المرجع السابق ٣٢٤ - ٣٢٥

فالمجتمع يوجد فقط فى عقول أعضائه ، الذين يعرفون ماذا يفترض أن يعمل الناس . ومن الذى يعمل ، ومن الذى يعتقد فى أهمية هذا الفعل . ولكن نظرا لأن الإنسان يكون عرضة للموت باستمرار ، وحياة المجتمع تتجاوز دائما حياة الأفراد بل والأجيال ، فإن استمرار المجتمع فى البقاء يحتم حصوله المستمر على أعضاء جدد ولذلك فهو يعمل على تحويل المادة الانسانية الخام فى الأطفال حديثى الولادة إلى أعضاء كاملى العضويه فى المجتمع (فالانسان يولد عاجزا عن معرفة أو فعل أى شىء ، كما أنه يكون ضعيفا الغاية ، ويعتمد على الآخرين اعتمادا كليا ولفترة طويلة كى يتعلم وينمو ، فكل شىء يعرفه الفرد أو يفعله يجب أولا أن يتعلمه .)

وإذا كان المجتمع فى حاجة مستمرة إلى أعضاء جدد فإن الأفراد بالتالى يحتاجون إلى مجتمع منظم . فالصفات الانسانية والاجتماعية الانسان لا تولد معه ولكنها تنمو خلال الوقت عندما يشارك الاخرين تجارب الحياة فى المجتمع فالطفل يعيش بالآخرين ويموت بغيرهم ، وفى الحالات النادرة التى استطاع أن يعيش فيها الانسان دون أى اتصال انسانى (الطفل الوحش) ظهرت عليه دلائل عدم تعرضه لعمليات التنشئة الاجتماعية socialization وقد اختبر كينجزلى ديفيز Kingsley Davis [1] حالتين من هذا النوع فوجدهما لا تستطيعان الكلام واحداهما لا تستطيع المشى ، وليس لديها عقل Mind بالمعنى المتعارف عليها ، وكان ديفيز يعتقد فى البداية أنهما ضعيفتى العقل الا أنهما أحرزتا تقدما ملحوظا فى التعلم . ومن هاتين الحالتين يتبين لنا أن الكائن الإنسانى يتطلب

---

1 - Kingsley Davis, 'Human Society' (New - YorK : Macmillan, 1949), pp. 204-208.

تفاعلا واتصالا بالآخرين ليصبح آدميا .

من هذا المثال يتضح لنا أن الفرد يكتسب Acquires طبيعته الإنسانية، والعملية التى يكتسب بها هـــذه الطبيعة تسمى « التنشئة الإجتماعية » فالفـرد والمجتمع ليسا شيئين مختلفين ، بل إنهما يوجدان فى نفس العملية الاجتماعية .

أما كيف يصبح الطفل اجتماعيا فهذه عملية معقدة للغاية . فالطفل حديث الولادة يتلقى الحب والرعاية من والديه الذين يعاملانه كشخص له قيمة عالية، وهم يرعونه ويستجيبون لصرخاته ويشتركون معه فى تفاعل حميم منذ اللحظة الأولى لمولده وهو أيضا يستجيب لهم قدر استطاعته ، وبالتدريج يتعـــلم ، ويكتسب المهارات ، ويفهم المعانى العامة للاشياء فى بيئته واستخداماتها المختلفة ، كما يتعـلم التمييز بين الأفـراد والاستجابة لهم والاتصال بهم ، حيث يعتبر الاتصال مطلبا أوليا فى عملية التنشئة الاجتماعية ، وهكذا يدخل العضو الجديد فى عالم الرموز المعقد للانسان ،يتعلم وبالتالى يشارك فى الثقافة . واللغة، هى الوسيلة التى عن طريقها يتصل الطفل بالآخرين ، ولذلك فإن التعـلم المبكر للغة يتيح للانسان الجديد فرصة التعبير عن رغباته والمشاركة فى تفاعلات اجتماعية أكثر تعقيدا يكتسب من خـلالها السمات الاجتماعية . والطفل فى بداية الأمر لا يميز بين الأشخاص ، وقد ينادى أمه باسم أبيه ، كما أن الآخـرين يكونون بالنسبة له مجرد أشياء تتحرك أمامه ، وبينما هو يشعر بالآخرين فهو لايشعـر بذاته . ومفهوم الذات أو النفس Self يستمد معناه من العملية التى يصبح بها الفرد شاعرا ومستجيبا لذاته كما يستجيب للاخرين ، ولكن لـكى يصبح قادرا على الاستجابة لذاته وعلى تقييمها واثباتها يجب أن يكون أولا قادرا على النظر اليها من الخارج (أى أن يكون شيئا بالنسبة لذاته) وهذه المقدرة عـلى النظر إلى ذواتنا من الخارج تنمو من خـلال التفاعل الاجتماعى فقط مما يمكننا من

أن ننظر إلى ذواتنا من وجهة نظر الآخرين . وقد أكد كولى Cooley أننا جميعا نمر بعملية «كيف نبدو فى عيون الآخرين» معتمدين فى ذلك على أحكامهم علينا واستجاباتهم لنا (١) وهذه العملية عن تصور الذات كما نراها منعكسة فى الآخرين اسماها كولى «مرآة الذات Loking Glass Self» (٢) وقد صيغ هذا المفهوم فى عام ١٩٠٢ وكان من أول المجهودات لفهم نمو وتطور الذات كنتيجة التفاعل الإجتماعى .

شروط التنشئة الاجتماعية

يؤكد كل من الكين Elkin وها ندل Handel على ضرورة وجود ثلاثة شروط أساسية للتوصل إلى تنشئة اجتماعية ملائمة أو صحيحة (٣) :

وينطوى الشرط الأول على أن الطفل حديث الولادة يدخل مجتمعا موجودا بالفعل Existing Society له قواعده ومعاييره وقيمه واتجاهاته، وبه بناءات إجتماعية عديدة منتظمة ومنمطة ، ومع ذلك تتعرض للتغـير باستمرار ، ولا يكون الطفل الوليد غير المهيء إجتماعيا أى علم بهذه العمليات أو البناءات أو التغيرات، وتكون وظيفة أنماط التفكير والشعور والعمل فى مثل هـذا المجتمع تحديد الوسائل التى يجب أن يمر فيها القادم الجديد New Comer.

---

1 - Charles Horton Cooley, 'Human Nature and the Social Order (N.Y : scribner, 1902) p. 236

2 - Ibid, pp. 183-184.

3 - Frederick Elkin and Gerald Handel, 'The Child and Society; The process of socialization' N.Y: Random House, 1972, p. 9.

ومن المعروف أن هذه الوسائل والطرق هى التى تشكل عملية (أو عمل) التنشئة الإجتماعية .

أما الشرط الثانى للتنشئة الإجتماعية ، فهو « الميراث البيولوجى » Biological Inheritance الذى يسمح لعمليات التعلم بالحدوث . ذلك أن العقل والجهاز الهضمى والقلب النابض كلها متطلبات أساسية وضرورية من أجل التنشئة الإجتماعية ، وبالرغم من أهمية هذه المتطلبات وحيويتها إلا أنها غير كافية ، لأن هناك عوامل معينة مثل إصابة العقل أو المخ أو الصمم ، وكذلك الطول الشديد أو القصر الشديد ، أو شكل الأنف والذقن ، ومجموعة كبيرة من الشروط الجسمانية قد تعوق أو تؤثر فى عمليات التفاعل والتنشئة الاجتماعية . ويجب أن يكون واضحا أنه على الرغم من أهمية الميراث البيولوجى فى عمليات التعلم وضرورته ، الا أنه لايشكل جانبا جوهريا فى عملية التنشئة الاجتماعية المتكاملة ، ذلك لأنه من المعروف أن هناك إحتياجات معينة مثل الشراب والنوم تكون أساسية من أجل البقاء ، ويمكن اشباعها بطرق مختلفة ، كما أن المزاج والذكاء بيولوجى فى أساسه الا أن نموهما وتطورهما وإتجاههما يتأثران إلى حد كبير بالمجتمع الذى يولد فيه الطفل .

ويتمثل الشرط الثالث للتنشئة الاجتماعية فيما يسمى « الطبيعة الانسانية » Human Nature . وهى هنا تشير إلى عوامل معينة وعالمية بين البشر . أى أنها تميز البشر فى حالة مقارنتهم بالحيوانات الأخرى . ويؤكد علماء الإجتماع وخاصة أصحاب مدخل التفاعل الرمزى أن الطبيعة الإنسانية تتضمن المقدرة على القيام بدور الآخرين وكذلك المقدرة على الشعور مثلهم ، أو عموما المقدرة على التعامل بالرموز Symbolic وهذا يعنى إعطاء المعنى للافكار المجردة ؛

ومعرفة الكلمات ، والأصوات، والايماءات ، فالغمز بالعين مثلا ،والمصافحة باليد ، والإيماء بالرأس ، كل هذه أشياء يكون لها معنى تبعا لمقدرة الفرد على فهم ما ترمز إليه . وبصفه عامه نستطيع أن نقول أن هـــذه الأشياء طبيعية ، وينفرد بها البشر دون غيرهم من المخلوقات .

مؤسسات التنشئة الاجتماعية

تحدث التنشئة الإجتماعية فى كل المجتمعات سواء كانت بدائية أو تقليدية أو حديثة ، وتعتبر المؤسسات التى تتولى هـــذه العملية جزءا أساسيا فى البناء الإجتماعى لكل المجتمعات . والأسرة Family كوحدة تعتبر أول مؤسسات التنشئة الإجتماعية وأهمها . وبالرغم من إختلاف بناء الأسرة من مجتمع لآخر، فهناك إتفاق عام على أنها تحمل مسئولية رعاية وتغذية الصغار . ولا ينتهى دور الأسرة عند تلبية إحتياجات الطفل الجسمانية والغذائية فقط بل يمتد إلى مسئولية تعليمه السلوك الأخلاقى وتدريبه على المهارات المختلفة ، كما تقوم بضبط سلوك الصغير ليصبح ممتثلا لسلطة المجتمع.

ومع ذلك فتلبية إحتياجات الانسان الجديد وممارسة أنواع الضبط عليه ليست كافية حيث يكون للمناخ الذى تحدث فيه هـذه العمليات أهمية كبرى . ويمكن إعتبار الأسرة أكثر الجماعات الأولية Primary Groups أهمية لأنها المسؤولة فى المراحل الأولى عن تنشئه الإنسان الجديد . ويعتبر مصطلح الجماعة الأولية من اسهامات كولى أيضا ، وقد طـــور الفكرة من ملاحظاته لسلوك أطفاله فى المواقف الأسرية المختلفة (١) . وقد عرف الجمـــاعة الأولية بأنها

1- Charles Horton Cooley, 'Social Organization (N.Y , scribner, 1909).

، الجماعة الصغيرة ذات العلاقات الحميمة اليومية والتى تتميز بالمواجهة بحيث يصبح للقادم الصغير أهمية كبرى عند الآخرين ، كما يصبح محبوبا ومرغوبا ، ومن خلال هذه الجماعة ينمو الحب والتعاطف وتتكون الاتجاهات الأخلاقية التى يتصف بها فيما بعد الانسان الناضج . وترجع أهمية الجماعة الأولية فى عملية التنشئة الاجتماعية إلى أنه من خلالها تظهر الطبيعة الانسانية إلى الوجود . ونعنى بالطبيعة الانسانية هنا تلك العواطف والأحاسيس والدوافع التى تفرق الانسان عن الحيوان والتى تميز عالميا النوع الانسانى ، وباختصار الجماعة الأولية هى مهد الأخلاقيات والمثل العليا الانسانية.

وليست الأسرة هى الجماعة الأولية الوحيدة التى تمارس تاثيراتها على الفرد فإلى جانبها تقوم جماعات النظراء Peer Groups التى تكمل أو تتم عمل الأسرة مثل جماعات اللعب أو الأقارب أو الجيران أو زملاء الدراسة ، وفى هذه الحالة تحل سلطه الجماعه (غير الشخصية) محل السلطة الشخصية للوالدين فى التفاعل داخل الجماعة . ويكون لهذه الجماعات أهميتها فى تجربة الطفل الاجتماعية حيث يتعلم كيفية التفاعل بنجاح مع الآخرين ،وكيف يحصل لنفسه على مكانة مناسبة فى دائرة الأصدقاء .

وهناك فرق هام بين نوعى التنشئة لكل من الأسرة وجماعة النظراء ، وهو أن تنشئة الأسرة تعد الطفل للمشاركة فى المجتمع وفى أجزائه المختلفة (مثل الطبقة الاجتماعية والجماعات العقائدية) التى تحتل الأسرة مكانة معينة فيها . أما جماعة النظراء فهى تتدرج مع الطفل بمرور الوقت حيث تربى أو تنشىء الطفل أولا فى عالم الطفولة ثم تنتقل به إلى عالم الشباب إلى جانب ما تتضمنه من قيم ووجهات نظر متباينة تبعا لتغيرات السن وتدرجه .

ونود أن نشير هنا إلى موضوع هام وهو أن التنشئة الاجتماعية ليست علاقة أحادية الجانب بين الفرد والمجتمع ، بل هى علاقة متبادلة بينهما تبرز الضغوط الناجمة عن المواقف البنائية المتفاعلة مع الوعى القائم لدى الفرد . وفى الوقت الذى لا يمكن فيه ترجمة لغة التفاعل فى اصطلاحات احصائية كما هو الحال فى النموذج الاستاتيكى الاحادى الجانب ، فإن لغة التفاعل هذه تمثل الواقع وتعرضه بدون تشويه كثير ، وقد أوضح بياجيه Piaget أسلوب صياغة ودراسة مثل هذه العلاقات من خلال بحوثه عن دورات حياة تطور الطفل ، وهى بحوث تقع على الخط المشترك بين علم النفس وعلم الاجتماع ، أهتم فيه بدراسة مكونات الوعى ، حيث أشار إلى أن الخبرة الجديدة (A_1) تتمثل Assimilated مع الوعى (X) الموجود لدى الفرد ، ومن ثم تنضم إلى هذا الوعى ، ونتيجة لوجود معيار خارجى تحرف هذه الخبرة فتصبح (A_1) غير أن الوعى يتوافق بنفسه مع هذه الخبرة ويتأثر بها فيصبح (X_1) وقد تتفاعل خبرة أخرى (B) مع (X_1) فتصبح الخبرة (B_1) ويصبح الوعى (X_2) وهكذا . وعندما نضع فى أعتبارنا أن الخبرات قد تختلف كل منها فى أهميتها ، فقد يكون تعديل (X_2) أكبر من (X_1) مثلا ، عند ئذ يمكننا تصور مدى تعقد عملية التفاعل هذه [1] . ويتيح هذا المدخل إمكانية التعامل مع الظواهر والعمليات المعقدة ، والتناقضات ، والنزعات الفردية التى تظهرها الكائنات البشرية . حيث أن تفسير كثير من الظواهر عن طريق التنشئة الاجتماعية فقط يؤدى إلى عدم تقدير إمكانات الأفراد فى الظروف البنائية الملائمة تقديرا صحيحا .

---

1 - Piaget, J., 'The Origin of Intelligence in the Child, London, Routledge and Kegan Paul, 1956.

التنشئة الاجتماعية للكبار

كان هناك اعتقاد راسخ إلى وقت قريب بأن التنشئة الاجتماعية تقتصر على السنوات الأولى من عمر الانسان (الخمس سنوات الأولى) لأنه فى هذه السن يتكون بناء الشخصية وتحدد صفاتها فى شكل محدد لا يتغير بمرور الوقت . ولكن الدراسات الحديثة فى علم الاجتماع ترى أن التنشئة الاجتماعية هى عملية مستمرة لا تنقطع ، بل أكثر من ذلك أنها تعتبر عمليات التنشئة الاجتماعية خلال سنوات النضج مطلبا أساسيا فى المجتمعات الحديثة المتغيرة وهذا على خلاف ما هو قائم فى المجتمعات التقليدية التى تزود فيها الأنماط المبكرة للتنشئة الاجتماعية الفرد بالمهارات والاتجاهات التى تساعده طوال حياته على المشاركة بنجاح فى مجتمعه . فإذا طبقنا هذا القول على المجتمعات الحديثة نجد أنه من الصعب أن يتحقق ، لأن موقف الفرد فيها يتغير تبعا للظروف وبالتالى لا تكون للتنشئة الأولى قيمة كبرى إذ فالمشاركة المستمرة فى مواقف جديدة تتطلب إعادة تنشئة مستمرة يقوم بها الفرد بنفسه ولنفسه حتى يتمكن من مقابلة المتطلبات الجديدة للتفاعل . وفى هذه الحالة تصبح التنشئة الاجتماعية للراشدين فى أهمية التنشئة الاجتماعية للصغار ، ومثال ذلك أن الفـــرد يستنتج ويستنبط المعايير والقيم منذ الطفولة حتى الرابعة عشرة ثم عند الزواج فى حوالى العشرين حتى يصبح والدا فى الرابعة والعشرين مثلا ، ثم ينتقل إلى وظيفة جديدة فى الثلاثين ثم يصبح جدا فى الخمسين وأخيرا يحال إلى المعاش . إن ما نقصده بعرض هذه المراحل هو أن الفرد يحتاج إلى عمليات تنشئة اجتماعية مستمرة تبعا للمواقف الجديدة التى يتعرض لها طوال حياته ، ومعنى ذلك أن عمليات التفاعل ليس لها نهاية ، مما يترتب عليه ألا تكتمل التنشئة الاجتماعية على الاطلاق ولا تبقى

الشخصية ثابتة أبداً(١) فالفرد إذن يستوعب دوما اتجاهات جديدة نحو الناس ونحو العمل ، كما يتعلم مجموعة كبيرة من التعريفات عن علاقة كل فـــرد بالآخر فى مجال العمل ، ومن هنا يكتسب صورة جديدة عن نفسه (شخصية مهنية Occupational Personality وأيديولوجية مهنية) من خلالها يستطيع استيعاب وفهم العالم المحيط به . يضاف الى ذلك أن التنقل الاجتماعى يؤكد الحاجة الى التنشئة الاجتماعية المستمرة فى المجتمع الحديث . وهناك أيضا ظروف أخرى غير ذلك فى الحياة الحديثة تستدعى هذا . بل إن وجود فوارق عمرية فى المجتمع تخلق اختلافات ثقافية شديدة . وتغيراً فى أساليب الحياة ، مما يستدعى ضـــرورة التنشئة الاجتماعية للراشدين للحصول بنجاح على أدوار جديدة وأنماط السلوك . فأن يصبح الفرد جدا أو يحال إلى المعاش فهذا موقف جديد لا بد أن يهيىء الفرد نفسه له . كما أن الزوجين اللذين يكبر أبناؤهم ويتزوجون ويغادرون المنزل يعيشون مرحلة « العش الخاوى » Empty Nest ويواجهون موقفا جديدا يجب أن يتهيئوا له (٢) .

إلا أن التنشئة الاجتماعية للكبار تكون أكثر يسراً من تنشئة الأطفال حيث تكون لديهم عادة دوافع للتعلم والعمل من أجل تحقيق هدف معين ، كما يكون الدور الجديد الذى يحاولون استدماجه ، مشابهـا الى درجة ما للأدوار التى استدمجوها من قبل ، ومـــع ذلك فإن عملية التنشئة الاجتماعية للراشدين قد تكون صعبة ومعقدة . ويظهر ذلك بوجه خاص عندما تتميز المهارات التى يراد تعلمها بالتعقيد ، أو تتميز مسئوليات الدور الجديد بالصعوبة والتعدد .

---

(١) سناء الخولى ، المرجع السابق ، ٢٩ ـ ٣٠ .

(2) Mckee. op. cit. p 101

الضبط الاجتماعى

سبق أن عرفنا التنشئة الاجتماعية وتوصلنا إلى أنها العملية التى تشكل الفرد منذ مراحل الطفولة المبكرة وتعده للحياة الاجتماعية المقبلة التى سيتعامل فيها مع آخرين من غير أسرته ، ولذلك فإن وظيفتها أن تعلم الطفل قيم المجتمع ومعاييره الأساسية التى سيشترك فيها مع غيره عندما ينضج ، والتى سوف تجعله متشابها فى خطوط شخصيته الأساسية مع أعضاء مجتمعه ، إلا أنه لا يوجد مجتمع يقوم كلية على عملية التنشئة الاجتماعية ، فإلى جانبها يوجد العرف والقوانين ، التى تستعين بوسائل عديدة لدعمها بما فى ذلك توقيع العقوبات على المنحرفين ، الأمر الذى أدى إلى قيام هيئات ومؤسسات تتحمل هذه المسئوليات .

ويتعرض الناس عادة للتوتر نتيجة أوضاعهم فى البناء الاجتماعى ، ولهذا فإنهم قد ينحرفون عن المعايير وهنا يصبح الضبط الاجتماعى Social Control ضرورة ، وهو يشير إلى كل الترتيبات الاجتماعية التى تمنع مثل هذه التوترات أو تمنع هذه التوترات من أن تؤدى إلى الانحراف . ويحظى موضوع الضبط الاجتماعى باهتمام معظم علماء الاجتماع ، لأن استيعاب مفهومه يضعنا عند محاولة تفسيرة فى بؤرة علم الاجتماع أو فى صميم مشكلته الأولى الدائمة ، وهى العلاقة بين النظام الاجتماعى والفرد ، أو العلاقة بين الوحدة والمجموع .

ومن أجل فهم أفضل لعمليات الضبط الاجتماعى فإننا نعرض فى إيجاز لمجموعة من الحقائق الإجتماعية التى تعتبر شروطا أساسية لفهمه :

---

٢ ـ عاطف غيث ، دراسات فى علم الاجتماع التطبيقى ، دار الكتب الجامعية ١٩٧٢ ص١٢٦-١٢٧ .

١ ـ تعتبر الجماعة الانسانية محافظة بطبيعيها فالجماعة مثلا تحافظ على حقوق أعضائها ، ويقابل اعتداء عضو على آخر بعدم رضا من الجماعة ، قد يصل فى كثير من الأحيان إلى عقاب المعتدى ، وقد استنتج علماء الاجتماع من ذلك أن الجماعة الانسانية تقف كدافع ضد أى عدوان يقع على أعضائها .

إن فكرة الجماعة باعتبارها تشكل سلوك أعضائها تتضمن فكرة القهر أو الإلزام الجماعى، ولذلك فالجماعة لاتوجه السلوك فحسب ، بل تحدده وتنظمه أيضا ، وقد برزت هذه الفكرة منذ زمن بعيد حيث قال دوركايم أن جوهر الحياة الجمعية هو فيما تمارسه من قهر أو الزام على الفرد .

٢ ـ الإمتثال للمعايير الاجتماعية هو الهدف الذى يسعى اليه القهر الاجتماعى ذلك أن الفرد لايستطيع أن يتراجع أو يدير ظهره المعايير والقيم السائدة فى جماعته لأنه يخشى عواقب الانحراف، كما أن الفرد المنحرف يعلم أن عدم امتثاله يؤدى إلى عدم الترحيب به فى أى جماعة أخرى ، ولذلك يفكر مرتين قبل أن يستمر فى السلوك الانحرافى .

٣ ـ الجماعة تصادر الاختلافات المتطرفة ذلك لأن المعايير الجماعية هى فى واقع الأمر مستويات تضعها لتكون حدودا لايتعداها الأعضاء ومع ذلك فقد تظهر فى أغلب الجماعات أنواع من اليوتوبيا تعتبر فى واقع الأمر انحرافا عن المعايير الموضوعة وهنا نلاحـــظ أن الانحراف إذا كان بسيطا فربما تجاهلته الجماعة ، أما إذا وصل إلى درجة تهدد استقرار الجماعة أو تكاملها فإن العقاب الذى يتلقاه المنحرف فى هذه الحالة ، يتناسب مع تقدير الجمـــاعة لخطورة الانحراف نفسه عليها .

٤ ـ كل جماعة تضع حدودا للتسامح عندالاعتداء أوالانحراف عن المعايير

المقررة ، وهذا راجع إلى أن هذه المعايير عبارة عن مقاييس على درجة من الاكتمال من الصعب أن تحققها فى الواقع ، ولهذا يصبح التسامح أمراً طبيعياً يتواضع عليه أفراد الجماعة . ويتوقف التسامح على طبيعة الموقف الاجتماعى وعلى مركز الشخص وسمعته ، وكذلك على نمط السلوك المتضمن ، وهناك عدة اعتبارات يجب أن تكون فى الذهن عند النظر فى حدود هذا التسامح ومن أهمها [١] .

أ ـ قد تسمح التقاليد الاجتماعية فى مجتمع ما بشىء لا يسمح به مجتمع آخر وهذا يفسر اختلاف المعايير والمبادىء الأساسية التى توجه النظام الاجتماعى .

ب ـ كلما زاد اللاتجانس فى المجتمع زادت حدود التسامح اتساعاً .

جـ ـ كلما زاد التحضر فى المجتمع زادت أهمية مؤسسات الضبط الاجتماعى الرسمية على حساب الوسائل القديمة التى كانت تقوم على العادات والعرف .

د ـ كلما زادت مرتبة الفرد الاجتماعية ، كان أكثر حرية فى مخالفة المعايير دون أن يتعرض للجزاء الذى يتعرض له من هم أقل منه مرتبة ، إلا أن حريته هذه تقتصر على الأمور الصغيرة ، فقد يسمح له بمخالفة الرأى العام ولكن لا يسمح له بارتكاب المحرمات التى تعتبر مخالفات خطيرة فى كل المجتمعات .

أنواع قواعد السلوك والجزاءات

لكل جماعة محلية ، كما لكل نوع من الجماعات أو الروابط المنظمة ، قواعدها التى تفرضها على أعضائها وفى الجماعة الحديثة المعقدة تأخذ هذه القواعد عدة أشكال تقابلها جزاءات متباينة .

---

1 - Ogburn and Nimkoff, 'A Handbook of sociology, London 1960, pp. 174 - 183.

١ ـ قواعد السلوك فى الجمعيات أو الهيئات : يعاقب من يخالف قواعد أى ناد بفقدان عضويته أو بفرض غرامة أو بفقدان الاعتبار أو المكانة وفى بعض الأحيان تكون الجزاءات نهائية كأن يطرد العامل من عمله إذا خالف تعليمات الإدارة أو اتحاد العمال ، وكذلك فإن الطبيب أو المحامى الذى يخل بواجبات مهنته قد يفقد حق مزاولتها ، وإن كان فى مثل هذه الحالات يتعرض أيضا للجزاء القانونى .

٢ ـ قواعد السلوك الخاصة بالجماعة المحلية :فى كل جماعة محلية قواعد لتنظيم السلوك وهى قواعد محددة بوضوح تساندها جزاءات هامة . فالخروج على حكم العادة الجمعية يجازى بنوع من الامتعاض الإجتماعى أو نبذ الشخص المخطىء .

٣ ـ القواعد الخلقية: إن قواعد السلوك بالمعنى الدقيق هى مجموعة الأوامر والنواهى التى يتمسك بها « الضمير » الفردى على أنها السلوك المتميز بالصواب والخير . وهنا يبرز ما يسمى بالجزاء الباطنى والشخصى الذى يتمثل فى الشعور بالإثم نتيجة خرق قواعد السلوك . وهذا الجزاء يتوافق أحيانا ويتعارض فى أحيان أخرى مع الجزاء الإجتماعى .

٤ ـ القواعد أو التشريعات القانونية : وأخيرا هناك القوانين ، والجزاء الأخير فيها هو الالزام ولو بالقوة ، بدفع غرامة أو بالسجن أو بالإعدام دون قيد أو شرط وهذه هى قوانين الدولة .(١)

-1 Maciver, op. cit, pp. 140-141.

فعالية الضبط الاجتماعي

تتوقف فعالية الضبط الاجتماعي على الإدوات التي يستخدمها ، وكلما زادت هذه الأدوات نفاذا إلى الأفراد ظهرت آثار الضبط الاجتماعي في التقليل من نسب الانحراف وخاصة ذلك النوع الذي يكون من قبيل الاعتداء الجسيم على المعايير الاجتماعية ذات الطابع العام . وتتوقف فعالية الضبط النهائية على طبيعة الجماعة من ناحية وعلى نمط التنشئة الاجتماعية من ناحية أخـــرى . فكلما كانت الجماعة محببة إلى الفرد ازدادت فعالية وسائل الضبط الاجتماعي في رد الفرد إلى طريق الجماعة المرسوم ومثال ذلك أن أحد عوامل انحراف الأحداث ترجع إلى أن الحدث لايتطابق مع والديه ومن ثم لايقدر عضويته في جماعته الإسرية لأن الأب هو رمز السلطة . وعندما يعارض الطفل أباه فانه غالبا مايعارض كل رموز السلطة الإخرى مثل الشرطة والقضاء وحراس السجون الخ ... وربما كانت معارضة الحدث لوالدة تحدث بطريقة تجعل شعور الطفل يتحول بصفة عامة إلى نوع من الاحساس بأن المجتمع كله يقف ضده ، ومن ثم تنمو لديه اتجاهات العصيان ويصبح متأثراً بالرغبة في الانتقام .

وتجعل المجتمعات الحديثة من القانون Law الأداة الكبرى للضبط الاجتماعي وكل ما يلحق القانون أو نصوصه من تعديلات إنما يتم لمواجهة التغيرات التي تحدث في الجماعات المختلفة المكونة للمجتمع . كما يضع المشرع الحديث في اعتباره دائما ضرورة استقراء الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليكون لتشريعه فاعلية ، ومن الأدلة على ذلك أن كثيراً من التشريعات ولدت ميتة لإنها جاءت غير معبرة عن طبيعة الأحوال الاجتماعية وغير متمشية مع حقيقة الظروف التي وضعت من أجلها .

وتصبح وسائل الضبط الاجتماعية ثابتة عندما توجد طريقة رسمية تتضمن فعلا معينا في حدود قائمة . فالعقوبات Sanctions يمكن توقيعها على من يخالف

(١) محمد عاطف غيث «علم الاجتماع» ص ٣٥٩ — ٣٦٢ .

العرف أو القانون ، وهذه العقوبات كثيرة ومتنوعة أكبرها ، الاعـــدام ، والسلطة الرسمية فقط هي التي تستطيع فرض العقاب على الشخص المذنب بسلبه الحياة، والجماعات الاجتماعية لديها دائما أسلحة أخرى لانهائية لمعاقبة المذنبين والمخالفين مثل النبذ والعزل .

الطابع والمجتمع

إن إهتمام علماء الاجتماع بعمليات معينة مثل التنشئة الاجتماعية والدوافع والضبط الاجتماعي تنبعث من المنظور الذي يراها كوسائل تضمن الاستمرار والبقاء للتنظيم الاجتماعي ، ولكن كيف يمكن للأفراد المتفاوتين والمتقاربين أن يمتثلوا للنظام الاجتماعي القائم ؟ لقد أثار هذا الموضوع علماء الإجتماع باستمرار الأمر الذي جعلهم يركزون اهتمامهم على « الشخص» Person ،ولكن العلاقة بين الشخص والمجتمع أكبر من مجرد مناقشتها من خلال التنشئة الاجتماعية والدوافع والضبط الإجتماعي .

إن الطريقة التي يتناول بهـــا علماء الإجتماع التنشئة الإجتماعية تثبت أنهم غالبا ما يعطون الإولوية في تفسيراتهم للمجتمع ، أو للعمليات الاجتماعية ، أو تنظيم الجماعة أو للثقافة . ويميلون إلى النظر للانسان الفرد كنتاج Product لهذه القوى المشكلة وبالتالي فالأشخاص هم نتاج لعمليات الجماعة . وأي كائن عضوي يصبح شخصا فقط بالتنشئة الإجتماعية التي يحصل عليها داخل نطاق جماعته ، كما أن الطابع الإنساني Human Character تتشكل بالإنـــدماج والذوبان في الثقافة . ولكن على الرغم من أن اهتمامات الشخص تدور في إطار الأشكال العامة للشخصية التي يشارك فيها هؤلاء الـذين نشأوا في نفس الثقافة إلا أن كل شخص متميز بذاته .

وهناك وجهة نظر حتمية ترى المجتمع كسبب والفرد كنتيجة . فإذا كانت التنشئة الإجتماعية فى مجالات بنائية مختلفة تؤدى إلى أنماط شخصية مختلفة فليس من الصعب إذن أن تلبث أولوية المجتمع على الفرد . وتتأكد وجهة النظر هذه إذا نظرنا إلى الأفراد من خلال الأبنية الكبيرة مثل البيروقراطيات والدول ، حيث يكون من الصعب أن نرى كيف يؤثر الفرد فى التنظيمات بينما يكون من السهل أن نرى كيف تجبر هذه التنظيمات الفرد على أن يتكيف لمتطلباتها السلوكية. وهنا تظهر فكرتان أساسيتان (ترتبطان بشدة) تسيطران على التفكير السوسيولوجى عن العلاقة بين الفـــرد والمجتمع . الأولى ، هى وجود تلازم وظيفى محكم بين الفرد والمجتمع . والثانية ، أن الفرد هــو نتاج للطريقة التى ينتظم بها المجتمع وأن الناس يتغيرون نتيجة للتغيرات التى تحدث فى بناء المجتمـــع (١) .

أ ـ مرونة الطابع

إذا كان هناك نموذج للفرد يسيطر على البحث الإجتماعى العلمى المعاصر فهو أن الطابع مرن أساساً ، وله طبيعـــة تتكيف تبعاً للمواقف المختلفة ، ويستجيب للاشارات السلوكية للآخرين الذين لهم أهمية أو مقام مرموق ، ويستقبل الفرص الجديدة للتنشئة الإجتماعية . وقد أشار العلماء الاجتماعيون إلى أن ذلك هو ما يطلق عليه اسم الطابع الاجتماعى الحـــديث ، خاصة إذا أخذ طبيعة التنظيم الاجتماعى الحديث. ولكن إذا أخذ بناء الطابع شكلا أكثر جموداً فإن هذا يكون علامة على وجود نوع من الاضطرابات الذهانية والنفسية لأن

١ - Mckee, op. cit, p. 109-110.

هذه الأمراض هي التي تبقى دون تغيير في عالم معقد مترامي الأطراف متنوع التقسيمات .

وقد حدد رايسمان Riesman ثلاثة أنماط للطابع الاجتماعي وهي الموجه تقليديا Tradition - Directed والموجه داخليا Inner - Directed والموجه بالآخرين Other - Directed وقد أصبحت هذه الأنماط الثلاثة من مفردات اللغة الثقافية في الحياة المعاصرة . وينمي كل مجتمع نمط الطابع الذي يحتاج إليه . فالنوع الأول يلائم المجتمع التقليدي الذي يحتفظ بنموذج تنظيمه ولا يتغير نسبيا ويستمر في الوجود عدة قرون ، ويكون الإتجاه الرئيسي للفرد في هذا النمط هو الامتثال لمجموعة التقاليد اللانهائية التي تضعها الجماعة . أما النمط الثاني (الموجه داخليا) فهو نموذج الانضباط الذي تغرسه عملية التنشئة الاجتماعية في الطفل حيث يستوعب خلالها مجموعة من القيم والمستويات الأخلاقية ، أكثرها مستمد من الأسرة ويستخدم في ترشيد وضبط سلوكه الشخصي خلال دورة حياته . ويتلاءم هذا النوع من الانضباط مع المجتمعات التي تخضع للتغيرات السريعة . وبالتالي فالثقافة التقليدية والأنماط الثابتة للحياة الاجتماعية لا يمكنها في هذه الحالة أن تكون موجها سلوكيا مناسبا ، حيث يتعين على الفرد أن يكون مستعدا للتكيف والتوافق مع المواقف المتغيرة ويجد أو يخلق طرقا جديدة للسلوك . وينتشر هذا النمط إلى حد كبير في المجتمعات النامية ، أما النمط الأخير للانضباط (الموجه بالآخرين) فيوجد في المناطق الحضرية التي ينتشر فيها التعليم الجامعي ، والموظفين من الطبقات المتوسطة . وهو نمط جديد ، متحضر إلى درجة عالية ، يتعاون فيه الناس على مستويات عالية من التنظيم ، ويتطلب مرونة عالية ، وتنشئة اجتماعية مستمرة للفرد ، ومن هنا تظهر الحاجة إلى وجود « الشخص الذي يوجهه الآخرون » The Other - Directed man .

والشخص الذى يوجهه الآخرون هو النمط المرن الذى يظهر بوضوح فى الأدب المعاصر. وطابع هذا الشخص شديد الحساسية بالنسبة لاحتياجات جماعة النظراء، وكذلك بالنسبة للموقف الحالى وهو يستجيب فورا للتلميحات ويكتشفها بخبرة فى سلوك الآخرين (١).

ومن الملائم أن نشير هنا إلى أن تعريفات ريسمان للأنماط الثلاثة كأشكال للانضباط كانت على سبيل التصنيف، إلا أنه من الواضح أنه يعطى أهمية للنمطين الثانى والثالث. وعموما، فإن الأنماط الثلاثة تمثل ثلاثة طرق مختلفة تتوصل المجتمعات الانسانية من خلالها إلى التماثل بين أعضائها.

ب ـ الانتماء والاغتراب :

من الواضح أن معظم الدراسات المهتمة بعلاقة الطابع بالمجتمع ركزت على الحقيقة القائلة بأن التنشئة الاجتماعية تؤدى إلى تلاؤم مناسب بين الاثنين. ولكن ظهر فى السنوات الأخيرة إتجاه يؤكد وجود التوترات بين الفرد والمجتمع وإلى قيام الظروف التى لا تسمح بوجود هذا التلاؤم. ويظهر ذلك من الاهتمام المتزايد عند الدارسين المحدثين بمدى تأثير التنظيم الاجتماعى القوى الواسع على الناس وامكانية فقدانهم لتكاملهم وذاتيتهم عند محاولتهم الانضباط مع متطلبات البناء الاجتماعى وروتين الحياة فى المجتمع الجمعى، أو نمط الحياة الذى ينبثق من الأبنية النظامية التقليدية وخاصة الاقتصادية والسياسية.

وقد حاول المنظور الوجودى الذى انتشر فى فلسفة التفكير الاجتماعى النقدى المعاصر أن يكتشف طرقا لحماية « الأصالة » فى التجربة الفردية. بالتركيز على

---

1 - David Riesman and Others, 'The Lonley Crowd' (New Haven, Conn : Yale University Press, 1950).

التجربة الانسانية البحتة . وقد وجد هـذا الاتجاه استجابة واضحة من الشباب الوجودى فى شتى أنحاء العـالم الأمر الذى أثر بالتالى على العـلم الاجتماعى ، ويلاحظ أن الفكـرة القائلة بأن القوى الفعالة فى المجتمع الحديث تؤدى إلى فقدان انتماء الفرد ، حيث يصبح لا شىء ، أى مجرد وجه فى الزحام ، أو رقم فى قائمة أسماء ، جذبت اهتمام عدد من علماء المجتمع إلى مشاكل الانتماء أو التطابق .

إن ما نعرفه عن ظهور الذات فى عملية التنشئة الاجتماعية يبين أن كلا منـا يحمل عن « انتماء الذات أو تطابقها صورة معينة نحصل عليها من عضويتنا فى جماعة مسيطرة أو من أدوارنا فى تلك الجماعة . وقد تكون هذه الصورة مهنية أو طبقية ومن الممكن أيضا أن تكون عقائدية أو عرقية ، ورغم هـذا فهى صورة ذاتية مبنية على العضوية فى الجماعة التى يكون لهـا قيمة مركزية بالنسبة لنا . فكل منا يشعر بأنه يرتبط بجماعته بجذور عميقة يستمد منها هويته وكيانه ، ومن خلال هذه الفكرة يرتبط كل منا بالمجتمع .

إن فكرة فقد الانتماء أو التطابق أو الهوية والقلق الناتج عنها لدى الإنسان الحديث ليس ناتجا عن فقدان المشاركة الفعلية فى الجماعات الاجتماعية وإنما عن فقد المعنى الرئيسى والقيم القائمة على هذه المشاركة ، حيث لا يستطيع أى فرد الهروب من المتطلبات السلوكية لهذه التنظيمات الكثيرة التى تسود الحياة الحديثة ، وعندما لا يستطيع الإنسان مسايرة هذه الحياة فإنه يبقى بغير التزام[1] . وغالبا ما ينتشر هذا الشعور بين أجيال الشباب الذين يزعجهم ألا يجدوا أدوارا أو معنى لأنفسهم فى مجتمع بالغ التعقيد أو يواجهون صعوبة كبيرة فى تحقيق

---

1 - Kenneth Kenniston, The Uncommited : Alienated Youth in American Society (New - York : Harcourt, 1965).

ذلك ، وقد كتب اريكسون Erickson عن مشكلة الانتماء حيث أكد أن معظم الشباب يواجه أزمة الشعـــور بالانتماء وهى التى تعكس الصعوبة التى تواجههم فى معرفة الأدوار المرتبطة التى تناسب طابعهم، والتى كان من الممكن أن تقدم لهم شكلا من أشكال المشاركة فى المجتمع الأمر الذى يمكن أن يسمح لهم أن يكونوا ما يريدون وأن يعيشوا فى انسجام مع القيم التى يعتبرونها غالية وعزيزة (١) .

وقد تركزت جهود علماء الإجتماع فى تفسير هذا البعد فى الحيـاة الحديثة حول مفهوم الاغتراب Alienation ، فالفرد المغترب هو الذى يشعر بالضعف والعجز إزاء المواقف المصيرية فى حياته، والذى يشعر بأن القيم السائدة غير ذات معنى بالنسبة له ، أو هو الغريب عن جماعتـــه الاجتماعية وتنظيمات الحياة الاجتماعية .

وقد اهتمت الدراسات السوسيولوجية الحديثة بمسألة اغـــتراب الشباب وكذلك بالجانحين والأقليات ، لأن الدراسات السوسيولوجية المبكرة قد اقتصرت على بحث الاغتراب عند عمال الصناعة ، وذلك على أساس عجزهم عن السيطرة على ظروف عملهم الخاصة حتى على نفس الأدوات التى يستخدمونها فى أعمالهم كل هذا قد وجه أجيالا من الباحثين منذ كارل ماركس إلى إبراز العامل باعتباره فئة من ممثل الاغتراب فى المجتمع الصناعى الحديث .

والاغتراب باعتباره المقابل السلبى للانتماء مدخل يقوم على الادعاء بأن الشعور بالانتماء الذى يؤدى إلى بعث الرضى الذاتى يعتبر أمرا ضروريا للوجود

---

1 – Eric Erickson, 'Childhood and society' New-York, Norton, 1950, p 227.

الإنسانى وهو ما لا يوجد الا من خلال مضمون حياة اجتماعية منظمة ، وعلى ذلك فإن التمائية المرء ترتبط إلى درجة جيدة بمضمونات التفاعل الاجتماعى وتعتبر الأدوار الاجتماعية التى تنصب فيها أفعالنا ، والتى تربطنا بالمجتمع الأنماط السلوكية التى عن طريقها يتعرف علينا الآخرون ويتفاعلون على أساسها معنا ، وهى كذلك التى نستمد منها مشاعر انتماءاتنا الخاصة . ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن الشعور بالرضى والتكامل لا ينبعث بطريقة آلية من أى شكل من أشكال التنظيم الاجتماعى ، ويتضح ذلك من تحليل وطأة البيروقراطية والمجتمع الجماهيرى على الطابع الاجتماعى ، ومع ذلك فإن هذه التحليلات قد جانبها الصواب فى بعض الأحيان أو أنها ضخمت الامر أكثر من اللازم لأنها كانت متأثرة بشكل واضح بالنقد المرير الذى يوجهه البعض للحياة الاجتماعية الحديثة ، حقا أنها تشير إلى تعقد العلاقة بين الطابع والمجتمع ، وربما أبرزت أن الطابع الاجتماعى ليس أمرا يمكن وضعه فى أفران تصهره وتخرجه على هيئة مرسومة ومحددة .

إن أغلب التحليلات السوسيولوجية الجارية وكذلك التحليلات النفسية الاجتماعية قد ركزت تركيزا شـــديدا على أسبقية المجتمع على الفرد ، وعلى سيطرته على حياته ، وعلى قدرته على فرض نوع من التوافق على الشخص إلى المدى الذى يتغير فيه طابعه ليتناسب مع إحتياجات التنظيم ، الا أن البحث فى الاغتراب وخاصة فيما يسمى بالاغتراب السياسى الذى يتصور أن المغترب يمكن أن يسهم فى تدمير المجتمع بصورة أو بأخـــرى هو الذى يفسر الطابع الحديث كشىء يختلف عن العملية التى تؤدى إلى خلق طوابع تناسب إحتياجات التنظيم الاجتماعى .

إن مفهوم الشخص أو الطابع يتضمن فكرة محددة وهى أن التنشئة الاجتماعية

للكائن لاتتم الا من خلال استدماج الثقافة ولكن هذه عملية غير كاملة باستمرار، وسوف يكون من الخطأ البين الادعاء بأن التنشئة الاجتماعية التي خبرها الأفراد الذين استدمجوا بشكل تام القيم الاجتماعية للجماعة لاتظهر عليهم استجابات أخرى للخبرات التي تتناسب مع الأدوار الاجتماعية، ومن السهل أكثر من ذلك، الادعاء بأن الاتجاهات والقيم المناسبة للادوار هي وحدها التي لا يتمتع الناس بغيرها، وقد يؤدي إلى الادعاء بأنه إذا كان الشخص من حيث سلوكه متمشيا مع توقعات الدور فإنه في هذه الحالة قد استدمج كلية قيم الدور المناسبة، لكن هذه الادعاءات يمكن ألا تكون صحيحة، فكثير من الناس يمتثلون لتوقعات الدور قهرا، وخاصة إذا كانت الضوابط الاجتماعية لا تطرح أمامهم بديلا .

الفصل السابع

الجماعة والمجتمع

تنتظم الحياة الاجتماعية ، كما سبق أن أشرنا ، عندما توجد طـــرق ثابتة للتفاعل توصف بعدة مفهومات مثل : الدور والعـــلاقة والبناء . وعندما يستمر التفاعل بين مجموعة معينة من الأفـــراد يظهر ما يسمى بالتجمعات الاجتماعية بنوعيها الكبير والصغير ، والتي يطلق عليها مصطلحات مثل الجماعة Croup والمجتمع Society . فالجماعات والمجتمعات يظهران إلى الوجـود بقيام مجموعة متشابهة من الناس الذين يبنون ويطورون علاقاتهم الاجتماعية بمرور الوقت حتى تصبح نمطا ثابتا (بناء اجتماعيا) .

ويرى بعض العلماء أن علم الاجتماع هـو الدراسة العلمية المنظمة للمجتمع ، وبالتالي تصبح « الجماعة » وحدة بنائه وهـذا بالإضافة إلى أنهـا أصغر وحدة تقوم بمختلف الوظائف والعمليات الاجتماعية التي تسهم في حفظ البناء الكلي للمجتمع . وينحصر اهتمام علماء الاجتماع بدراسة الجماعات الاجتماعية باعتبارها نسقا اجتماعيا Social System بمعنى أن بناءهـا يتكون من أجزاء لا تفقده وحدته ، وأن العمليات الاجتماعية التي تحدث فيها تحـــدد مكانها من المجتمع ككل ، والوضع الاجتماعي الذي تشغله في بنائـه ، ومن هـذا المنظور نمت وتطـورت دراسة الجماعات الصغيرة وكذلك دراسة المجتمع المحلي الذي يعتبر هو الآخر جماعة اجتماعية ذات بناء كلي يتكون من مجـموع بناءات الجماعات الفرعية المكونة له ، ويقوم بوظائف متنوعة هي مجموع الوظائف التي تؤديهـا هذه الجماعات الفرعية ، وقد ظهرت اتجاهات عديدة في دراسة الجماعـة أهمها الاتجاه النفسي ، الاجتماعي ، والاتجـاه الشكلي الذي يهتم بالشكل الخارجي

للجماعة بغض النظر عن التفاعلات التي تحدث داخلها ، والاتجاه البنائي الوظيفي الذي يهتم بدراسة الجماعة في ضوء التفاعل الاجتماعي ، ونوعية الأدوار التي تلعبها الأجـــزاء المكونة للجماعة ككل (١) . وعموما ، فإن التعرض لدراسة الجماعات الاجتماعية يفرض ضرورة التعرف على مضمونها ومكوناتها، وهذا يؤكد أهمية تفسير مفهوم الجماعة وخصائصها ووظائفها وعوامل التكامل والصراع فيها.

الجماعة الاجتماعية

يعتبر مفهوم الجماعة من المفهومات المتداولة في علم الاجتماع ، فهي مصطلح قديم ظهر منذ أن بدأ المفكرون الاجتماعيون يهتمون بالحياة الجمعية للانسان . ومن تعريفات الجماعة التقليدية أنها فردان أو أكثر في حالة تفاعل . إلا أن هذا التعريف بسيط وغير كاف ، فمجرد تواجد مجموعة من الناس لا يجعل منهم جماعة ، ومثال ذلك أن مجموعة من الناس تنتظر على محطة للاتوبيس أو على قارعة الطريق لا يمكن أعتبارها جماعة بالمعنى السوسيولوجي .

إن التصور السوسيولوجي للجماعة هو أنها عبارة عن « تجمع من الناس كفاعلين ، يشملهم نمط من التفاعل الاجتماعي ، ويشعرون بالمشاركة في عضوية عامة ، ومفهومات متعارف عليها ، ويوافقون على بعض الحقوق والواجبات التي تكون حقا للأعضاء فقط . ومن خصائص الجماعة أنها تستطيع أن تحدد من ينتمون اليها ومن لا ينتمون . ذلك أن عضوية جماعة معينة تربط الفرد بالآخرين بطريقة تختلف عما لو كان من خارج الجماعة ، فالعضوية المشتركة تجعل الأعضاء يستجيبون للتوقعات التي تحكم الفعل في الجماعة (المعايير

---

١ ــ غريب سيد أحمد وآخرون ، « علم الاجتماع المعاصر » دار الكتب الجامعية ١٩٧٤ ، ١٩٧٠ ــ ٢٠٠

الاجماعية) والثقافة التى تنبعث من التفاعلات المشتركة بينهم . وكثير من الجاعات تتخذ لها رمزا يدل عليها مثل بطاقة العضوية أو الإشارة المميزة. كذلك يشترك أعضاء الجاعة الواحدة فى مجموعة عامة من المفهومات الثقافية تتصل بمعنى العضوية فيها ، الذى يشير إلى اتفاقهم فى الرأى حول ماهية الجاعة ووظائفها وأهدافها . إن هذه المشاركة فى عضوية الجاعة وفى تجاربها العامة تضفى طابع الوحدةعليها ، وهو الذى يؤدى دوراً وظيفيا ينعكس على فعالية الجاعة فى أنشطتها الجمعية . وقد أشار فرانكلين جيد نجز Franklin Giddings إلى ما أسماه « الشعور بالنوع » Consciousness of kind [1] ليعبر بوضوح عن معنى الوحدة الذى تشتمل عليها العضوية المشتركة والتجربة المشتركة . ولكن هذا الشعور بالنوع الذى يوحد أعضاء الجاعة لا يمكن أعتباره سوسيولوجيا كنتيجة آلية لوجود الجاعة . ولكن يمكن النظر اليه كمتغير ، يوجد بدرجة أكثر او أقل . فعديد من الجاعات الكبيرة تعانى من الشعور الضعيف أو الواهن بالإنتماء ، وهذا يحدث عندما لا تكون العضوية فيها ذات قيمة ملحوظة عند أعضائها ، أو عندما يؤدى تجانس أعضاء إلى خفض الشعور بالنوع ، كما أن أعضاء جماعة معينة قد يكونون أعضاء فى جماعات أخرى ، الأمر الذى يعوق الولاء الكامل المنتظر من الأعضاء وهو ما يؤدى إلى ضعف سيطرة الجاعة على أعضائها .

والخلاصة أن الجاعات موجودة فى كل المجتمعات البشرية ، ريفية أو بدوية أو حضرية ، ولهذا كانت أحد الدعائم الهامة وجزءا أساسيا من مكونات أى نسق اجتماعى . وكل الكائنات الانسانية تدخل فى الجاعة الأولى (الأسرة)

---

1 - Franklin Giddings, ' Principles of Sociology ' N-Y, Macmillan, 1696.

منذ لحظة الولادة ، وخلال دورة الحياة تصبح هذه الكائنات جزءا فى عدد كبير من الجماعات الاجتماعية ، ويمكن أن يتدرج حجم هـذه الجماعات من العلاقة الثنائية لأسرة بغير أولاد إلى النسق الاجتماعى الكبير الذى يتميز بطبيعة جماهيرية مفككة كالحزب السياسى ولعل هذا هو الذى جعل بعض الدارسين ينظرون الى « المجتمع » بصورة معينة على أنه أكبر جماعة تحوى داخلها الجماعات الأخرى .

أ ـ خصائص الجماعة :

تتميز كل جماعة اجتماعية بمجموعة من الخصائص تميزها عن غيرها من الجماعات نستطيع إيجازها فيما يلى :

١ ــ يشعر أعضاء الجماعة بوحدتهم وتشابههم ، وبتميزهم عن أعضاء الجماعات الأخرى .

٢ ــ كل جماعة لا بد أن يكون لديها مركز اهتمام خاص ، ويختلف هذا الإهتمام بإختلاف طبيعة الجماعة ، فقد تهتم الجماعه بجمع طوابع البريد ، أو بفرض سيطرتها على منطقة واسعة من النشاط الإجتماعى فى المجتمع وهكذا .

٣ ــ الجماعات لا بد أن تكون منظمة ، فهناك بناء داخلى يحدد المراكز والأدوار ووسائل الإتصال ومواضع السلطات .

ب ـ عضوية الجماعة :

لا يستطيع الانسان أن يعيش فى عزلة ، ويرجع السبب فى عدم مقدرة الإنسان على العيش بمفرده إلى أنه يعتمد فى تحقيق كثير من متطلبات حياته المادية والمعنوية والطبيعية على الآخرين وهذا يحتم مشاركته لغيره لإشباعها

لأن قدرته الفردية تعجز عن الوفاء بها (١) .

وتعتبر الطريقة التى يتوصل بها الفرد الى العضوية أحد الصفات الهامة للجماعات ، وهناك فرق بين العضوية التى يجد الفرد نفسة حاصلا عليها دون ترتيب سابق وبين العضوية التى يكون الفرد حراً فى قبولها أو رفضها . وتسمى الجماعات التى ينتمى اليها الفرد فى الحالة الأولى « الجماعات ذات الأصل المشترك » . وتسمى الجماعات التى ينتمى اليها الفرد فى الحالة الثانية « الجماعات ذات المصلحة المشتركة » أو « الجماعات الغرضية » . ومع ذلك فان اختيار العضوية فى الجماعات الغرضية لا يكون حرا تماما ذلك أننا نلاحظ أن رغبة الفرد فى جماعة معينة قد تقابل بالرفض أو قد يجد نفسه واقعا تحت ضغوط شديدة تدفعه للانضمام اليها . وتعتبر النوادى الرياضية والترفيهية من النوع الأول ، بينما تعتبر الروابط المهنية كنقابات المحامين والأطباء والمدرسين من النوع الثانى ، لأن القانون فى بعض الأحيان يجعل من الانضمام إلى عضوية الجماعة شرطا أساسيا لممارسة المهنة .

ويظهر الاختلاف بين الجماعات من حيث مدى التضامن والوحدة فالجماعة الأولى (ذات الأصل المشترك) تفرض مسئوليات ومطالب لا يمكن للفرد أن يتحلل منها ، بينما الأمر على عكس ذلك فى الجماعة الثانية (الغرضية) حيث يشعر الفرد دائما أنه يمكنه التحلل أو التنصل من هذه المسئوليات إذا أراد

ج ـ تكامل الجماعات الاجتماعية

تستمر الجماعات الاجتماعيه ، سواء كانت كبيرة أو صغيرة خلال الزمن

1 - Gladys Sellew and Others, 'An Intoroduction to Sociology' N.Y, Harper and Row, Publishers, 1958, p. 193.

عندما يكتشف أعضاؤها الروابط الاجتماعية التي تربطهم بالجماعــــة وتحطيمهم سببا في الانتماء اليها ويعد تكامل أعضاء الجماعة في نسق تفاعلي وظيفي متماسك نسبيا مشكلة أساسية في جميع الجماعات الاجتماعية ، وهــذا الشعور بالمشكلة يظهر بصفة خاصة في الجماعات الكبيرة عندما تحاول تطويع وتنشئة ومكافأة أعضائها . ولكن حتى أصغر الجماعات يمكن أن تفشل في الاستمرار ، وذلك إذا وجد أعضاؤها أنه لايوجـد سبب في استمرار تفاعلهم مـع بعضهم . كما توجد في الحياة مواقف يكون فيهـا زوال الجماعات طبيعيا وحتميا مثل زملاء الدراسة في مراحلها المختلفة ورفقاء السلاح الذين قدلا يلتقون مرة أخرى طوال حياتهم .

وقد ناقشنا في الفصل السابق العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وركــزنا على كيفية تكاملة في المجتمع عن طريق التنشئة الاجتماعية ، وعلاوة على ذلك كيف تنشأ في المجتمع بالضرورة أشكال متعددة مـن الضبط الاجـتماعي يـنزل بعضها العقاب على هؤلاء الذين ينتهكون معاييره الاجتماعية . هذا ويمكننا أن نشير إلى ذلك مرة أخرى ، ولكن هذه المرة لنقيم الدليل على التكامل الجماعي وليس هناك شك في أن أحد المصادر الكبرى لهذا التكامل يكمن في التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الأعضاء داخل الجماعة والتي يكون مـــن نتيجتها استدماج القيم والمعايير السائدة والايمـان بأهدافها وغاياتهـا والاستعداد الطوعي للتصرف بشكل متكامل ومنتظم وفقا لتوقعات الجماعة السلوكية ، وجدير بالذكر أن كل الجهود التي تبذل من أجل الضبط الاجتماعي تسهم في تعزيز التكامل المعياري Normative Integration للجماعة، ويبرز هذا النوع من التكامل ويكون له أثر فعال إذا أمكن توجيه الفرد لتحصيل شيء لنفسه ويمكن في نفس الوقت أن يسهم بطريقة ناجحة في قيم الجماعة وأسلوب حياتها ، أو تكون للجماعة في نفس الوقت

مستعدة لمنح المكافآت على مثل هذا النشاط . وعلى ذلك فإن ما نراه مهما فى نمو الشخصية الانسانية وما نراه كذلك فعالا فى تهيئة الشخص لظروف الجماعة هو أمر مهم فى التوصل إلى التكامل الاجتماعى للجماعة .

وإذن فالتكامل المعيارى للجماعة ببساطة هو قبول أعضائها للمعايير الجماعية ودرجة طاعتهم وامتثالهم لها ، إن الأمر دائما فى هذا الصدد مسألة درجة (نسبى) ، ومعنى ذلك أنه لامجال للقول بأنه إما أن يقبل الأعضاء معايير الجماعة أو لايقبلونها كلية . ويلاحظ أن الجماعات الصغيرة التى تتجانس فيها العضوية لاتجد مشقة فى الامتثال للمعايير، الأمر الذى يجعلها أكثر تكاملا ، وهناك كثير من الدلائل على أن أعضاء مثل هذه الجماعات يدللون فى سلوكهم على درجة أكبر من التضامن الجماعى أو تطابق أكثر مع الأهداف الجماعية ، الأمر الذى يترتب عليه مايمكن أن يسمى « الروح المعنوية العالية ، Morale وفى المقابل تواجه الجماعات الكبيرة صعوبة أكبر فى التوصل إلى هذا التكامل المعيارى ، ذلك أن أعضاء ما يميلون إلى اللاتجانس مع احتمال انبثاق جماعات فرعيه داخل الجماعة الكبرى ، وقد يطور بعض هذه الجماعات الفرعية معايير لاتنسجم بل يمكن أن تتناقض مع معايير الجماعة الأكبر ، أن بعض هذه الجماعات الفرعية سوف تنبثق من لا تجانس العضوية فى الوقت الــذى يمكن أن تعكس فيه الإختلافات الاجتماعية ذات الأهمية والتى تظهر فى المجتمع الــكبير ، مثل الاختلافات التى تقوم على العرق Race والجنس sex والعمر Age ولكن جماعات فرعية أخرى يمكن أن تظهر إلى الوجود من خلال تقسيم العمل الذى يحدث فى الجماعة الكبيرة والتى يؤدى فيها التخصص فى الأعمال والوظائف إلى

1 - Mckee, op. cit, p.126-127.

تباين فى بناء الجماعة وهو الأمر الذى يجعلها تتعقد وتتطلب تنسيقا وظيفيا وتخصصا فى السلطة حتى لاتتعرض الاضطراب أو يصبح الوصول إلى أهدافها أمرا مشكوكاً فيه ، لكن هذين النمطين من الجماعات الفرعية يمكن أن يتداخلا وخاصة إذا ارتبطت بعض الوظائف إلى أعضاء وفقا للعمر أو الجنس أو العرق.

وعندما نتحدث عن الجماعات الكبرى فإن مشكلة تكامل الجماعة تصبح أمرا يتصل بالتكامل الوظيفى وبالتنسيق الفعال للجهد الإنسانى لأعضائها كأفراد أو كجماعات فرعية حتى تكمل أنشطتها المتنوعة والمتخصصة أحدها الآخر ، إن ذلك هو فى حد ذاته الإهتمام الأساسى الذى تدور حوله فكرة البيروقراطية وخاصة إذا عولجت من منظور علم الإجتماع ، لأنها تقود إلى مسائل تتصل بإعادة إحلال الأعضاء أو جلبهم أو تدريب الأعضاء الجدد ومنح الناس أوضاعا معينه ومشروعية السلطة وإتخاذ القرار ، كما أن ذلك يمكن أن يؤدى إلى هذا الاهتمام الواضح بمشاكل تنظيم الجماعة الذى يعتبر من بين مظاهر التفكير الإجتماعى الحديث حول الادارة والقيادة والعلاقات الإنسانية .

إن الجماعات الإجتماعية الكبيرة يمكن أن تتحول فيظهر فيها التكامل الوظيفى الفعال إذا مال الحجم إلى تقليل التكامل المعيارى إلا أن التكامل الوظيفى يعتمد على الإشتراك فى العناصر المعيارية ، إذ لابد أن يكون هناك نوع من الاتفاق على ما يستحق النهوض به ، واتفاق نسبى كذلك بشكل ما، على ماهى التوقعات المعقولة لإفعال الناس الذين يقومون بأداء وظائفهم وفقا لإدوار اجتماعية معروفة. وباختصار ، إن التنظيم لابد أن يعتمد على الجزاءات وأحيانا على الجزاءات الرادعة ، ومثال ذلك أن الجيش يحاول دائما أن ينشىء أعضاءه على القيم التى يمثلها ، إلا أنه فى نفس الوقت يكون مستعدا لفرض النظام الصارم، وقد

يعتمد مصنع أو شركة معينة فى انجاز ما تقوم به من عمليات انتاجية على أن العمال والموظفين يحتاجون للعمل ولهذا فأنه من المتوقع أن يقوموا بمهامهم من من أجل أن يحافظوا على أجورهم (١) .

د ـ وظائف الجماعات :

تقوم الجماعات الإجتماعية بوظائف عديدة ومتنوعة فى المجتمع . وكل جماعة لها وظيفة ظاهرة مميزة ، فوظيفة الأسرة الرئيسية مثلا الإنجاب ، إلى جانب إشباع الحاجات المادية والمعنوية لأعضائها . ووظيفة النقابة أو الإتحاد هى حماية مصالح الأعضاء والدفاع عنهما ، ويهيء النادى الرياضى وسائل الترفيه المناسبة لأعضائه وهكذا . وتقوم كل جماعة إلى جانب وظيفتها الرئيسية بعدة وظائف ثانوية مرتبطة باحتياجات الأعضاء .

وتؤدى الجماعة وظائفها بصورة كلية ، ومن خلال هذا الأداء يشبع الفرد حاجاته ويمارس تأثيره الإيجابى ، وفى هذا الوسط الإجتماعى الذى تهيئة الجماعة يستجيب الأفراد الاستجابات الشخصية التى تعبر عن العاطفة أو التفوق أو المركز ، أى أن الفرد يشبع رغباته من خلال هذا المضمون الإجتماعى ، إلى جانب ذلك تساند الجماعة الفرد وتعطيه القوة بأن تعضده فى سلوكه وتؤكد ملكيته لافعاله واتجاهاته .

المجتمع :

يعتبر مفهوم المجتمع Society من المفهومات المركزية فى علم الاجتماع ، حتى أنه يعرف فى كثير من الأحيان بأنه علم المجتمع . فإذا كانت الثقافة طريقة

1- Mckee, Ibid, 127-128.

المجتمع وأسلوبه فى الحياة ، فالمجتمع هو الحياة بذاتها . والمجتمع حقيقة جوهرية فى حياة الأفراد ، إذ بدونه لا يستطيع الفرد الاستمرار فى الحياة ، فهو الذى يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة ، ولا يتوقف وجود الفرد على وجود المجتمع فحسب بل إن الثقافة نفسها لم تكن لتنبثق أو تعمق جذورها دون وجود المجتمع (١) .

ويمثل المجتمع الموضوع الكبير الذى يكون ميدان الدراســـة فى العلوم الإنسانية . والاجتماعية ، ونظرا لضخامة هذا الميدان وتعدد أطرافه ، فقد تخصصت علوم كثيرة فى جزء أو آخر طلبا لمزيد من الدقة . وعلم الاجتماع حين يدرس المجتمع فإنه يحاول أن يغوص وراء الحقيقة الاجتماعية التى تفسر إمكانية وشروط بقائه وتكشف الستار عن أسباب التجمع والتفرق والتنوع والتغير وما يترتب على هذا كله من نتائج على الأفراد وما يظهر على سلوكهم بسبب تفاعلهم المستمر . وقد اختلف علماء الاجتماع حول تعريف المجتمع فترة طويلة، وظهر أثر هذا الاختلاف فى إطارات المفاهيم والأفكار العامة التى يقوم عليها التحليل السوسيولوجى . فـــما يعنيه علماء الاجتماع بكلمة مجتمع ما زال يكتنفه الغموض . فهو اصطلاح رمزى يشغل حلقة واسعة من الظواهر الاجتماعية التى يختص بدراستها علم الإجتماع . وهو يشير إلى الجماعة الإجتماعية واسعة النطاق التى تدخل فى نطاقها جميع الجماعات الصغيرة ، وكما عرفنا الجماعة من قبل ، فإنه يمكن تعريف المجتمع كجماعة اجتماعية كبيرة ترتكز على الفعل الثقافى الذى يحول السكان إلى « شعب » People متميز . ويظهر المجتمع من ناحية أخرى عندما تستقر مجموعة بشرية على تحديد نفسها من الناحية الثقافية بصورة تجعلهم

---

(١) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع، ٢١١ .

متميزين عن غيرهم ، ومن هذه الزاوية فاننا ندرك الفروق والتباينات القائمة بين الايطاليين والمصريين والانجليز والالمان والأمريكان وغيرهم . وجدير بالذكر أنه بناء على ذلك تكون محصلات التفاعل بين الناس الذين لهم هوية ثقافية متميزة مؤدية إلى قيام بناء اجتماعى معقد يسهم فى إبراز ما يمكن أن يطلق عليه شمولية طريقة الحياة لهؤلاء الناس . وعندما يصل الناس بالمعنى السابق إلى هذا المستوى فلا تكون هناك جماعات كبيرة ينتمى إليها هؤلاء جزئيا، لأن البناء الأجتماعى الشامل والمستغرق لكل التفاعلات لا يكون فى هذه الحالة جزءا تابعاً لجزء أكثر شمولا منه . فالمجتمع إذن هو جماعة اجتماعية تعلو على كل الجماعات الاجتماعية الأخرى التى توجد بين الناس .

إن مثل هذا المفهوم أو التصور للمجتمع لا يشير إلى أى حجم معين لأن المجتمعات يمكن أن تكون كبيرة أو صغيرة ، إلا أن الاتجاه فى العالم الحديث يميل نحو المجتمعات القومية الكبيرة التى تكون منظمة سياسيا وفى قمتها الدولة القومية التى تمارس الضبط على اقليم معين يسكنه الناس الذين يكونون هذا المجتمع ، ومن هذه الزاوية فالمجتمع المصرى هو من الناحية السياسية مجتمع منظم ومن المعروف أنه قبل نمو الأمة كانت المجتمعات غالبا عبارة عن كيانات صغيرة لم تتحول من الناحية التنظيمية إلى أمة وخاصة إذا أدخلنا فى الاعتبار مسألة الإقليم والثقافة . فالقبيلة مثلا يمكن أن تكون مجتمعا بالرغم من أن أعضاءها قد لايتجاوزون عدة آلاف . كما أنه فى أفريقيا حاليا أصبحت المستعمرات السابقة تشكل أمما مستقلة ، إلا أنه يلاحظ أن حدودها السياسية الحالية هى نفس الحدود التى رسمها المستعمرون للاقاليم التى احتلوها ولهذا قد لا يكون الإقليم فى هذه الحالة مستوعبا لكل الناس الذين تعودوا دائما أن

يكونوا معا ، ومن الملاحظات الجديرة بالذكر هنا أن هـــذه الأمم الجديدة تعرف اليوم على أنها وحدات سياسية ، إلا أن مفهوم القوميـــة لم يبدأ فى التبلور إلا منذ عهد قريب جدا ويتدعم تدريجيا عندما توجد له جذور ثقافية عند السكان الذين أصبحوا منتظمين سياسيا ، ويتم هذا فى الوقت الذى لا تزال فيه الولاءات القبلية ذات تأثير مسيطر فى بعض الأحيان ، ولعل هذا هو الذى يجعل الدارسين فى ميدان السياسة وعلم الاجتماع السياسى يقولون بأن المجتمعات القومية الحديثة لا تزال فى دور التشكل أو أنها تحاول أن تصل إلى وحـــدة قومية لتتجاوز نمط المجتمعـــات القبلية القديمة . وإذن تتحول القبيلة اليوم تدريجيا إلى أمة يمكن أن تضم اليها أعدادا كبيرة من السكان ، وعلى الدارس أن يتوقع أن قدرا كبيرا من الصراع الإجتماعى سوف يترتب على كل المحاولات التى تبذل الآن لبناء الأمم الجديدة وخاصة فى العالم الثالث .

أ ـ نظم المجتمع

يظهر مصطلح النظام إلى جانب مصطلحات الدور ، والعلاقة ، والبناء فى تحليل المجتمع ، وهو واحـــد من المفاهيم القديمة التى ترتبط بموضوع علم الإجتماع والنظم هى الانساق الكبرى المنظمة للتفاعل الذى هو قاعدة العلاقات الإجتماعية ، إن نظم المجتمع المختلفة متداخلة مع بعضها تداخـلا شديدا ، ويؤثر أحدها فى الآخر تأثيرات عديدة . فالأسرة كنظام مثلا لايمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التى تؤثر فيها . فنحن عند دراسة بناء الأسرة ووظائفها ، لا يمكن أن نتغافل نظم الإقتصاد والسياسة والدين والتربية فى المجتمع الذى توجد فيه . وإذن فإدراك العـلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهرى لفهم الحياة الإجتماعية .

ومن المحتمل أن يكون مفهوم « النظام » قد بدأ بفكرة المعيار النظامى Institutional Norm فأى نظام يعرف بأنه مركب مجموعة من المعايير. وتصبح المعايير نظامية عندما تدعم باتفاق الجماعة فى الرأى ، وعندما توضع عقوبات رادعة تطبق بصرامة عن طريق هيئات متخصصة ، بحيث تصبح المعايير النظامية ملزمة تماما. وهناك مفهوم آخر للنظام لا يركز على المعايير النظامية فقط وإنما أيضا على الممارسات الإجتماعية أو الأنشطة التى تحكمها المعايير. وهنا يكون التركيز على الأدوار والعلاقات النظامية ، وواضح أن النظام مكون من المعايير والأدوار. وتكون بعض الأنشطة معيارية نظاميا والأخرى لا معيارية ، ويرجع ذلك إلى الطبيعة المتباينة لكل من الانسان والمجتمع. (١)

فالإنسان كما نعلم ليس مجرد مجموعة من الغرائز تحكم سلوكه فى أنماط ثابتة فمن أجل ابتكار نظام اجتماعى معين طور الإنسان الآلات والتكنولوجيا وأنماط التفاعل وأساليب التفكير ، وبقول آخر يكون لكل مجتمع مجموعة من التنظيمات الإنسانية تنتظم من خلالها الحياة وتستمر.

ومن أجل بقاء النظام الاجتماعى واستمراره يتخذ كل مجتمع طرقا معينة للزواج والإنجاب ورعاية وتنشئة الأطفال. والأسرة التى تقوم بذلك ينظر اليها «كنظام». إلا أن هـذا النظام قد يختلف من مجتمع لآخر تبعا لظروفه الخاصة وتبعا لطبيعة النظم السائدة فيه ، فإذا مارست مجتمعات معينـة مثلا «الزواج الاحادى» مارست الأخرى «التعدد» وهكذا.

ويجدر بالذكر أن النظم الإجتماعية «كمركبات للادوار والمعايير» توجد فى كل زمان ومكان ، ولذلك فإنها ذات طبيعة عالمية نظرا لارتباطها بوجود المجتمع ذاته ، ذلك أنه من المعروف أن كل مجتمع إنسانى ينظم

(1) Mckee, op. cit. p. 129-130

السكان فيه لكى يعملوا وينتجوا السلع المادية التى يعتمدون عليها فى حياتهم ، والتى توزع وتستهلك بطرق متنوعة ، ويؤدى ذلك وغيره إلى قيام البناء الإقتصادى الذى تنظمه معايير تحكم العمليات الإنتاجية وحقوق الناس وواجباتهم . ويوزع كل مجتمع القوة الشرعية بطريقته الخاصـــة المتمثلة فى «السلطة» لفرض الضبط الإجتماعى من خلال مجموعة من القواعد الأساسية المشتركة بين أعضاء المجتمع ، وهذا مايطلق عليه «النظام السياسى» للمجتمع . كما أنه لابد للصغار من أن يحصلوا على قدر معين من ثقافة مجتمعهم ويتدربوا على القيم والمهارات الإجتماعية فى مجالات متباينة . وهـذا ماأسميه بالتربية أو « النظام التربوى » Education ، وفى معظم مجتمعات ماقبل التصنيع كان النسق القرابى يقوم بهذا العمل التربوى ، أما فى المجتمعات الحديثة فتقوم به نظم تربوية متخصصة . وفى الامكان - من ناحية أخرى - التدليل على عالمية « النظام الدينى » Religious Institution سواء فى المجتمعات البدائية أو المتحضرة . وبصفة عامة يقسم علم الإجتماع النظم إلى - نظم أسرية ، واقتصادية وسياسية ، وتربوية ودينية . حيث يتميز كل نظام بأنماط بنائية ومعيارية خاصة تدور حول الاهتمام الرئيسى للمجتمع المنظم . وعلى ذلك نستطيع أن نعرف النظام الإجتماعى على أنه : نظام معيارى يحدد ويحكم أنمـــاط الفعل الإجتماعى التى يعتنقها أعضاؤه أخلاقيا واجتماعيا .

ونظراً لأن النظم الإجتماعية تدعمها جزاءات معيارية قوية فهى بالتالى أكثر عناصر البناء الاجتماعى ثباتا ، وهى أكثر مقاومة للتغير ، وهذا لايعنى أنها لاتتغير على الاطلاق ، ولكنها تتغير ببطء خلال فترات طويلة مصاحبة للتغيرات الأخرى فى المجتمع .

ومن الملاحظ عند دراسة النظم الإجتماعية أن ندرك أنها تترابط بعضها مع بعض فى هذا النمط المعقد الذى يكون الحياة الإجتماعية ككل فى أى مجتمع.

وهنا نلاحظ أن الاختلاف الواضح بين الثقافات المختلفة يرجع إلى الدرجة التى تنفصل على أساسها النظم بعضها عن الآخر ، ويمكن أن ندرك أنه فى المجتمعات البدائية أو المتخلفة لا توجد نظم متميزة ومتخصصة على عكس ماهو موجود فى المجتمعات الحديثة المتطورة ، فالنظم الإجتماعية فى المجتمع البدائى متداخلة ، وقد تتداخل كل المراحل فى العملية الإقتصادية مع وجوه النشاط الترفيهية والفنية والدينية، ولهذا يكون الفن والدين والترفيه تحت هذه الظروف «أجزاء» من النظام الإقتصادى نفسه.

وخلاصة القول أن النظم التى نجدها فى مجتمع معين ، والوظائف المرتبطة بكل منها ، مسائل تخضع لاختلافات متعددة فى المجتمعات المختلفة تبعا للمكان والزمان والظروف والتغير فى الوظائف وفى العلاقات المتبادلة للنظم الإجتماعية يعتبر أحد المسائل الهامة التى يعالجها علم الإجتماع ، حيث أننا نعيش الآن فى عصر يتكون من توازن معقد دقيق لعلاقات اجتماعية متعاونة ومتساندة

ولعل انتقال الوظائف من نظام إلى آخر يعتبر أحد الخصائص الهامة فى عصرنا فقد فقدت الأسرة مثلا بعض وظائفها فى الانتاج والترفيه والحماية ، وانتقلت هذه الوظائف إلى جهات أخرى مثل الحكومة والصناعة، كما أن الدولة تنتقل اليها بعض الوظائف النظامية التى تفقدها النظم الأخرى نتيجة لزيادة عمليات التغير .(١)

1 - Ibid, pp. 130-132.

ب ـ أنماط المجتمعات

١ ـ المجتمع الاقطاعى(1)

يتكون المجتمع الاقطاعى Feudal Society من مجموعة من القرى الصغيرة المنعزلة نسبيا والتى تنتظم فيها الحياة بطريقة تقليدية . ولهذا تظل ثابتة نسبيا ولا تتغير لعدة قرون متتالية . ويقطنها أناس بسطاء يعملون بالزراعة (الفلاحون) ولكنهم لا يملكون الأرض ، وإلى جانب هؤلاء الذين يمثلون الغالبية توجد مجموعة قليلة من الناس تملك الأرض ولكنها لا تعمل بالزراعة .

وترتبط كل قرية من هذه بالمجتمع الكبير سياسيا واقتصاديا ، ويقع مركز السلطة فى المجتمع الاقطاعى فى المدينة ، ويخضع الفلاحون إلى القوانين والقرارات التى يصدرها الملاك (أصحاب السلطة) وجدير بالذكر أن الحكام فى النظام الاقطاعى يعتمدون على أجهزة (ومنها الشرطة) لفرض النظام ومنع أى تمرد وقد ترتب على هذا النمط من الملكية والعمل والحياة والحكم فى هذا النوع من المجتمعات إلى وجود سكان حضريين يعيشون نوعا من المدن وهو الأمر الذى خلق نوعا من التباين بين من يعملون بالزراعة ويسكنون القرى وبين من يعملون فى غيرها ويقيمون فى المدن . ويلاحظ أن المدينة فى المجتمع الإقطاعى تعتبر مركز حضريا تتركز فيه « الصفوة » Elite الحضرية الصغيرة ، وهى تمثل نقطة الالتقاء بين المجتمع الاقطاعى والمجتمعات الأخرى القريبة أو البعيدة .

---

1 - Gideon sjoberg, 'The Preindustrial City ; Past and present' New-York , The Free press 1960.

٣ - المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث

ميز علمـــاء الاجتماع بين نوعين من المجتمعات : التقليدى traditional والحـــديث Modern ، وهما نقيضان ومتضادان . وقد أمكن تصنيف هذين النمطين نتيجة لمقارنة المجتمع الصناعى الحديث بالنمط التاريخى القديم والمجتمعات البدائية المعاصرة . ويظهر أول إختلاف بين المجتمعين فى الحجم Size ، فالمجتمعات التقليدية عادة ما تكون صغـــيرة بينما تكون المجتمعات الحديثة كبيره نسبيا ، ويترتب على ذلك أن تنظيمات المجتمع التقليدى تتميز بصغرها أو ضيق مداها وذلك مثل الأسره ، وجماعات القرابة ، ويرجع ذلك إلى أن التفاعل يحدث من خلال شبكة علاقات محدودة من الأفراد الذين يتعاملون بألفة ووجها لوجه . أما المجتمع الحديث فتنظيماته واسعة المجال وخاصة التنظيمات البيروقراطية . التى تنظم أفعال الناس طبقا لأسس غير شخصية ويجدها الناس ضرورية للتفاعل مع الآخرين الذين لا يعرفونهم معرفة شخصية .

وتعتبر القرابة ذات أهمية مطلقة بالنسبة للفرد فى المجتمع التقليدى لأنه من خلال علاقاتها وجماعاتها يحصل الفرد على عـدد كبير من حاجاته الشخصية والاقتصادية فضلا على أنها تعتبر المصدر الرئيسى للاحساس بالاطمئنان والأمن . ويلاحظ أن الواجبات القرابية على هذا النحو تتميز بأنها ملزمة وهذا هو الذى جعل روابط الأسرة وثيقة . أما فى المجتمع الحديث فالوضع مختلف ، فقد فقدت الجماعة القرابية كثيرا من وظائفها وضعفت أهمية القرابة إلى درجة ملحوظة ، وتناقصت التزامات الفرد القرابية إلى حد كبير ، ويؤكد هذا الانهيار فى النظام القرابى أن المجتمع الكبـــير الحديث يحل الآن تدريجيا محل المجتمع التقليدى الصغير [1] .

(1) Ibid, p 133.

ويكون المجتمع التقليدى عادة مجتمعا زراعيا لا تقوم فيه صناعة أو علم أو تخصصات فى المهن أو الوظائف الاقتصادية ولا يوجد فيه أيضا تقسيم دقيق للعمل Division of Labor ، وإنما يقوم التقسيم على أساس تخصيص أعمال معينة لكل من الرجال والنساء والأطفال ، ويرجع ذلك إلى أن العمل محدود للغاية ويعرفه معظم أعضاء المجتمع ، أما المجتمع الحديث فهو يقدم تقسيما واسعا ومركبا ومعقدا للعمل ، لأن النمو التكنولوجى المتزايد خلق نوعيات متباينة من الأعمال التى تتطلب مهارات متعددة وهو الأمر الذى وسع مجالات التخصص .

إن هذا التقسيم المحدود للعمل فى المجتمع التقليدى لم يؤدى إلى ظهور أى حاجة إلى أنواع محددة من المهارات أو المعرفة أو الأفكار ، فالمعرفة العامة لدى الناس وأفكارهم عن العالم والمقاييس التى يستخدمونها فى الحكم والتقييم ثابتة نسبيا ومتعارف عليها بينهم جميعا . ولهذا فإن أهداف الفرد هى نفس أهداف جميع أعضاء المجتمع . ومعنى ذلك أن المجتمع الشعبى «متجانس ثقافيا» والمجتمع الحديث «متباين ثقافيا» وقد أصبح من المتعارف عليه أن المعرفة الخاصة التى يتطلبها التخصص تؤدى إلى اختلاف كبير فى المعارف والأفكار ، وإلى تراكم التجارب الثقافية ، ومن هذه الزاوية يكون المجتمع التقليدى أكثر تماسكا وتكاملا من المجتمع الحديث، لأن من ينتمون اليه يتشابهون فى الأفعال وفى طرق التفكير ، ويتشابهون أيضا كأشخاص . ولهذا لا يكون مستغربا أن يكون التفاعل بين أفراده وثيقا وعميقا .

وخلاصة القول أن المجتمع التقليدى مجتمع صغير ومنعزل نسبيا يعيش على التقاليد الشعبية المشتركة بين جميع أعضائه ولا يخضع فيه العمـــل الا لتقسيم

محدود وبالتالى فإن درجة التمايز بين أعضائه تكون ضئيلة للغاية . وينعكس ذلك على أعضائه تشابها فى أفعالهم ومعتقداتهم وشخصياتهم ، وعمق علاقاتهم الاجتماعية واستقرار حياتهم وموجهاتهم الثقافية التى تساعد على خلق معنى قوى لانتمائهم المشترك . وفى المقابل يتمايز المجتمع الحديث بوضوح فى هذه الخصائص. فهو تنظيم إجتماعى كبير معقد والتمايز الاجتماعى فيه واضح للغاية والطبقات الاجتماعية كثيرة ومتعددة والعلاقات غير شخصية . والتغير الإجتماعى لايكون محل موافقة فقط بل هو محل ترحيب وفخر أحيانا .

٣ ـ المجتمعات فى مرحلة التحول

كانت المجتمعات التقليدية والإقطاعية موجودة فى معظم قارات الأرض فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ،الا أنها تعرضت لتغيرات عميقة وجذرية، وبالرغم من أنها لم تصبح بعد مجتمعات حديثة بالمعنى المعروف الا أنها أيضا لم تعد تلك المجتمعات التقليدية التى كانت عليها من قبل أى أنها مجتمعات فى مرحلة التحول Societies in Transition نتيجة لما يجرى فيها من تحديث لنظمها وثقافتها .

وتقدم هذه المجتمعات لدارس المجتمع معملا طبيعيا لدراسة المجتمع الإنسانى ونظمه الاجتماعية ، وتتيح له فرصة للدراسة المقارنة . إن التحديث الذى ينمو الآن يتطلب بين ما يتطلب تغـــيرات جذرية فى النظم الاقتصادية والسياسية مما يؤدى إلى تغيرات فى تركيب السكان وإتجاهاتهم ، كما يخلق جماعات لم تكن موجودة من قبل مثل الأحزاب السياسية وإتحادات العمال والنقابات المهنية ، وهذه تسعى إلى كسب ولاء الشباب وثقتهم بدرجة أكبر من تلك التى يمنحونها لقبائلهم وقراهم وجماعاتهم القرابية وحتى لجماعاتهم الدينية التى كانت لها السيطرة

فى المجتمع الاقطاعى (١).

٤ ـ المجتمع الجموعى

كان ظهور علم الاجتماع نتيجة مباشرة للطبيعة «المشكلة» للمجتمع الحديث، التى كانت نتيجة مباشرة للتصنيع الذى هدد الجماعات الصغيرة التى كانت تبدو أساسية للوجود الإنسانى. ومن أهم صفات المجتمع الحديث الكبر، والتركيب، والتصنيع، والحضرية، والبيروقراطية. وتحول العلاقات الاجتماعية من قيامها على الأساس الشخصى إلى اللاشخصى ومنذ أن كتب فردينانذ تونيز مؤلفه عن «المجتمع المحلى» و «المجتمع» الذى تابع فيه وصف أنماط المجتمعات من خلال المدخل الثنائى (مترى مين ـ دور كايم .. الخ) بدأت أجيال متعاقبة من السوسيولوجيين تستنتج مجموعة من النتائج عن تنظيم المجتمع الحديث. وقد أكدوا جميعا على فقدان الروابط الاجتماعية التى تربط الفرد بالمجتمع ويطلق على المجتمع الحديث أحيانا إسم المجتمع الجموعى Mass Society الذى تنطوى فكرته الاساسية على أفتراض فشل المجتمع الحديث فى ايجاد المضمون الجماعى Communal Context الذى يستطيع الانسان من خلاله أن يجد معنى وقيمة لوجوده المشترك كما يجد العلاقات الوثيقة الحميمة مع أفراد آخرين مثله.

ومن أهم سمات المجتمع الجموعى أن يتحول فيه الفرد إلى شخص جموعى على أساس أن انعزاله يحرمه من العلاقات الاجتماعية، ولو أنتشر هذا الانعزال لترتب عليه انحلال الجماعات الاجتماعية. الا أن هذا الوصف فيه شيء من المبالغة فالمجتمع الحديث

---

1 - Gideon sjoberg, The Rural-Urban Dimension in Preindustrial, Transitional, and Industrial Societies' in Robert Faris. Handbook of Modern Sociology, Chicago. 1964, pp 127-160

هو شبكة من الجماعات الاجتماعية الواسعة المركبة من جميع الاشكال والأحجام: الودية، المدنية، التربوية، الجماعة المحلية، المهنية، الإقتصادية، السياسية الايديولوجية ... الخ. وجميع فئات الناس ينتمون إلى واحدة أو أكثر من هذه الجماعات ومن خلال انتمائهم هذا يندمجون في المجتمع الكبير.

وقد أطلق علماء الاجتماع مصطلح « المجتمع متعدد الجماعات » Multi Group society الذي يعطوا معنى لفكرة شبكة العلاقات المركبة لبناء الاعتماد المتبادل لاعداد كبيرة من الجماعات (١). فليس كل الناس بلاجذور لأن معظمهم في واقع الأمر يرتبطون بمجتمعهم بطريقة تعطي معنى لحياتهم وترابطهم في علاقات منظمة معياريا مع الآخرين.

الجماعات الصغيرة

تختفي اليوم أنماط الجماعات الاجتماعية التي كانت تميز المجتمع التقليدي كالقرابة والعشيرة والقرية، ويتم هذا بصورة تدريجية ومتكررة، إلا أن نوعا من الجماعات التي تميز المجتمع الحديث بدأت تحل محلها وهي الجماعات التي تتميز بالطابع الرسمي وكبر الحجم والتخصص. والاتجاه السائد اليوم أن الكيانات الصغيرة (المجتمعات التي تتميز ببنائها المحدود) تميل إلى الإندماج بصورة أو بأخرى في كيانات أكبر، ومع ذلك فإن التنظيمات المحدودة والصغيرة لا تزال ظاهرة ملحوظة في المجتمع الحديث مثل الأسر وجماعات الأصدقاء وفرق العمل والمجتمعات المحلية. ويضرب بعض الدارسين مثلا على ذلك بقولهم إن هناك سلسلة من التنظيمات تبدأ من الجماعة الأولية حتى البيروقراطية وهو

---

1 - Robert MacIver, 'The Web of Government' New-York Macmillan, 1947.

الأمر الذى يصور ما ينطوى عليه المجتمع الحديث من بناءات يتباين مداها من الصغر إلى الكبر حيث تكون الزيادة فى الحجم كتغير كمى لها نتائج كيفية ملحوظة . إن هذا التباين فى الحجم ليس وحدة البعد الأساسى فى فهم المدى الذى وصلت اليه الصور الاجتماعية فى المجتمع الحديث ، لأن بعض الجماعات الاجتماعية تتميز بالتماسك والتكامل فى الوقت الذى تكشف جماعات أخرى عن تفكك فى بنائها وعن افتقادها للتنظيم المتسق .

هذا وقد أدت الدراسات العديدة التى أجريت حول مظاهر ونتائج هذا النوع من التنظيم فى المجتمع الحديث إلى استقرار الفكرة القائلة بأن العالم يواجه اليوم زيادة فى التنظيمات الإنسانية الواسعة الحجم والمعقدة ، كما أنه أصبح من المعروف أن مثل هذه الأفكار تشكل عنصرا هاما فى اهتمامات علم الاجتماع منذ قرن مضى لكن فكرة الجماعة الصغيرة Small Group كمسألة علمية فى علم الاجتماع صاحبت فكرة التنظيمات الواسعة المدى وعلى الأخص البيروقراطية كمسألة علمية بوجه عام ، ومعنى ذلك أن الفكرة التى تنادى بأن الحجم يعتبر متغيرا مهما تشير فى واقع الأمر إلى أن كل نمط سواء كان كبيرا أو صغيرا لابد أن يختلف بناء على جوانب عديدة ، ويضع بعض علماء الاجتماع الأمر بصورة أخرى عندما يقولون أن أى زيادة فى الحجم لا بد أن تفضى إلى نتائج كيفية فى التنظيم ، فالجماعات التى تزداد حجما وتتغير بذلك كيفيا ليست مجرد جماعات أكبر بل إنها جماعات تختلف فى النوع ، ولهذا أصبح هناك اهتمام بتحرى الاختلافات التى تميز الجماعات الصغيرة عن الكبيرة ، وكلما زاد البحث فيها زادت أهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع .

وتمتد جذور اهتمام علم الاجتماع فى النتائج المترتبة على نمو حجم الجماعات إلى أوائل القرن الماضى وخاصة عندما كان المفكرون الاجتماعيون قلقين من

النتائج المترتبة على تصنيع المجتمع ، وما ترتب عليه من فقدان للتقاليد والعادات والقرابة ومشاعر المجتمع المحلى ، تلك التى كان لا بد من مواجهتها كلما زادت التنظيمات الاجتماعية أتساعا وظهرت صور جديدة للحياة الاجتماعية ، ولعل تحليل اميل دور كايم لتقسيم العمل كان مقصودا به أن يكشف الستار عن النتائج الاجتماعية المتضمنة فى زيادة حجم الجماعات وتعقدها البنائى ، ومن خلال دراساته المتعمقة استطاع أن يتعرف على مسار التغير الاجتماعى فى العالم الغربى ، وشارك الآخرين الاهتمام بصعوبات الاتفاق والتكامل التى تترتب على اتجاه التنظيم الاجتماعى التقليدى إلى التضخم والتعقد ، كما أن تنميط فرديناند تونيز الشهير « المجتمع المحلى والمجتمع » كان قائما على الاعتراف بأن الاتجاه الأساسى فى العالم الغربى هو التحول من التنظيمات الصغيرة إلى التنظيمات الواسعة المدى .

إن اهتمام عالم الاجتماع بدراسة الجماعات الصغيرة قد فاق اهتمامه بأى موضوع آخر فى بعض الأحيان ، ولهذا فإنه من المهم أن نشير وباختصار شديد ما أمكن ذلك إلى المشاكل السوسيولوجية التى تطرحها الجماعة الصغيرة وخاصة بعد أن انشغل علم النفس لفترة طويلة ولا زال معمليا وتجريبيا بكثير من المواقف التى تواجه هـذا النمط من التنظيم الاجتماعى ، إن اهتمام علم الاجتماع بالجماعـة الصغيرة لا زال حتى الآن منصبا على « الجماعة الأولية » وليس معنى ذلك أنه اهتمام بالتنشئة الاجتماعية التى قادت كولى إلى اكتشافها ، ذلك أننا نلاحظ اليوم أن قدرا كبيرا من البحث فى علم الاجتماع يعطى أهمية خاصة لنوع محدد من الجماعات الصغيرة ، وربما يكون أوليا بالمعنى الذى قصده كولى وهو ما يطلق عليه اسم « جماعة النظراء » .

إن دراسة الجماعة الأولية بما فيها جماعـــة النظراء تجذب انتباه علماء الاجتماع لعـدة أسباب: منها أن الاهتمام المستمر بعملية التنشئة الاجتماعية للراشدين التى تلعب فيها الجماعـة الأولية (كالأسرة وجماعة النظراء) دورا أوليا، وهناك أيضا الاهتمام بالضبط الاجتماعى ولكن هذين الاهتمامين ليسا إلا وجهين فقط لتلك المسألة التى لا زالت تشغل علماء الاجتماع وهى العلاقة بين الفرد والجماعة، ويرى عدد من علماء الاجتماع أن دراسة الجماعة الصغيرة والأولية ميدان ممتاز لفحص الأفكار المتعلقة بهذه المسألة. إلا أن هناك مسألة جوهرية تجعل دراسة الجماعة الأولية وخاصة إذا نظرنا إليها باعتبارها جماعة من النظراء تدور حول وظيفة الجماعة الصغيرة داخل بناء الجماعات الكبرى، حيث لا ينظر إلى الجماعات الصغيرة والكبيرة على أنها ظواهر متعارضة، لأن الجماعات الكبيرة تقسم دائما إلى جماعات صغـــيرة متباينة الحجم تشتمل على بعض ما يمكن أن يسمى صغيرا أو أوليا. إن كلا من هذه الاهتمامات المتعلقة بالجماعـة الأولية كأداة للتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى وكوسيط بين الفـــرد والجماعة الكبيرة توحى بأن الجماعة الأولية تعتبر نمطا حيويا من أنماط الجماعات الاجتماعيـة حتى فى المجتمع الحديث الذى يتميز بالبناءات الاجتماعية الواسعة المدى.

الفصل الثامن

التدرج الطبقى

خلال فترات من الثبات النسبي التي مرت في تاريخ البشرية كانت الأنماط القائمة للتدرج الطبقى تبدو وكأنها جزء من النظام الطبيعى للاشياء . وكان هذا التدرج يعد مقبولا من الناس دون اعتراض منهم أو مناقشة حيث كانوا يعتبرونه أمرا حتميا وطبيعيا . ولكن فى فترات التغير وعدم الاستقرار أصبح تفوق بعض الناس أو تميزهم دون الآخرين موضع تساؤل ، وقد ثارت هذه التساؤلات عند حدوث الأزمة العالمية التى صاحبت قيام التصنيع فى أوربا ، حيث فقدت نظم الامتيازات التى سادت لفترات طويلة قوتها نتيجة لظهور النظام البورجوازى . ففى ذلك الوقت ظهر تساؤل آخر عما إذا كان تقسيم الناس فى طبقات غير متساوية ضروريا للمجتمع ، كما حلم البعض بإمكانية وجود المجتمع اللاطبقى الذى يكون فيه جميع الناس متساوين .

وقد أصبحت طبيعة التدرج الطبقى **Stratification** مشكلة فى علم الاجتماع ، وذلك لأن كثيرا من المفكرين العلمانيين كانوا يؤمنون بفكرة المساواة الإجتماعية ويرفضون تماما فكرة الامتيازات والطبقة الموروثة. وكان هؤلاء المفكرون ينادون بالمساواة ويؤكدون أن اللامساواة الاجتماعية التى تظهر فى شكل المركز الموروث أو المولد المميز لا تشكل ضرورة بالنسبة لوجود المجتمع أو استمراره ، كما أنهم كانوا يرفضون بشدة الفكرة القديمة القائلة بأن هؤلاء الذين يولدون فى طبقات عليا هم متفوقون ومتميزون بالطبيعة ، أما من هم دون ذلك فهم أدنى درجة أو منزلة بالطبيعة أيضا . هذا وقد ركز البحث

السوسيولوجى على فكرة التدرج الطبقى فى المجتمع ، وذلك بالبحث عن الأسباب الانسانية والاجتماعية التى أدت تاريخيا إلى ظهور الطبقية ، والتساؤل عن مدى حتمية الطبقات بالنسبة لاستمرار المجتمع وقدرته على تحقيق أهدافه ومدى مقدرة الانسان فى خلق وإيجاد مجتمعات لا طبقية .

والملاحظة التجريبية لهذه المشاكل تبين أن التدرج الطبقى يتخذ أشكالا عديدة ، فنظرة إلى الوراء عبر التاريخ تكشف عن طرق عديدة سلكها تدرج الناس فى مجتمعاتهم ونظرة أخرى إلى العالم من حولنا تبين اختلافات فى التدرج الطبقى فى مجتمعات كثيرة معاصرة ، وقد اكتشف علماء الاجتماع حلقة واسعة من الأشكال الاجتماعية المختلفة للتدرج الطبقى ، ومثال ذلك أن الطبقة الإجتماعية فى أثينا القديمة تبين أنهـا ليست هى الموجودة فى قرية العصور الوسطى ، أو فى الدولة الصناعية الحديثة ، فشكل الطبقة فى كل حالة يتفق مع نوع المجتمع الذى تنتمى إليه ، وهذا يؤدى بالتالى إلى أشكال لانهاية لها من التدرج الطبقى .

ولم يكن الإهتمام بالأشكال العديدة للتدرج الطبقى من الموضوعات المدرسية الجامدة ، بل على العكس كان اهتماما حيويا ، أدى إلى ظهور منظور يمكن عن طريقه فهم بناء الطبقة فى المجتمع الصناعى. أى أن الطبقة Class كشكل للتدرج الطبقى كانت فى طليعة هذه الاهتمامات. وقد ركز كارل ماركس على بناء الطبقة فى المجتمع الصناعى كمفتاح لتطوراته وتغيراته النهـائية ، وأرجعها للتنظيم الاقتصادى للمجتمع ولتقسيم العمل . وقد سيطر منظوره على الفكر الأوربى إلا أنه قوبل بمقاومة وخاصة من القطاعات المتعددة للفكر الليبرالى والمحافظ الأمر الذى أدى إلى ظهور تفسيرات متصارعة عن معنى التدرج الطبقى فى المجتمع الحديث . فإذا كان كارل ماركس يحدد مفهوم الطبقة الإجتماعية والتدرج

الطبقى من منظور ما يعرف الآن بنظرية الصراع Conflict Theory فقد ظهر اتجاه آخر مقابل لدراسات التغير الطبقى يؤكد أهمية وجود التدرج الطبقى فى المجتمع ويتزعمه ماكس فيبر ولويد ورنر Lloyd Warner .

وينحصر الطابع الغالب على نظرية الصراع فى النظر إلى الطبقة الإجتماعية ككل ، والبحث فى التأثير المتبادل بينها وبين بقية الطبقات التى تكون البناء الإجتماعى والاقتصادى للمجتمع . وهكذا نجد أن نظرية الصراع تبتعد عن تصور الصراع الذى قد يحدث داخل الطبقة ، إذ تركز فقط على الصراع الذى يحدث بين الطبقات. ويرجع ذلك التصور إلى الظروف التى من خلالها صيغ الفكر الماركسى عن الطبقة ، إذ أن إيديولوجية (١) الصراع بين الطبقات واستغلال طبقة لأخرى ، وتصور تاريخ كل مجتمع على أنه تاريخ الصراع الطبقى، كانت كلها أفكار محورية فى آراء ماركس والماركسيين، إلا أنه مع ذلك كان له أعظم الأثر فى توجيه مسارات نظرية الصراع فى التراث السوسيولوجى الحديث فيما يتعلق بدراسة التدرج الطبقى .

ويستند الاتجاه الماركسى أساسا إلى خلفيات فلسفية وتاريخية ، حيث فسر

---

١ ــ الايديولوجية كلمة معربة وأصلها مركب من ideé بمعنى فكرة ، Zogie بمعنى علم ، فهى اشتقاقا علم الافكار ، ويراد بها ذلك العلم الذى يدرس الافكار من حيث نشأتها واشكالها وقوانينها الا أن اللفظ عند شيوعه من القرن التاسع عشر كان قد انطوى على شىء من السخرية ، وأريد به البحث الأجوف والمناقشة غير القيمة ــ الا أنه استرد إعتباره على يد كارل ماركس حيث كان يعنى به مجموعة الآراء والمعتقدات التى تسود فى مجتمع ما . فالأيديولوجية هى صيغة المجتمع ، واذا قال بها شخص فانما هى وحى من الظروف الأقتصادية والسياسية والفكرية التي يعيش فيها، لذلك كانت هناك ايديولوجيات قلبت المجتمع وغيرت أوضاعه .

الصراع وتحديد الطبقة من خلال تصور التاريخ والأحداث التاريخية التى مرت بها المجتمعات أو الطبقات التى كان ماركس يحللها بقصد تأكيد وجهة نظره فى الصراع الحتمى . كما أن الظروف التى مر بهـا المجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشر جعلت ماركس يرى التاريخ الانسانى متمثلا فى الصراع القائم بين طبقتين: الطبقة المالكة ذات الثروة والسلطة والطبقة التى لا تملك شيئا سوى جهدها الذاتى . ويرى أصحـاب نظرية الصراع أن العوامل الاقتصادية هى وحدها المسئولة عن كافة التغيرات والتطورات التى حدثت وتحدث فى العالم ، كما أن « المادة » وليس الفكر هى أساس الوجود . ويفسر كارل ماركس ذلك من خلال الواقع تفسيرا جدليا إذ يقول أن كل شىء يتطور نتيجة قوى متعارضة ومتصارعة ، وليس هناك شىء موجود إلا إذا وقف فى وجه ضده ، ولا مناص من أن يدخل معه فى صراع ، ويضيف ماركس أن قانون التطور الطبيعى يشير إلى أن النصر يكون دائما فى جانب الطبقة الأكثر عددا والأسوأ حالا . وقد قسم ماركس التاريخ إلى خمس مراحل تمثل خمسة أنماط أساسية لعلاقات الإنتاج وهى : -

١ - الكميون البدائى Primitive Commune

ويتكون من جماعات من الناس فى المرحلة الأولى لتطورها ، حيث تكون وسائل الانتاج قليلة وجماعية ، ولا تظهر فيها طبقات اجتماعية أو تقسيم للعمل .

٢ - العبودية (الرق) Esclavage :

وهى التى ظهر فيها أول تقسيم للعمل مما أدى إلى زيادة القوى الإنتاجية ، وقد ظهرت فيها كذلك الملكية الفردية وما صاحبهـا من مظاهر اللامساواة

الاقتصادية . وجدير بالذكر أن تقسيم العمل فى هذه المرحلة أدى إلى الفصل بين الحرف والزراعة مما أسرع فى تحطيم الكميون البـــدائى عن طريق زيادة الإنتاج وتأكيد الدعوة إلى العبودية التى دعمها الدولة الطاغية ، التى جعلت من الوجود الطبقى (السادة والعبيد) أساس التنظيم الاجتماعى . وقد حدثت ردود فعل لهذا الطغيان عند ما انفجر فى اليونان وربما ذلك النضال المرير بين الطبقات المكونة للمجتمع

٣ ـ الاقطاع (رق الأرض) :

ويشير إلى المرحلة التى أدى فيها التقدم المستمر فى وسائل الانتاج مثل تحسين استخدام الحديد واستعمال المحراث الحديدى ، والطاحونة المائية إلى تحطيم المجتمع القائم على العبودية وظهور نظام عبودى آخر هو نظام عبودية الأرض الذى اعتبر مطلبا ضروريا للانتاج.

٤ ـ الرأسمالية :

وهى التى حل فيها البرجوازيون محل النبلاء الاقطاعيين بسبب التطور الهائل الذى حدث فى التجارة . واستأثرت الطبقة الجديدة بالثروات واحتكرت وسائل الإنتاج نتيجة لظهور الصناعة ، وظهور التخصصات الدقيقة واحتدام النضال الطبقى ، وكان التناقض الأساسى فى النظام الرأسمالى يقع بين الطبقة العاملة وأصحاب رأس المال [١] .

---

١ — عبد الجليل الطاهر ، مسيرة المجتمع ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان. ١٩٦٦ ٢١٢ — ٢١٤

٥ ـ الاشتراكية والشيوعية :

يحمل هذا النظام الملكية الجماعية لوسائل الانتاج تحت سيطرة طبقة البروليتاريا (١) . وتعتبر الاشتراكية المرحلة الأولى التي تمهد لهـــذا التحول الذي يتحقق في الشيوعية وهي المرحلة الأخيرة ، حيث يوزع عائد الإنتاج طبقا للحاجات .

ويظهر هذا التعاقب الجدلي كيفية تغير بناء المجتمعات باستمرار ، ففي كل مجتمع يوجد القديم الذي ينهار والجديد الذي يزدهر . ولهذا تفسر المادية التاريخية حركة المجتمع وتقدمه تبعا لحركة القوى المنتجة وتقدمها ، والعلاقات التي تقوم عليها ، فما دام الانتاج دائم التحول والتطور فإنه لا يتوقف طويلا في نفس المستوى ، والتحليل الجدلي هو الوحيد القادر على تفسير كيف أن نظاما اجتماعيا يحل محل نظام آخر ، ولماذا تتغير الأفكار الاجتماعية ، ولماذا تقضي الضرورة في بعض الأحيان بإعادة صهر النظام الاجتماعي والسياسي كله . فالانسان ليس كائنا سلبيا أمام الطبيعة فهو يبتكر دائما أساليب جديدة للانتاج لاشباع حاجاته . وعند ماتتغير أساليب الانتاج وتقوم علاقات إنتاج جديدة، وتستمر لفترة طويلة فإنها تصبح عائقا أمام قوى الانتاج المتطورة فتدخل في

---

١ ـ يعتبر هذا اللفظ في مدلوله الأصلي ضربا من الخصوبة وانتاج الاطفال وكان يطلق على أضعف طبقة في المجتمع ، وأشد طبقاته بؤسا واحتقارا ، الا أن كارل ماركس استخدم هذا المصطلح وأحياه وأطلقه على العمال الأحرار الذين يعيشون من أجر عملهم في الصناعة ، ويتميزون عن الفقراء والمعوزين لأنهم برغم فقرهم لديهم مهارة تمكنهم من العمل والكسب ويتميزون أيضا عن الطبقة العاملة Working Class التي تقتصر على عمال الصناعة بينما تشمل البروليتاريا ـ في رأيه ـ الى جانب كل هؤلاء مـــن يعمل بأجر يعتمد عليه في معيشته ، كعمال الزراعة وصغار الموظفين والعاملين في مجال الخدمات .

صراع مع علاقات الانتاج الجديدة وعندئذ تدافع علاقات الانتاج القديمة عن نفسها فى محاولة لسحق قوى الانتاج الجديدة وهكذا .

وأهم نقد نشهره نظرية الصراع فى وجه الاتجاه البنائى ـ الوظيفى أنه يعتمد على نموذج ثابت Static ويهمل ديناميات التغير الاجتماعى ، كما أنه يفشل فى التعرف على أسباب التوزيع غير المتكافىء للقوى فى المجتمع ، ذلك أن ما يكون وظيفيا بالنسبة لجماعة ما قد لا يكون كذلك بالنسبة لجماعة أخرى. ولهذا تركز نظرية الصراع على عوامـــل وديناميات التغير والتنقل والصراع بين الطبقات وليس داخل الطبقـة الواحدة ، كما تركز على « القوة » Power أو السلطة كبعد أساسى فى إحداث الصراع الطبقى وأخيرا تنظر إلى الصراع وكأنه أمر حتمى لبقاء المجتمع واستمراره .

ويحدد مفهوم الطبقة فى نظرية الصراع على أســـاس المكان الذى يشغله أعضاؤها فى نسق الانتاج الاجتماعى والاقتصـادى ، وما يؤدى إليه من تشابه فى الدخل والمنزلة وأسلوب الحياة ، ومدى ملكية وســـائل الانتاج ، وهذا التحديد يوضح أن هذه النظرية تعتمد فى أساسها على المادية من جانب كما سبق أن أشرنا وعلى النظر إلى الطبقـــة كوحدة متكاملة من جانب آخر ، ويقوم الوجود الطبقى على مدى استغلال طبقه لأخرى ، وهذا يؤكد أن الصراع بين الطبقات هو أساس الوجود فى المجتمع .

وفى مقابل نظرية الصراع تحاول نظرية «التكامل» أن تضع إطارا تصوريا لتفسير الطبقه من خلال ثباتها ، انطلاقا من وجهة النظر القائلة بعدم إمكانية وجود مجتمع بلا طبقات ولأنهـــا ضروريه فى كل مجتمع ، وقد اتخذت هذه النظرية من أفكار ماكس فيبر المنطلق الأساسى لها عندما تذهب إلى تحليل

التدرج الطبقى وتفسيره ، فهى تركز بصفة أساسية على مفهوم « المكانة » status الذى وضعه فيبر ، كما تؤكد على تعدد أبعاد التدرج الطبقى وعكانه ، وعلى التساند المتبادل بين مكونات الطبقة . وبين نسق التدرج الطبقى وغيره من الانساق الاجتماعية التى تدخل فى بناء المجتمع . ويقوم تصور « المكانة » على ما يطلق عليه أنصار هذه النظرية إسم « التقييم » سواء كان هذا التقييم مرتبطا بأعضاء المجتمع أو بالقيم الاجتماعية السائدة ، ويستند تعدد أبعاد التدرج الطبقى إلى أن الوضع الطبقى للفرد لا يتحدد بفعل عامل واحد ، وإنما على أساس مجموعة عوامل متعددة تتداخل بعضها مع الأخرى ، حتى أنه يمكن القول بوجود أشخاص فى أعلى درجات السلم الطبقى وأشخاص فى أسفل السلم الطبقى . أما التساند المتبادل بين مكونات الطبقات فهو يشير إلى الأدوار التى يؤديها نسق التدرج الطبقى فى البناء الاجتماعى ككل ويؤكد غالبية أنصار نظرية التكامل على أهمية الأساس البيولوجى فى تحديد الوضع الطبقى حيث يرون أن العنصر القرابى يعمل مع غيره على تحديد الوضع الطبقى .

وتقوم نظرية التكامل على اتجاهين أساسيين : أولهما « الاتجاه البنائى الوظيفى والثانى الإتجاه التحليلى . ويؤكد الاتجاه الأول على الوظائف التى يؤديها نسق التدرج الطبقى من جانب ، والوظائف المعوقة له من جانب آخر ، وفى هذا الصدد يؤكد الوظيفيون على العمليات الاجتماعية التى تسود فى أى بناء إجتماعى والارتباطات الوظيفية التى تقوم بين أجزائه ، حيث تعمل الطبقات الاجتماعية على تجانس المجتمع وتكامله . أما الإتجاه التحليلى فيربط بين الطبقة وبين الوحدات القرابية ، مع تفسير معنى التدرج الطبقى فى ضوء نسق القيم العام . وعموما ، يرتكز الإتجاهان على تقييم المكانة الإجتماعية سواء بالنسبة للفرد أو الطبقة ، ويعتبر هذا التقييم دعامة الإتجاه الكيفى فى مجال القياس

الطبق، بمعنى تحديد الوضع الطبقى للفرد على أســاس تقييمى من وجهة نظر أعضاء المجتمع أو من وجهة نظره هو .

طبيعة التدرج الطبقى :

إن نظرة متعمقة لطبيعة الحياة الاجتماعية للانسان خلال مراحل التاريخ المختلفة تبين لنا بشكل قاطع أن بعض الناس يكونون أغنياء وبعضهم فقراء، وبعضهم يستمتع بامتيازات معينة والبعض الآخر لا يستمتع بشيء، وقلة من الناس يكونون موضع الاعجاب ومعظمهم لا يكونون، هذا يبين لنا حقيقة هامة وهى أنه لا توجد أبدا مساواة فى توزيع السلع أو الفرص فى المجتمع، أو كما يقول ماكس فيبر Max Weber أن فرص الحياة Life Chances لا تكون متساوية بالنسبة لجميع الأفراد، وهذا الإختلاف فى توزيع فرص الحياة يخلق التدرج الطبقى، وكل من يشتركون فى نفس فرص الحياة يكونون طبقة مستقلة بين الطبقات الأخرى، ويعتبر عدم المساواة فى تقسيم أو إقتسام فرص الحياة صورة أساسية فى بناء كل مجتمع، كما أن جذورها قديمة حيث كانت بدايات تصور فكرة التدرج الطبقى ذات طابع ينتمى إلى أبعد مايشير ذلك من معنى، فقد تعرض لها بالبحث والمناقشة فلاسفة اليونان من أمثال أفلاطون وأرسطو، وتعرض لها أيضا علماء الإسلام وفلاسفته، وكذلك فلاسفة عصر النهضة فى أوربا من أمثال ميكيافيللى وجون ميلار . وقد ظلت هذه المسألة موضع بحث ودراسة حتى عصرنا الحالى . وكانت المناقشات تحتدم دائما بين هؤلاء الذين يوافقون على اللامساواة فى المجتمع باعتبارها مشروعة وضرورية، وهؤلاء الذين يرفضونها باعتبارها غير مشروعة وغير ضرورية . وإذن يمكن القول بأن المناقشات كانت تدور بين وجهة النظر المحافظة ووجهة النظر الراديكالية حول أهمية وضرورية ومشروعية التدرج الطبقى فى المجتمع .

أ ـ وجهة النظر المحافظة :

يصر أصحاب وجهة النظر المحافظة على أن الأفراد يولدون فى طبقة معينة تحدد حقوقهم وواجباتهم . وقد تأثر أصحاب هذا الاتجاه بالنظرية التطورية الداروينية التى تؤكد الإختيار الطبيعى لهؤلاء الذين يتميزون بمواهب خاصة عن هؤلاء الأقل موهبة . ولذلك فهم يؤكدون أن عدم المساواة فى الأوضاع الإجتماعية تعكس الاختلافات الطبيعية بين الأفراد(١) وبمرور الوقت فقدت الحجج الداروينية قوتها . وحلت محلها حجة أخرى قدمها المفكر الإجتماعى الايطالى جاتانو موسكا Gaetano Mosca (٢) استجابة لانتشار الاشتراكية وظهور أحزاب الطبقة العاملة الجوهريـــة فى أوربا التى بقيت قوية ومؤثرة ويرى موسكا أن التنظيم السياسى الضرورى للمجتمع ينجم بالضـــرورة عن الظروف التى تؤدى إلى عدم المساواه فى القوة الإجتماعية ، وجدير بالذكر أن موسكا ينظر إلى المجتمع باعتباره مقسما إلى حاكمين ومحكومين ، ويضيف إلى ذلك أن الطبقة الحاكمة سوف تكون دائما لديها امتيازات اقتصادية أكثر من غيرها .

وعموما فقد ساد فى ذلك الوقت تصور مؤداه أن حقيقه الوضع الإجتماعى تفرض على الأفراد عن طريق التقاليد الخلقيـة ، أو أنهـا تفرض فى ظل التطورات الصناعية الجديدة عن طريق الجزاءات القانونية ولهذا تكون العلاقة بين السيد والخادم مثلا ، علاقة تعاقدية ينظمها القانون ، كما أن أساس التعامل بينهما يكون عن طريق المدفوعات النقدية التى تستبعد كل المعانى الخلقية لهـذه

---

1 - William Graham Sumner, 'What-Classes Owe to Each Others (N-Y, Harper and Row, 1903)

2 - Gaetano Mosca, 'The Ruling Class (N.Y: McGraw - Hill 1939)

العلاقة . إذن تكون الطبقات الإجتماعية فى المجتمع الصناعى عبارة عن تجمعات من الناس لهم مواضع متشابهة فى المجتمع ويجمعهم رابط واحـد هو المصلحة الإقتصادية . وقد حاول المفكرون المحافظون فى القرن التاسع عشر أن يعيدوا تأكيد الرابطة الخلقية التى تربط الأفراد بالمجتمع بعيداً عن العلاقات التعاقدية أو عن مظاهر التبادل النقدى .

ـ النظرة الراديكالية :

لقد استجاب الراديكاليون للتصنيع بطريقة عكسية ، إن تجربة الصناعة فى رأيهم تعتبر أزمة المجتمع الإنسانى وتاريخه ، ومع ذلك لم ينظروا اليها بيأس ، بل أكدوا أن الفرصة أصبحت متاحـة للتقدم ، وهم وإن كانوا يتفقون مع المحافظين فى التحدى الأخلاقى الذى ترتب على التصنيع ، إلا أنهم تصوروا أن الصناعة أضافت حملا ثقيلا على كاهل العمال . وأهم ما استأثر باهتمام الراديكاليين فى هذه الفترة ذلك الصراع الذى يتزايد بين العمال وأصحاب رأس المال ، والذى يزداد عنفا كلما زاد التوسع فى استخدام الآلات والعناية بانتاجية العامل . وقد كان الاعتقاد السائد أن الزيادات الحتمية فى الثراء وفى الفقر ستؤدى الى اتجاهات غير أخلاقية عند الفقير والغنى على السواء ، فالغنى سيزداد طمعا فى مزيد من الثروة ، ويصاحب هذا الطمع عدم تقدير للقيم الثقافية والإنسانية ، كما أن الفقير سيزداد إزدراء لحياته وعبوديته للآلة ، ولعل هذا التدهور الخلقى وهذا البؤس هو الذى حرك الراديكاليين للتعجيل باليوم الذى يتم فيه القضاء على هذا التدهور ويعاد فيه تنظيم المجتمع (١).

ومن الواضح أن المحافظين والراديكاليين يختلفون فى تصور أزمة المدنية الصناعية ، فالمشكلة الخلقيـة عند المحافظين هى فى ضعف الروابط بين الفرد

(١) محمد عاطف غيث «علم الاجتماع» ص ٤١٣ — ٤١٤ .

والجماعة التي ينتمي اليها . ولذلك تعني الفردية عندهم تدهور المستويات الخلقية التي يستطيع الفرد عن طريقها توجيه سلوكه. أما بالنسبة للراديكاليين فالمشكلة الأخلاقية هي في القهر وفي سحق فرص الفرد للنمو والتقدم ، ومن الطبيعي أن يتصور كل من الفريقين اصلاح المجتمع من الزاوية التي يعتقد أنها مصدر الشر التي تمخض عنه التصنيع . ولذلك يكمن اصلاح المجتمع عند المحافظين في إعادة تكامل الفرد والجماعة . أما الراديكاليون فإن اصلاح المجتمع عندهم لن يتم إلا إذا خلقت ظروف اجتماعية جديدة تعيد للانسان كرامته وتشبع حاجته في التعبير عن ذاته بحرية دون أن يتعرض للقهر والاستغلال ،

ح ـ الدراسات السوسيولوجية المعاصرة :

يبدو من الوهلة الأولى أن الدراسات السيوسيولوجية المعاصرة للترتيب الطبقي لا تتصل بأحد الاتجاهين السابقين ، إلا أنها برغم هذا تدور حول الإجابة على الأسئلة التي كانت محور اهتمامها ، وقد تبين لنا أن محافظي القرن التاسع عشر كانت لديهم رغبة واضحة في الإبقاء على الأوضاع الراهنة أما الراديكاليون فقد كانوا يأملون في الإصلاح الإجتماعي وإعادة تنظيم المجتمع . وبالرغم من أن الدراسات الطبقية المعاصرة تلتزم أو تدعي الحياد السياسي إلا أن تحيزها رغم هذا يظهر في إختيارها لناحية معينة عند أي بحث للتدرج الطبقي . ومثال ذلك أن الباحث الذي يفضل دراسة العناصر الدائمة أو الثابتة في الطبقة دون غيرها يضع نفسه دون أن يدري في نطاق الاتجاه المحافظ ، كما أن الباحث الذي يفضل دراسة النواحي المتغيرة في المجتمع فإنه يجاري الاتجاه الراديكالي دون أن يدري أيضا.

وعموما ،فهناك اتجاهان رئيسيان في دراسة التدرج الطبقي يترتب على كل

منهما نتائج تتصل بطبيعة الدراسة واتجاهاتها والموضوعات الأساسية التى يركز عليها كل اتجاه .

١ ـ اتجاه التسلسل والتمايز

أصحاب هذا الاتجاه يفضلون الطريقة التى يضع على أساسها الفرد نفسه فى سلسلة المراكز البارزة فى مجتمعة ، والطريقة التى يحافظ بها على وضعه فى هذه السلسلة ، إذن يركز هذا الاتجاه على النواحى الدائمة والثابتة فى المجتمع ، من حيث تركيز الأبحاث على نظام مراتب الأفراد ، الذى يعتبر جانبا هاما فى مجال الترتيب الطبقى حيث يرتب الأفراد طبقا لعدد من المقاييس أهمها الامتياز والنفوذ .

٢ ـ الاتجاه الجمعى التغير

يهدف هذا الاتجاه إلى دراسة السلوك الجمعى من حيث مدى تأثره بالتنظيم الإقتصادى للمجتمع ، ولذلك يضع مقاييس مختلفة منها :المهنة والدخل ونمط الاستهلاك وتعتبر التغيرات التى تحدث فى المراكز المهنية وتوزيع الدخل جانبا أساسيا من أبحاث هذا الاتجاه الذى يركز أساسا على المسائل المتعلقة بالتغير حيث أن سلوك الجماعة ورأى أصحاب هذا المدخل يكون استجابة مباشرة للبيئة المتغيرة ومن المعروف أن سلوك الجماعات يعتمد إلى حد كبير على التغيرات التى تحدث فى التنظيم الإقتصادى والتوجيه السياسى للمجتمع

الطبقة الاجتماعية فى المجتمع الحديث

يجب أن نضع فى اعتبارنا دائما عند تحليل الطبقة ، تعدد أبعاد التدرج

---

(١) نفس المرجع السابق، ٤١٥.

الطبقى فى المجتمع الحديث ، والطبقة توجد فقط عندما توجد فرص للحياة مختلفة بالنسبة للحصول على السلع ومجـــالات العمل ، ويشكل هؤلاء الذين يشاركون فى نفس فرص الحياة ، أو كما يقول فيبر ، فى نفس الموقف الطبقى ، طبقة اجتماعية .

وقد تطورت الطبقات الاجتماعية فى البداية فى المجتمع الحديث ببطء شديد إذا قورنت بالأنماط القديمة الطبقة التى كانت قائمة فى اقتصاد العصور الوسطى ، إلا أن تطورها ازداد بسرعة نتيجة التغيرات التكنولوجية الحديثة التى تعتبر بالتأكيد أكثر الأمثلة وضوحا لتحول البناء الاجتماعى فى المجتمعات مصاحبا للتكنولوجيا المتقدمة . حيث أدى التقدم العلمى إلى التجديد التكنولوجى مما كان له أثره الواضح فى عمليات التخصص المهنى والوظيفى . وبتقدم التصنيع حلت التنظيمات الصناعية محل الأعمال الصغيرة المحدودة التى كانت تقوم بها الأسرة فى الماضى ، وتغير رأس المال من النموذج التنافسى الحر فى القرن التاسع عشر إلى رأس مال القرن العشرين الذى يتميز بالشركات العملاقة وكان لهذا أثره الواضح فى ظهور تغيرات جذرية فى البناء الطبقى (١) .

ونستطيع هنا أن نستعرض على سبيل المثال النموذج الذى قدمه وورنر Warner لتقسيم الطبقات فى المجتمع الأمريكى .

الطبقات العليا :

— الطبقة علوية العليا Upper-Upper وهى تتألف من الارستوقراطيين بالمولد أو الثروة ، وهم عادة ينتمون إلى الأسر القديمة العريقة .

---

(١) التحليل هنا ينصب أساسا على الاوضاع السائدة فى المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى التى تأخذ بطريقة حياتها وخاصة فى مجال النشاط الاقتصادى .

— الطبقة سفلية العليا Lower-upper وهى مشابهة للأولى فيما عدا أن أصحابها لاينتمون إلى أسر عريقة مثل أبناء الطبقة السابقة .

الطبقات الوسطى :

— الطبقة المتوسطة العليا Upper-Middle وتتألف من كبار رجال الأعمال والمتخصصين .

— الطبقة المتوسطة السفلى Lower-Middle وتتكون من صغار رجال الأعمال والكتبة وبعض العمال المهرة .

الطبقات الدنيا :

— الطبقة السفلى العليا Upper-Lower وتتكون من العمال المتخصصين .

— الطبقة سفلية السفلى Lower-Lower وتتكون من أولئك الذين يعيشون فى مستويات معيشية دنيا داخل الأحياء المتخلفة ، كالعمال غير المهرة .

ومن ناحية أخرى يرى س. رايت ميلز Mills أن القوة هى التصور المحورى المؤثر فى العلاقات الإجتماعيـــة ، ويقصد بالقوة هنا ، المقدرة على السيطرة على الآخرين . فهو يرى أن الصفوة الاقتصادية أى رجال الاعمال إلى جانب الصفوة العسكرية أى كبار رجال القوات المسلحة وكذلك الصفوة السياسية أى الوزراء ورجال البرلمان يشكلون معا ما يسمى صفوة القوة Power Elite ، وهؤلاء يجتمعون يؤثرون فى المجتمع من النواحى السياسية والاقتصادية والعسكرية من خلال ما يصدرونه من قرارات وما يمارسونه من نفوذ على مؤسسات الدولة الحيوية (١) .

1 - C. W Right Mills, 'The Power Elite' (New-York : Oxford Univatsity Press, 1956, p. 147.

١- الطبقة الوسطى

نظرا لاتساع نطاق الاعمال فى المجتمع الحديث ظهرت فرص كثيرة للعمل مقابل أجر وهى فرص لم تكن موجودة فى العصور السابقة وخاصة فى مجال الوظائف الادارية والحكومية . ونتيجة لظهور المؤسسات الكبيرة أصبحت الحاجة ماسة إلى أعداد كبيرة من الافراد الذين يقومون بوظائف فنية مختلفة مثل المهندسين وخبراء الانتاج والعلماء وماشابه ذلك. وبمرور الوقت ظهرت وظائف مهنية جديدة مثل حساب وقت العمل Time Study وتحليل الاجور والعلاقات العامة والعلاقات الصناعية والتسويق والبيع الخ ... وارتبط بهذا النمو والاتساع فى المؤسسات الكبيرة زيادة مقابلة فى المناصب وارتقاءا فى أوضاع ذوى الياقات البيضاء White Collar وخاصة بالنسبة للنساء . حيث أتاح لهن التصنيع فرصا لم تكن متاحة لهن من قبل ، وأصبحن يشغلن أعمالا كانت قاصرة على الرجال فى الماضى ويحصلن على أجور مثل الرجال تماما . وجدير بالذكر أن الزيادة فى السنوات الأخيرة لم تكن محصورة فى القوى العاملة بل ظهرت تغيرات طبقية واضحة بدخول ذوى الياقات البيضاء الطبقة المتوسطة وزيادة نسبتهم فى الوظائف . والمراكز الفنية أو التخصصية وأيضا الادارية التى يشغلونها نظير أجر . ولهذا أصبح من ينتمون إلى الطبقة المتوسطة فى المجتمع الحديث لا يشبهون أعضاء الطبقة المتوسطة فى القرن التاسع عشر الذين كانوا يحصلون على دخلهم من أعمالهم الخاصة .

هذه هى إذن الطبقة المتوسطة المعاصرة التى قضت بشكلها الجديد على المفهوم القديم للطبقة المتوسطة . إلا أننا نود أن نشير هنا إلى نقطة هامة وهى أن المهنة لا تكفى وحدها لتحديد الوضع الطبقى . فإذا قارنا بين رجلين يعملان فى مهنة

الحلاقة ، مثلا إلا أن أحدهما يملك المكان والآخر يعمل عنده ، فاننا نطلق على الاول « رجل أعمال » ونطلق على الآخر عامل لأنه يعمل نظير الحصول على أجر ، وهذا يعنى أنه على الرغم من أن المهنة واحدة إلا أن الوضع الطبقى لكل منهما يختلف .

وعموما فإنه يمكن القول بأن الطبقة المتوسطة القديمة قد اختفت نهائيا خلال هذا القرن ، وازدهرت الطبقة المتوسطة الجديدة إلى حد كبير . وعند ما يسمى العالم الاجتماعى بيتر دراكار Peter Dracker (١) . هذه الطبقة « بمجتمع العاملين » Employee Society فانه يشير إلى النمو المتزايد للطبقة المتوسطة التى تشكل بضمها إلى الطبقة العاملة غالبية السكان الذين يعتمدون فى معيشتهم على عملهم فى مهنة ما .

وكما ميزنا بين الطبقة المتوسطة القديمة والحديثة ، نستطيع أيضا أن نميز بين الطبقة المتوسطة العليا والطبقة المتوسطة السفلى أو الدنيا . فالطبقة المتوسطة العليا تشمل الهيئات الإدارية العليا وخريجى الجامعات المتخصصة ، أما الطبقة المتوسطة الدنيا فتشمل الجموع الفقيرة (ذوى الياقات البيضاء) من المشتغلين بعمليات البيع وأيضا صغار التجار وصغار رجال الأعمال وصغار المزارعين وهم الذين يملكون ويديرون المشروعات الانتاجية أو التجارية الصغرى . ويلاحظ أنه بين الأطراف العليا والدنيا هناك مدى متوسط أيضا ونستطيع فى هذه الحالة أن نرسم خطوطا دقيقة إذا كان من المطلوب أن نصل إلى حدود

---

1 — Peter Dracker, "The Employee society" American Journal of sociology, 57 (January 1953), .pp. 358-363.

فاصلة أكثر دقة بين الطبقات .

٢ — الطبقة العاملة :

بما أن العامل فى الصناعة الحديثة لا يعمل فى مهنة حرة على الإطلاق ، فالتفرقة بين القديم والحديث كما حدث فى الطبقة المتوسطة غير وارد . ويتكون أساس الطبقة العاملة ، تحت ظروف التصنيع ، من العمال متوسطى المهارة الذين تحتويهم مباشرة عملية الإنتاج الصناعى ومع ذلك تنقسم طبقة العمال إلى طبقات تبعا لنوع العمل الذى يقومون به . فالعمال المهرة الذين يحصلون على أجر مرتفع هم « صفوة » الطبقة العاملة . وفى المقابل توجد طبقة العمال غير المهرة الذين يعملون فى الشركات وفى خدمة الصناعات فى أعمال غير متخصصة وهم من ذوى الخبرة المحدودة ولذلك تنخفض أجورهم إذا قورنت بأجور العمال المهرة . ويمكن أن نشير هنا إلى طبقة متقلصة وهى خدم المنازل والتى تنتمى اليها نسبة عالية من الاناث ، وكل هؤلاء يمكن إدراجهم تحت مفهوم الطبقة العاملة .

إن هذا التمييز بين هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة يبين بصورة عامة أنها تتكون من طبقة ماهرة من الحرفيين الذين ينتمون إلى الإتحادات المهنية ، وطبقة كبيرة من العمال نصف المهرة وهم يشكلون طبقة العمال ذوى الياقات الزرقاء Blue-Collar فى المجتمع الصناعى . أما العمال غير المهرة فهم يمثلون قاع المجتمع الصناعى من الناحية الإقتصادية ، لأنهم أقل الطبقات دخلا ويعيشون ظروفا صعبة بمقارنتهم بالطبقة العاملة فى القوة الإجتماعية من حيث الدخل ، ومن حيث ضمان العمل

حـ — نوعية الطبقة العليا فى المجتمع الحديث

ليس هناك شك فى أن الطبقتين العاملة والمتوسطة هما الطبقتان الأساسيتان اللتين انبثقتا مباشرة عن التصنيع ، حيث قضى التصنيع تدريجيا على الطبقة العليا التقليدية ، فاختفاء طبقة النبلاء الذين يملكون الأرض وكذلك طبقة الارستقراطيين يؤكد عدم وجود طبقة عليا بالمعنى التقليدى فى المجتمع الصناعى المعاصر ، لهذا لم يعد لمصطلح الطبقة العليا أهمية تذكر فى الوقت الحالى، ويرى البعض أن المصطلح اختفى نهائيا من الوجود بينما يطلقه البعض على طبقة الأغنياء التى مازالت قائمة فى المجتمع . وخاصة فى المجتمعات الرأسمالية .

والطبقة العليا (إذا وجدت) يمكن تمييزها عن الطبقة العليا المتوسطة بمقدار الدخل والقوة والإمتيازات وأسلوب الحياة ، وبالوظيفة أو الدور فى تقسيم العمل . ويرى البعض أن الطبقة العليا القديمة ما زالت موجودة إلى حد ما فى العائلات الغنية التى ورثت عن الأجداد ثروات طائلة ، وتتميز هذه العائلات بطريقتها الخاصة فى الحياة من حيث المظهر والملبس وطرق التنشئة الإجتماعية التى تؤدى مجتمعة إلى ظهور جماعات المكانة المغلقة نسبيا على أعضائها .

وهناك منظور آخر يرى أن الطبقة العليا الحديثة تتمثل فى الطبقات الإدارية الحديثة وخاصة فى شركات القطاع الخاص ، وأيضا فى القادة السياسيين والصفوة العسكرية التى تمسك بيدها زمام إصدار القرار والتحكم فى المجتمع .

وعموما نستطيع القول أن البناء الطبقى للمجتمع الحديث هو نتاج مباشر لتقسيم العمل فيه ، فقد قضت التطورات التكنولوجية تقريبا على المهن اليدوية

وخلقت مهنا جديدة غيرت تقسم العمل وغيرت بالتالى البناء الطبقى فى المجتمع ولهذا فإن أى تغير فى تقسيم العمل سوف يؤثر مباشرة على الطبقة الاجتماعية .

مؤشرات التفاوت بين الطبقات :

تستخدم مصطلحات التعلم ، والدخل والمهنة أو مركب منها كمتغير عند تفسير بعض الظواهر فى كثير من الأبحاث المتصلة بالطبقة فى علم الاجتماع . وبهذا المعنى يعطى علماء الاجتماع أهمية كبرى للمرتبطات Correlates فى الطبقة لأن هذه الظواهر ترتبط ، بالسلب أو الإيجاب ، مع منزلة الطبقة، فمثلا إذا كانت المشاركة الاجتماعية ترتبط إيجابيا مع الطبقة ، فهذا يبين أن الطبقة ذات المكانة الأدنى تكون أقل من حيث المشاركة الإجتماعية .

ويرجع التفاوت بين الطبقات الاجتماعية أساسا إلى الاختلاف فى فرص الحياة ويعتبر مقدار الدخل بالضرورة من أهم أنواع الجزاءات الاجتماعية ولكن إلى جانب الدخل توجد فرص أخرى لتجنب بعض مصاعب الحياة . ومن بين هذه الفرص الهامة يمكن أن نشير إلى ما يلى :

(١) فرصة الحصول على حياة طويلة وصحة جيدة لا يمكن أن تكون متساوية بالنسبة للجميع فى أى مجتمع . وتوقع العمر الطويل يرتبط بالطبقة الإجتماعية وبارتفاع المستوى الصحى . وهذا يرجع بالطبع إلى الاختلافات فى المصادر المادية لدفع تكاليف الرعاية الصحية . إلى جانب المعلومات التربوية الهامة عن أهمية الرعاية الطبية والتغذية والعادات الصحية السليمة (١) .

---

1 - Kurt B. Mayer, 'Class and Society' (N.Y : Random House 1955) pp. 33-34.

(٢) وما ينطبق على الصحة والعمر ينطبق أيضا على الصحة العقلية Mental Health . فالناس الذين ينتمون إلى المستويات الدنيا للطبقات الإجتماعية يكونون أكثر تعرضا للاضطرابات النفسية . كما تظهر الاختلافات الطبقية أيضا فى معالجة المرضى عقليا (١) . فالأفراد المرضى عقليا من الطبقات العليا يرسلون إلى مستشفيات خاصة ويشرف عليهم متخصصون نفسانيون أما المرضى فى الطبقة الدنيا فيرسلون إلى مؤسسات عامة حيث تكون الرعاية أقل .

(٣) فرصة التعليم الجامعى (فى كثير من مجتمعات العالم) تتناقص كلما انخفض المستوى الطبقى . وبالرغم من مجانية التعليم فى المجتمع المصرى فى جميع مراحله إلا أنه يتكلف كثيرا وخاصة فى الكليات العملية مما يجعل من الصعب على أى مستوى طبقى الحصول عليه (٢) .

(٤) فرصة التورط فى الأنشطة الإجرامية تقل كلما تحرك الفرد إلى أعلى فى السلم الطبقى . والانطباع العام هو أن الطبقة الدنيا أكثر اجراما . إلا أن قياس « الأكثر » أو « الأقل » يعتبر شيئا صعبا . وعموما ، يرتكب أفراد من الطبقة الدنيا جرائم العنف تجاه الأفراد والممتلكات بشكل يسترعى الانتباه(٣).

وهــذه الامثلة القليلة تبين أن الفرص فى الحياة الطويلة والصحة السليمة والحصول على درجة عالية من التربية والتعليم والبقاء خارج السجن تتوفر أكثر

---

1 - August B. Hallingshead and Frederick C. Redlick,' Social Class and Mental Ilness (N.Y, Willey, 1958).

2 - Mayer, op. cit, pp. 34-38.

3 - Warner and Lunt 'The Social Life of a Modern Community' pp 375-376.

هؤلاء الذين يتميزون بالوضع الطبقي المرتفع أكثر من هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا

ويشير أسلوب الحياة Life style إلى الطريق التي من خـــلالها تنمى الطبقات والجماعات طريقتها في المعيشه . بناء على النمط الثقافى المفضل لفعله ومجموعة المعتقدات المتميزة ، وكل طبقة إجتماعية لها أسلوبها الخاص في الحياة وكل طبقة لها نظرة خاصة للعالم . وطريقة النظر للحياة تعكس عند الأعضاء تجاربهم الإجتماعية الخاصة وعلاقاتهم بالطبقات الإجتماعية الأخرى .

وتؤكد فكرة الطبقة كمصدر المعتقدات الايديولوجية أحد الأفكار القديمة وهى أن الطبقة الإجتماعية لها أيديولوجية خاصة في المجتمع . والاختلافات في المعتقدات الايديولوجية للطبقات الإجتماعية تـــؤدى مباشرة إلى الاهتمام بالاتجاهات السياسية والإقتصادية التى تقوم عليها . حيث يرتفع أو ينخفض مدى المشاركة السياسية بناء على نوعية الطبقة الإجتماعية وقد أثبتت بعض الأبحاث السوسيولوجية أن عددا كبيرا من أفراد الطبقة العاملة ينتمون فقط إلى دور العبادة أو الاتحادات العمالية أو كليهما بينما لا ينتمون إلى أى تنظيمات إجتماعية أخرى موجودة في المجتمع المحلى . وهذه المشاركة الضئيلة في الحياة السياسية والمدنية من ناحية الطبقة العاملة يمكن أن تقلل من أهميه اعدادهم الكبيرة . وبالمثل فإن المشاركة الكبيرة للطبقة المتوسطة ترفع من درجة تأثيرهم في العملية السياسية .

والاختلافات في فرص الحياة التى تتضمن مؤشرات التفاوت من السهل إدراكها ، ولكن من المؤكد أنه ليس واضحا أن الاختلافات في أسلوب الحياة بين الطبقات الإجتماعية يمكن أن يصلح بعضها كمؤشرات للتفاوت واللامساواة

لأن بعضها مثلا يكون نتيجة للمكانة الإجتماعية المنخفضة مثل طريقة الكلام والذوق أما تلك المرتبطة بالطبقات العليا فهى دائما أكثر احتراما . وبالتالى فإن الأفراد فى حالة التنقل يحتاجون إلى أسقاط أو أبعاد طرقهم القديمة والتخلص منها والتشبه بالطبقات العليا .

التنقل الاجتماعى :

سبق أن ذكرنا أن التدرج الطبقى موجود فى كل المجتمعات ، ويرجع هذا التدرج إلى وجود بعض الاختلافات بين الناس وما يرتبط بذلك من قيم، كما أن الدخول فى طبقة معينة والخروج منها يعتبر أمرا مألوفا فى كثير من المجتمعات الأمر الذى يترتب عليه حركة إجتماعية ، يغير الناس على أساسها مراكزهم . ويطلق على هذه الحركة اسم التنقل الإجتماعى (الحراك) Social Mobility . والدورة الإجتماعية التى تترتب على مثل هذا التنقل توجد فى كل مجتمع ، ولكن سرعتها تختلف باختلاف المدى ، ففى المجتمعات البدائية يتحرك الناس داخل مجتمع صغير ، ويتحركون داخل مجتمع كبير فى المجتمعات المتحضرة . والتنقل أما أن يكون أفقيا وهو أنتقال الظاهرة الثقافية من الشخص أو الجماعة إلى شخص أوجماعة أخرى متشابهين أومتطابقين . ورأسيا إذا مرت هذه الظاهرة الثقافية من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى ، وبالنسبة للفرد يكون التنقل أفقيا إذا أنتقل من جماعة أدنى إلى جماعة أدنى أعلى أو العكس .

وعلى الرغم من أتفاق كثير من الباحثين فى علم الإجتماع على المعانى المرتبطة بالتنقل الأفقى والرأسى فى المجتمع ، إلا أنهم يختلفون فى سرعة الدورة الإجتماعية فى المجتمعات . فالتنقل ومداه يرتبطان بحجم الجماعة التى يشترك فيها الناس بحرية . والتنقل على هذا يمكن أن يتحدد رأسيا عن طريق التحـوا دو

الجغرافية أو صعوبة وسائل المواصلات ، وأفقيا عن طريق الطبقة أو الطائفة أو العنصر أو الجنس أو السن

عوامل التنقل الاجتماعى

أن قيام الطبقات وتطورها يكشف عن حقيقة هامة. وهى أن قيام طوائف فى المجتمع كنظام مغلق أو كنسق مغلق أمر مستحيل ذلك لأن الظروف التى تؤدى إلى قيام الطبقات سوف تميل إلى العمل دائما على قيام تدرج طبقى جديد. وكذلك فإننا نهتم بإبراز العوامل الاجتماعية التى تؤدى إلى تسهيل أو تعويق حركة الأفراد من طبقة إلى أخرى ويمكن تحديد هذه العوامل فيما يلى :

١ — التغير الاجتماعى :

يسهل التغير الاجتماعى الواسع النطاق حركة انتقال الأفراد من أدنى السلم الاجتماعى إلى أعلاه أو العكس ، ويعمل أيضا على فتح الطبقات وإزالة التحديدات الطبقية الضيقة . كما أن الثورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤدى إلى حركة تنقل إجتماعى مثل ما حدث فى كثير من بلاد العالم ، ولهذا تعد الثورة الاجتماعية نوعا من التنقل الاجتماعى المتطرف . وكلما استمرت الثورة الاجتماعية كلما استمر التنقل الاجتماعى حتى تستقر الثورة فيستقر التدرج الطبقى على نحو معين .

٢ — وسائل الاتصال :

كلما زادت وسائل الاتصال بين الناس وبين الجماعات كلما شجع هذا على التنقل الاجتماعى . والعكس كلما وضعت المعوقات والحدود أمام وسائل الاتصال كلما عوق هذا فرص التنقل الاجتماعى . ولذلك فإن المجتمع الذى يتميز

بكثرة وسائل الاتصال يتميز فى نفس الوقت بكثرة التنقل الاجتماعى ، لأن الاتصال فى حد ذاته يحطم الحواجز التى تفصل الناس بعضهم عن الآخر .

٢ — تقسيم العمل :

يتأثر مدى التنقل الاجتماعى بين الطبقات المختلفة بدرجة تقسيم العمل ، فاذا اتسع نطاق تقسيم العمل وتنوع التخصص إلى درجه معقدة ، فإن ذلك يخلق ظروفا تعوق الانتقال السهل من طبقة إلى أخرى داخل المجتمع ، وربما كان تقسيم العمل والتخصص أحد العوامل الهامة فى المجتمع الحديث التى تؤدى إلى خلق التمايز بين الناس وتصنيفهم فى فئات طبقية .

وتقوم المسألة الأساسية فى التدرج الطبقى إلى حد كبير على طابع التنظيم الاجتماعى . فإذا كان هذا التنظيم يقوم على تعيين حدود دقيقة بين الأفراد على أساس أدوارهم ومراكزهم وما يرتبط بها من مراتب ظهرت الطبقات واضحة وارتفعت الحواجز بينها وتميز المجتمع فى نهاية الأمر بقلة التنقل الاجتماعى . أما إذا كان التنظيم الاجتماعى يقوم على تعيين الحدود الواسعة لهذه الأدوار والمراكز فان الطبقات الاجتماعية تكون مرنة ويكون التنقل الاجتماعى بينها أمرا ميسورا .

الفصل التاسع

الأسرة

مقدمة :

يبدو واضحا من نظرة سريعة عبر التاريخ ، أن الأسرة جماعة اجتماعية أساسية ودائمة ، ونظام اجتماعي رئيسي، وليست الأسرة أساس وجود المجتمع فحسب بل هي مصدر الأخلاق والدعامة الأولى لضبط السلوك، والإطار الذى يتلقى فيه الانسان أول دروس الحياة الاجتماعية، وربما كان ذلك هو محل منظور علم الإجتماع إلى الأسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا ؛؛ ومع ذلك فإن رواده لم يهتموا كثيرا بالوحدات الاجتماعية الصغيرة كالأسرة فى تحليلهم للمجتمع، ولذلك لم تنتعش دراسات الأسرة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على يد علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار الذين اهتموا بدراسة الأسرة فى الثقافات البدائية وفى الحضارات القديمة . ومنذ ذلك الوقت بدأت دراسات الأسرة تحتل مكانة هامة فى العلوم الاجتماعية . وقد أثار مؤلف ادوارد وسترمارك Edward Westermark عن تاريخ الزواج الانسانى The History of Human Marriage اهتماما كبيرا كمدخل لدراسة الأسرة (1).

وتواجه دراسة الأسرة مجموعة من الصعوبات، أولها يكمن فى أنفسنا، فكل فرد عضو فى أسرة ، وعضويته هذه تجعله يعتقد أن دراسة الأسرة أمر سهل وبسيط ، ومن المحتمل أيضا أن يتصور أن أى نسق أسرى آخر لا يتفق وأسرته

---

(1) James B. Mckee, 'Introduction to Sociology' Holt, Rinehart and Winston, Inc, N.Y., 1969, pp. 352-353.

لابد وأن يكون غريبا وشاذا ، ومن الملاحظ أن هناك ميلا عاما إلى مناقشة مايجب أن يكون وليس ما هو قائم بالفعل ، ولهذا فإنما قد يبدو للكثيرين من أن لديهم من وضوح الرؤية بالنسبة لعلاقاتهم الأسرية يمكن أن يحملهم على الاعتقاد بأنه ليس هناك مايدعو البحث فى هذا الموضوع لأنه يدور حول أشياء نعرفها ونعيشها بالفعل ، ولكن لو تتبعنا الواقع فى أبعاده المتعددة لوجدنا أن كثيرا من المعتقدات المتصلة بالأسرة ليس لها أساس ، وحينئذ تصبح « المسألة الأسرية » بحاجة إلى دراسة عميقة حتى يمكن فهمها بصورة أفضل(١). وفى نفس الوقت يتعين أن نختبر كثيرا من ملاحظاتنا الفردية المتراكمة عن الخبرات الأسرية فى النمط الذى ننتمى إليه لندرك كيف تتشابه أو تختلف مع المجتمعات الأخرى بل ربما أيضا مع أنماط أسرية أخرى قائمة فى مجتمعنا ويؤيد ذلك أن الدراسات المتنوعة فى ميدان الأسرة أظهرت اختلافات هامة فى أنماطها فى المجتمع الواحد. فأسر الطبقة العليا تختلف عن أسر طبقـــة العمال من حيث التكوين البنائى ، والايديولوجية ، وفرص الحياة والأدوار الزوجية وفى أسلوب الحياة، وهذا فضلا عن الاختلافات الثقافية الواسعة النطاق إذا أدخلنا عددا من المجتمعات فى الاعتبار . وربما كان ذلك هو الذى أدى بكثير من المهتمين بعلم الاجتماع الأسرى إلى القول بأن تعدد أنماط الأسرة فى المجتمع يعتبر من أبرز ملامح المجتمعات المعاصرة.

تعريف الأسرة :

تشير كلمة « أسرة » من الناحية السوسيولوجية إلى معيشة رجل وامرأة أو أكثر معا ، على أساس الدخول فى علاقات جنسية يقرها المجتمع ، ومايترتب على ذلك من حقوق وواجبات ، كرعاية الأطفال وتربيتهم . ولكن الأشكال

---

(1) William Goode, 'The Family' New Jersey, 1964 pp. 3-4.

التاريخية والمعاصرة لتنظيم الأسرى جعلت من المناسب أن يضاف إلى كلمة «أسرة» صفة تحدد شكلها . فيطلق مصطلح «الأسرة الممتدة» على الجماعة التى تتكون من عدد من الأسر المرتبطة التى تقيم فى مسكن واحد وهى لا تختلف كثيراً عن «الأسرة المركبة» أو «الأسرة المتصلة». ونظراً لأن اللغة العربية أغنى من اللغات الأخرى فى مصطلحات القرابة فإنها تستخدم كلمة «أسرة» Family لتشير بها إلى الجماعة المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين الذين يقيمون معا فى مسكن واحد ، فى نفس الوقت الذى تطلق فيه مصطلح العائلة ليشير إلى (الأسرة الممتدة) Extended Family المكونة من الزوج والزوجة وأولادهما الذكور والإناث غير المتزوجين والأولاد المتزوجين وزوجاتهم وأبنائهم وغيرهم من الاقارب كالعم والعمة ، والإبنة الأرملة الخ . . وهؤلاء جميعا يقيمون فى نفس المسكن ويشاركون فى حياة اقتصادية واجتماعية واحدة تحت رئاسة الاب الاكبر أو رئيس العائلة (١).

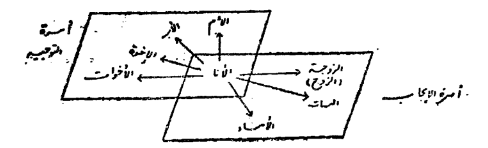
وقد تاثرت الاسرة بصورة عامة بالتغيرات التاريخية والإجتماعية والاقتصادية والعمرانية التى مرت على المجتمعات فى مختلف انحاء العالم فتغير بناؤها أو انكمشت وظائفها ، إلا أن الاسرة بمعناها الضيق والمحدد . والتى اصطلح على تسميتها (الاسرة النواة) Nuclear Family ظلت مركز التناسل ومصدر الرعاية الأولية المباشرة ومع كل النتائج التى طرحها التغير وخاصة فى مجال الإتجاه نحو الفردية أو العزلة القرابية إلا أنه فى كثير من أنحاء العالم حتى فى أكثر أجزائه الصناعية تقدماً ، لازال الفرد يمر خلال حياته بنمطين مختلفين من الاسرة النواة . فهو يولد فى أسرة مكونة منه ومن إخوته (إخوة - أخوات) ومن والديه تسمى (أسرة

---

(١) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف ١٠ - ١٢

التوجيه) Family of Orientation وعندما يتزوج الفرد ويترك أسرته يخلق لنفسه « أسرة أداء » أخـــرى تتكون منه ومن زوجته وأطفاله تسمى حينئذ (أسرة الانجاب) Family of Procreation

(١) أسرة التوجيه وأسرة الانجاب



• وبالرغم من صغر حجم الأسرة فهى أقوى نظم المجتمع ، فهى النظام الذى عن طريقه نكتسب إنسانيتنا ، كما أنه لاتوجد طريقه أخرى لصياغة بنى الإنسان سوى تربيتهم فى أسرة . ومن هنا فكل شخص ينتمى بشكل ما لأسرة واحدة على الأقل ، ولذلك تعد الأسرة المهد الحقيقى للطبيعة الإنسانية ، هذا فضلاعن أن تجربة الحياة خلالها ضرورية لتحويل المولود إلى مخلوق (إنسانى) يعيش فى إنسجام مع الآخرين وفقا للقيم والمعايير القائمة .

وتشمل كلمة أسرة حلقة واسعة من الملامح المميزة والصفات ، ولهذا نلجأ لفهم الأسرة بصورة متكاملة إلى دراسة علم الموروثات وعلم الاجنة والتشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، وكذلك القانون والاقتصاد والسياسة ، ذلك أن كلا من هذه العلوم تلقى ضوءا عـلى طبيعة الأسرة وطابعها المميز ، ولكن دارسى الأسرة لايمكن عمليا أن يرقوا إلى مستوى كاهتمام المتخصصين بانعكاس هذه الدراسات المتداخلة على البحث الأسرى ، ولهذا يركز على الأسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا

Social Institution (١) ولا ينسى في نفس الوقت تأثير الجوانب البيولوجية والإجتماعية العامه فيه .

ولكن الذى يهمنا هنا في الدرجة الأولى ، وخاصة من وجهة النظر التي تؤكد أن الأسرة (نظام اجتماعى) أن جميع المجتمعات بها مجموعة نظم رئيسية هى : النظام الأسرى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام التربوى ، والنظـــام الدينى ، والنظام السياسى . وفهم هذه النظم الرئيسية ككل يؤدى إلى فهم المجتمع نظراً لما بينها من علاقات وتأثيرات متبادلة والقاعدة هنا أن أى نظام اجتماعى لا يمكن فهمه إلا فى ضوء علاقاته مع النظم الإجتماعية الأخرى (٢). وربما كان ذلك هو الذى يجعلنا نهتم فوق اهتمامنا بدراسة تأثر الأسرة بالظروف المجتمعية والعوامل البيولوجية ، بدور نظم المجتمع الاخرى فى تأثيرها وتأثرها بالنظام الأسرى .

ويوجد نظام الأسرة حتى فى المجتمعات البدائية ، بل فى أقلها بساطة ومدنية وهذا ما يجعل الأسرة تختلف عن كثير من النظم الإجتماعية الأخرى، وحينما نجد الأسرة بشكلها الذى أشرنا اليه ، نجد نوعا من تقسيم العمل، فالزوج مثلا يعمل صياداً والزوجة تعد الطعام وباقى الأعضاء يقومون بجمع الخضر والجذور البرية ، أما كيف كان شكل الأسرة قبل ذلك فهذا أمر يخضع للتخمين .

ولا يوحى تاريخ الأسرة العريض بأنه اجتاز تطورات كبيرة كتلك التى قدمها فى تاريخ الحضارة المادية ،والذى تطورت فيه من الحضارات الحجرية إلى النظم الهندسية المعقدة المعاصرة، وكذلك تطور الحكومة من القيادات الفردية البسيطة

(1) LesLie R. Gerald, 'The Family in Social Context', New-York, 1967, pp. 3-4.

(2) Ibid. pp. 5-6.

إلى الدول القومية المتسعة ، أما الأسرة فهي قديماً وحديثاً محـــدودة الحجم والوظائف ، إلا أن هذا لايعني أنها نظام ثابت ، فقد تغيرت كثيراً خـــلال الحضارات المختلفة .

الأسرة إذن موجودة عبر التاريخ ولكن في أشكال مختلفة وهي أيضاً ضرورة عالمية لأنها تقوم بانجاز عدد من الوظائف الأساسية للمحافظة على استمرار الحياة الإجتماعية مثل :

ا - ممارسة العلاقات الجنسية بين الزوجين .

ب - الانجاب الشرعي .

جـ - رعاية الأطفال وتنشئتهم .

د - التعاون كوحدة اقتصادية .

وقد اتفق علماء الاجتماع على عالمية هذه الوظائف ، كما أكدوا على أهمية عامل آخر وهو أن كل مجتمع انساني ينظم ويضبط بطريقة نظامية العلاقات بين الجنسين من خلال تنظيم الزواج بهدف الإنجاب ؛ حتى أن المجتمعات التي تسمى بدائية primitive تحدد العلاقات بين الجنسين ، وهـذا يكذب الرأى القائل بأن المجتمعات المتحضرة فقط هي التي تنظم العلاقات بين الجنسين .

ويرى دارسو علم الاجتماع أن الأسرة أحد مقومات الوجـود الاجتماعي في المجتمع الانساني ، ومن لذلك تعتبر نظاماً عالمياً . أما ما هو غير عالمي فيها فهو شكلها الموجود في مجتمع أو آخر ، ومن مظاهر عالميتها أن كل مجتمع يجيز التزاوج بين الذكر والأنثى مما يعطي الشرعية لميلاد الطفل ، ويتم هذا بطريقة معينة (تختلف من مجتمع لآخر) يحصل من خلالها الطفل على مركز معين

وحقوق معينة ، كما تقع مسئولية رعايته على كاهل أشخاص معينين عليهم أن ينهضوا بها .

تطور دراسات الأسرة :

لم تبدأ الدراسة العلمية للاسرة (والزواج) إلا إبان القرن التاسع عشر ، وقد شهدت بعد ذلك وحتى اليوم تطورات عديدة ، يمكن أن نصنفها إلى أربعة مراحل ، وسوف أعرضها فى إيجاز على النحو التالى :

المرحلة الاولى :

وتتميز بسيادة الفكر العاطفى ، والخرافى والتأملى، كما يتمثل فى التراث الشعبى وكتابات الأدباء أو التأملات الفلسفية وتمتد هذه المرحلة حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا . حيث كان الفلاسفة والكتاب الإجتماعيون يعبرون عن وجهات نظرهم وآرائهم الخاصة فى المسائل المتصلة بالحياة الأسرية ، وخير من يمثل هذا الإتجاه ماجاء فى كتابات «كونفشيوس» فى العصور القديمة حين يقول «أن السعادة تسود المجتمع إذا سلك كل فرد سلوكا صحيحا كعضو فى الأسرة» وهذا يعنى تأكيد أهمية التزامات الفرد تجاه الأسرة وقد خصص الأدباء القدامى فى الهند جانبا كبيرا من تفكيرهم لمعالجة مسائل الأسرة ، ومن وقت لآخر كان الفلاسفة الخياليون يرسمون خططاً «يوتوبيا» Utopia يضمنونها طرقا جديدة لأدوار الأسرة كحل لمشاكل الاجتماعية التقليدية ، كما جاء فى جمهورية افلاطون عن الأسرة المثالية ، والفرص المتساوية أمام الرجال والنساء فى تطوير ذكائهم والوصول إلى غاياتهم . وكان هدف أفلاطون أن ينادى أو يتوصل إلى الغاء الروابط الأسرية التقليدية . وأن يبعد جميع الأطفال عن آبائهم فور ولادتهم لتربيتهم تحت رعاية أفراد متخصصين .

المرحلة الثانية :

وتمتد من منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين . وتتميز بعدد من الأفكار التى تميل لتطبيق الأفكار التطورية على ميدان الأسرة والزواج، وجدير بالذكر أن أفكار دارون أوحت إلى المفكرين الاجتماعيين أنه من الممكن أن تتطور أشكال ونظم الحياة الاجتماعية بنفس الطريقة التى تتطور بها الكائنات البيولوجية .

المرحلة الثالثة :

وتقع كلها فى القرن العشرين وحتى منتصفه تقريباً ، وفيها انتقلت دراسة الأسرة من الاهتمام بالماضى والتساؤل التاريخى إلى الإهتمام بالواقع ، ومن البحوث غير المحددة الواسعة النطاق ، إلى استخدام المناهج العلمية فى تناول مشكلات أكثر تحديداً ، وركزت هذه المرحلة على دراسة العلاقات الداخلية بين افراد الأسرة متأثرة فى ذلك بعلم النفس ، فى الوقت الذى ظلت فيه دراسة المشكلات الإجتماعية تشغل خلال هذه الفترة مكانة جوهرية ، وبقى الإطار النظرى هو نفسه إلى حد كبير ، أما المناهج ومواد الدراسة فقد تغيرت ، إذ توفرت مصادر للبيانات والمعلومات أكثر ثراء من ذى قبل، عن طريق الوثائق الرسمية ، وسجلات الهيئات الخاصة ، كما نمت المناهج وطرق البحث ، مع ازدياد الفصل بين العلم والأخلاق والاهتمام بأساليب التحقيق الامبيريقى لا المنطقى فحسب، إلى جانب ارتفاع مكانة المناهج الكمية . ومنذ الحرب العالمية الثانية زاد الاهتمام بالحياة الأسرية عن طريق تدعيم القوانين المنظمة لها، وخلق أنماط جديدة تتلاءم مع متطلبات التغيرات السريعة فى المناطق الحضرية والصناعية إلى جانب تطوير الأسرة الريفية لرفعها إلى المستوى العصرى .

المرحلة الرابعة :

وهي الممتدة حتى الآن، وتتميز بتزايد الاهتمام بالنظرية وتعميق الدراسات الكية ، ولكن بطريقة أكثر منهجية ، علاوة على محاولات جادة لتجميع وتقييم البحوث التي أجريت في الماضي، وتحديد المدارس الفكرية المختلفة أو الاطارات المرجعية النظرية التي استخدمت في دراسة الأسرة . كما تتميز هذه المرحلة بتحديد المجال ، واختفاء الأحكام القيمية ، والاعتماد بصفة عامة على مادة ميدانية أصيلة ، تم جمعها وفقاً لاستراتيجيات منهجية عالية الدقة والكفاءة واستخدام أكثر من أسلوب واحد من أساليب التحليل المدعم إحصائياً(١) .

معنى الزواج والأسرة :

هناك ارتباط كبير للوهلة الاولى بين مصطلحي الزواج والاسرة ، بحيث أننا نميل إلى استخدامهما في نفس الوقت ليشيرا إلى نفس الشيء ، ولكنهما في الحقيقة ليسا شيئا واحداً ، فالزواج Marriage عبارة عن تزاوج منظم بين الرجال والنساء ، على حين يجمع معنى الاسرة Family بين الزواج والإنجاب ، وتشير الاسرة كذلك إلى مجموعة من المكانات Statuses والادوار Roles المكتسبة عن طريق الزواج والانجاب . وهكذا نجد أنه من المألوف اعتبار الزواج شرطاً اوليا لقيام الاسرة ، واعتباره تاجا للتفاعل الزواجي .

وليس الزواج والتزاوج شيئاً واحداً ، فالاول مفهوم سوسيولوجي ، أما الثاني فهو مفهوم بيولوجي . فظاهرة التزاوج معروفة عن ألواع أخرى من الحيوانات ، بينما الزواج مقصور على البشر فقط ، وقد يكون حتى على المستوى

(١) محمد الجوهري وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعارف، ٢٠٧-٢٥٩ .

البشرى ، لاشخصياً ، وجزافياً ، ومؤقتاً . أما الزواج فهو نظام اجتماعى ، يتصف بقدر من الأستمرار والامثال للمعايير الإجتماعية . والزواج هو الوسيلة التى يعمد اليها المجتمع لتنظيم المسائل الجنسية وتحديد مسئولية صور التزاوج الجنسى بين البالغين . ومن الجدير بالملاحظة فى هذا الصدد ، أن جميع المجتمعات (سواء فى الماضى أو الحاضر) تفرض الزواج على غالبية أفرادها . فالزواج إذن نظام عام ، حتى لوكان المجتمع يبيح فى كثير من الاحيان علاقات جنسية خارج نطاق الزواج ، كما أن الزواج هو النظام الاوفر جزاء بالنسبة لمعظم الرجال والنساء خلال الجانب الاكبر من حياتهم .

وهناك معايير اجتماعية أخرى مختلفة تفسر معنى الزواج نشير هنا إلى بعضها : المعيار الإجتماعى التقليدى [١] ، وهو ينظر إلى الزواج كظاهرة مقدسة Sacred Phenomenon أو نظام إلهى مقدس خلقه الله وأكدته الشرائع السماوية والكتب المقدسة كأساس للحياة الإنسانية . وهذا يعنى أن الإنسان ورغباته الشخصية وتطلعاته تكون فى المكانة التالية من حيث الاهمية بعد تحقيق متطلبات الاسرة . وتنفيذ الاوامر الإلهية . أما المعيار التقليدى الآخر فهو أوسع نطاقا بشكل واضح لانه يؤكد أن معنى الزواج والاسرة يتركز أساسا حول الالتزامات الإجتماعية . وهو فى هذا يتفق مع المعيار السابق إلا أنه يختلف معه فى نقطة معينة ، فبينما يركز المعيار الأول السلطة فى يد « الله » فان المعيار الثانى يركزها فى يد « الرجل » ، والقيمة الأولى فى معنى الزواج هى المحافظة على الاحترام الإجتماعى ، والامتثال لرغبات الأقارب والمجتمع المحلى ، والاحتفاظ « بصورة لائقة » فى المجتمع . ومن خلال هذا المعنى للزواج تكون لآراء الناس أهمية

(1) Eshleman, Op. Cit, pp. 134-136.

كبرى . ولهذا يصبح الطلاق ، أو الحمل قبل الزواج وكل مظهر إنحراف آخر مرفوض تماماً الآن المجتمع (الأصدقاء ، المجتمع المحلى ، الجماعة القرابية وغيرهم) يدينون كل ذلك قولا وفعلا .

ولكن أحدث معانى الزواج تتجه اتجاها آخر حين تؤكد أن الأسرة والعلاقة الزواجية ما وجدت إلا من أجل الفرد Individual . فالأمر إذن لا يتعلق بالله ولا بالمجتمع ، وإنما بالأنا ، والزواج عملية تتعلق بالانسان وحده . فإذا أراد الفرد أن يتزوج من خارج عقيدته الدينية أو طبقته الإجتماعية أو مستواه التعليمى فهذا شأنه . وبهذا المعنى تكون السلطة فى يد الانسان وحده ، فكل فرد مسئول عن نجاحه أو فشله دون النظر إلى بناء المجتمع المحلى أو ظروف المجتمع الذى يعيش فيه . وهذه الفكرة المتطرفة لمعنى الزواج ، يؤكدها أو يدعمها النسق التربوى الذى يجعل كل شىء ممكنا إذا أراد الفرد ، ويقلل إلى مدى بعيد من تأثير العوامل الخارجية .

الزواج والأسرة كجماعة أو نسق :

تعتبر الأسرة والجماعات الزواجيـــة والانساق موضوعات أساسية فى علم إجتماع الأسرة ، ويتحدثون فى علم الاجتماع عن أنساق الأسرة كما يتحدث علماء الطبيعة والبيولوجيا عن السولار أو الانساق البيولوجية . لأن كل الانساق ذات تنظيم مميز ونمط محدد فى العمل . وكل نسق كبير يتكون من أنساق فرعية وهكذا .

ويعتبر نسق الاسرة مثالا للمكانات المترابطة التى تنجز وظائف أساسية معينة . والاسرة كنسق فرعى من أنساق المجتمع الكبير ترتبط مع الانساق الاخرى فى المجتمع . و تنجز أعمالا منتقاة وذات أهمية عالية للمجتمع . ويحتوى نسق الاسرة

ذاته على أنساق فرعية عديدة (الانساق الزواجية ، أنساق الاختيار الزواجى ، الانساق الجنسية ، أنساق تربية الاطفال) التى تنمط وتنظم بهدف أداء أعمال منتقاه أيضا . والأفراد أيضا يشكلون جزءا من هذا النسق ، حيث أن المكانات ، والادوار ، والمعايير ، والقيم ، ووسائل الضبط الاجتماعى لهؤلاء الاشخاص يكون لها دلالتها بالنسبة للأنساق الإجتماعية .

والوحدات الاساسية للنسق الزواجى أو الأسرى ليست الاشخاص ولكنها المكانات ذات العلاقات المتبادلة (الاوضاع) وتوقعاتها المصاحبة . وتتضمن هذه المكانات فى نسق الأسرة ، العلاقات المتبادلة بين الاب والإبن ، الزوج والزوجة الجد والحفيد ، الاب والام ، الاخ والاخت الخ . ويتركز اهتمام علماء الاجتماع على المعايير والادوار والتوقعات والقيم التى تصاحب هذه الاوضاع . فالذكور المتزوجون يشغلون مكانة « الزوج » وهم يتفاعلون مع الاناث اللاتى يشغلن مكانة « الزوجة » وهذه المكانات المترابطة تشتمل على « النسق الزواجى » ولهذا النسق مجموعة خاصة من المعايير والتوقعات التى تصف السلوك المناسب للافراد الذين يتفاعل ويتعامل معهم .

إذن فكرة النسق تقوم على تجريدات معينة ، أما الجماعات الاسرية والزوجية فهى عكس ذلك حيث أنها تتضمن أشخاصا وهؤلاء الاشخاص هم حقائق ملموسة وليست مجردة . وهم موجودون بالفعل ويتفاعل كل منهم مع الآخر استنادا إلى مكاناتهم المحددة . والجماعة الاسرية تتكون من الزوجين وأطفالهما بالإضافة إلى عدد من الأقارب يشملهم محيط الأسرة الممتدة . وتتميز الجماعة الأسرية أو الزواجية بسكنها الخاص ، وعدد افرادها ، ومقدار دخلها الخ .. وتتميز الجماعة الزواجية بأنها مؤقتة ، تنحل عندما يتفرق أعضاؤها . وهنا تظهر أهمية

علم الاجتماع الاسرى فى اختبار طبيعة الجماعات الزواجية والأسرية التى تفرض النظام بين الجماعات التى تشملها .

والأسرة كما سبق أن أشرنا هى تنظيم اجتماعى يقوم على الزواج وخاصة عقد الزواج ، بما يتضمنه من معرفة بالحقوق والواجبات ، والمسكن المشترك للزوجين . وعموما ، يمكن اعتبار نسق الاسرة جماعة قرابية بنائية صغيرة وظيفتها الرئيسية الإنجاب والتنشئة الإجتماعية للمواليد ، والاسرة ، مثل الزواج تشتمل على عوامل عديدة مثل :

١ — النشوء والتكوين نتيجة الزواج .

٢ — إرتباط الأفراد عن طريق الزواج أو الدم .

٣ — وجود مسكن مشترك .

٤ — وضوح نظام تحديد الحقوق والواجبات المتبادلة .

٥ — الإنجاب والتنشئة الإجتماعية كوظيفتين أساسيتين .

وجدير بالإشارة هنا أن معظم الكتابات عن الاسرة تتبع أسلوب النموذج المثالى « Ideal Type » . والنموذج المثالى هو بناء فرضى يقوم على الخصائص المجردة Pure . فمثلا : الابوية ـ الأمومة . والاسرة النواة ـ والاسرة الممتدة ، والجماعات الاولية والجماعات الثانوية ، المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى كلها أمثلة النماذج المثالية . وبناء النموذج المثالى يؤدى إلى وظائف عديدة فهو يقدم حالة محدودة يمكن عن طريقها مقارنة أى ظاهرة بأخرى ، كما يساعد على تحليل وقياس الحقيقة الإجتماعية . كما يسهل عملية التصنيف والمقارنة . وهو يساعد دارسى المجتمع على تقديم مقارنات صادقة وحقيقية بين المجتمعات والنظم والأسر عبر الزمان والمكان . كما يعاون فى علم الاجتماع الأسرى فى الحصول على أداة

منهجية تكون مفيدة فى دراسة موضوعات عديدة تتصل بالأسرة مثل الطبقات العليا والدنيا أو الاختيار الحر والاختيار المرتب فى الزواج .

أشكال الزواج :

هناك شبه إجماع بين الدارسين فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على أن تاريخ الزواج الانسانى قد طرح أشكالا أساسية هى (الوحدانية - تعدد الزوجات - تعدد الأزواج - الزواج الجماعى) وسوف نشير فى إيجاز إلى كل منها :

وحدانية الزواج Monogamy

تعتبر وحدانية الزواج من الأشكال المفضلة فى كثير من المجتمعات . ومعناه زواج رجل واحد من امرأة واحدة ، وهذا الشكل منتشر على أوسع نطاق حاليا ، بل إن هناك مجتمعات ترفض كل أشكال الزواج عدا الوحدانية ، إلا أن هذا لا يعنى أن الزواج لابد أن يحدث مرة واحدة طوال العمر فقط ، بل يمكن السماح بالزواج مرة أخرى فى حالة الطلاق أو وفاة أحد الزوجين .

تعدد الزواج Polygamy

وهو الشكل الذى يعتبر عكس وحدانية الزواج ، وهناك أنواع عديدة منه مثل الزواج من داخل القبيلة أو البدنة أو العشيرة ويسمى « الزواج الداخلى » Endogamy وهو على خلاف « الزواج الخارجى » Exogamy الذى لا يجوز حدوثه بين أعضاء البدنة أو القبيلة أو العشيرة لانتمائهم إلى « طوطم » واحد فيعتبرون إخوة « ويحرم » زواجهم ، وبالتالى لابد أن يكون الزواج خارجيا . أما الزواج التعددى فيشير إلى الزواج بكثيرين ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع : زواج رجل واحد من عدة نساء ويسمى تعدد الزوجات Polygymy ، وزواج

امرأة واحدة من عدة رجال ويسمى «تعدد الأزواج» polyandry، وزواج عدة نساء من عدة رجال ويسمى «الزواج الجماعى» Group Marriage

وقد تبين من عينة عالمية أخذها ميردوك Murdock [1] من ٥٥٤ مجتمعاً أن تعدد الزوجات يلقى قبولا وتأييداً ثقافياً فى ٤١٥ مجتمعاً أى بنسبة (٧٧٪) بينما لم يجد زواج امرأة واحدة من عدة رجال قبولا سوى فى ٤ مجتمعات أى بنسبة أقل من (١٪) وجدير بالذكر أنه فى أى دراسة عن تعدد الزوجات يجب التفرقة بوضوح بين الأيديولوجية وبين ما يحدث بالفعل . فبالرغم من أن الشريعة الاسلامية تسمح بتعدد الزوجات إلا أن الشكل السائد للزواج فى المجتمع المصرى هو الوحدانية ، وذلك لتدخل عوامل عديدة اقتصادية وثقافية واجتماعية تحول دون الزواج بأكثر من واحدة أو تجعله أمراً غير مرغوب فيه على الأقل .

تعدد الزوجات :

هو أكثر الأشكال التى أشرنا إليها انتشاراً ، وخاصة فى المجتمعات البدائية أو النامية ، ويدل فى ناحية منه على المكانة العالية والتميز والثراء . أما لماذا يتخذ الرجل أكثر من زوجة ، فهناك ظروف ودوافع عديدة تؤدى إلى ذلك ، فإلى جانب إظهار المكانة العالية والهيبة ، توجد فى بعض الحالات الحاجة أو الرغبة فى الإنجاب وخاصة إنجاب الذكور . هذا وعادة ما يراعى فى الأسرة التى تتعدد فيها الزوجات عدة اعتبارات مثل :

١ - أن يكون للزوجات حقوق متساوية .

٢ - أن تقيم كل زوجة فى مكان مستقل .

(1) George Murdock "World Ethnographic Sample", American Anthropologist, 59 (August 1957), p. 686.

٣ - أن يكون للزوجة الأكبر سنا (أول زوجة فى العـــادة) مميزات ونفوذ معروف .

تعدد الأزواج :

وهو شكل نادر الحدوث ، ومحدود الانتشار للغاية ، ويكون الأزواج فى معظم الحالات من الأشقاء ، فهم أخوة فى البدنة ، وينتمون إلى نفس الجيل ، ويقلل هذا الوضع إلى حد كبير من درجة الغيرة بين هؤلاء الأزواج . ومن المعروف فى قبائل مثل «التودا» Toda فى الهند أنه عندما تتزوج امرأة من رجل فإنها تصبح زوجة لإخوته فى نفس الوقت ، ويرجع نظام تعدد الأزواج فى الواقع إلى ظروف الفقر الشديد مما يجعل من الصعب على كل أخ أن يتزوج من امرأة بمفرده ، وبالتالى يشترك الإخـــوة فى الزواج من امرأة واحدة . وفى المجتمعات التى تأخذ بنظام تعدد الأزواج تنتشر ممارسة قتل الأطفال من الإناث حتى لا يزيد عدد النساء عن النسبة المطلوبة .

الزواج الجماعى

من المعتقد ان هـذا الشكل من الزواج كان سائدا فى المجتمعات البدائية فى العصور القديمة ، إلا أن هذا الرأى لم يتأكد بصورة علمية دقيقة حتى الآن . وهو يعنى زواج عدد محدد من الذكور من عدد مساولهم من الإناث . إلا أن هذا الشكل من الزواج نادر الحدوث فى الوقت الحالى إلا فى حالات فردية تعتبر شاذة إلى حد كبير . وقد قام لارى Larry وكولستنتين Constantine بدراسة عن الزواج الجماعى فى أمريكا ، حيث ركزا على عشرة زيجات معظمها لا يقل عن أربعة أشخاص وقد تبين من نتائج الدراسة أن آلية معيشة هـذه الزيجات معقدة للغاية من حيث المسائل المالية والقرارات والطعام والإنجاب والصراعات

الشخصية (١).

قواعد السكن أو الأقامة :

كل أنساق الأسر التى أشرنا إليها لها قواعد خاصة للسكن Rules of Residence ومن المعروف الأزواج والزوجات يأتون من أسر توجيه مختلفة ، ولهذا فإنه عند الزواج لابد لأحدهما أن ينتقل. وأكثر الأنماط شيوعا هو انتقال العروس للمعيشة مع أسرة العريس . وهذا النموذج السائد يطلق عليه « الإقامة الأبوية » Patrilocal

والنمط الثانى للاقامة أقل انتشارا وهو الإقامة الأموية Matrilocal ويعنى انتقال العريس للمعيشة مع أسرة العروس . وخاصة فى حالة ملكية المرأه للأرض وسيطرتها على الأسرة . ويرتبط بهذا النمط من الإقامة أن يكون أخو الزوجة هو المسيطر وله الكلمة العليا .

وهناك نمطان آخران هما الإقامة المزدوجة Bilocal والإقامة المستقلة Neolocal حيث يسمح فى النمط الأول للزوجين بالمعيشة قريبا من والدى كل من الزوج والزوجة . أما نمط الإقامة المستقل فيؤدى إلى استقلال الزوجين فى الإقامة بعيدا عن أسرتى التوجيه . وقد أصبح هذا النمط من الإقامة شائعا فى المجتمع المصرى سواء فى الريف أو الحضر .

وفى بعض الحالات يقيم أحد الاقارب أو بعضهم مع الأسرة . وهم فى

---

(1) Larry L, and Joan M. Constantine "The Group Marriage" in Michaele Gordon, the Nuclear Family in Crisis : The Search for an Alternative, N.Y: Harper and Row, 1972, pp. 204-222,

معظم الحالات يكونون من أقارب الزوج، لأن الإبن مازال مسئولا عن والديه فى حالة كبرهما وخاصة مسئوليته عن إعالة والدته فى حالة موت الأب. وعموما فإن انتشار هذا الشكل من الإقامة فى المناطق الحضرية يرجع إلى ظروف ضيق المساكن والأجور المحدودة ثم اختـــلاف المستوى الثقافى بين الأبناء والآباء . ومما هو جدير بالذكر أنه فى السنوات الأخيرة ونظرا للأزمة الشديدة فى المساكن الموجودة حاليا فى المجتمع المصرى بدأت العودة إلى نظام الإقامة مع أسرة الزوج أو الزوجة تبعا لاتساع مسكن أيهما ، وبالرغم من عدم اقتناع الشباب أو الآباء بهذه الطريقة، إلا أن الواقع يفرض عليهما قبول الأوضاع الراهنة. أما فى المناطق الريفية فيرجع انتشار نمط الاقامة المستقل إلى تفتت الملكية الزراعية إلى حد كبير بحيث أصبح كل قروى لا يكون فى إمكانه سوى إعالة زوجته وأطفاله وبذلك يميل إلى الاستقلال فى السكن .

قواعد النسب :

تختلف قواعد النسب Rules of Descent بصورة واسعة. ومع ذلك نستطيع أن نحدد أربعة أنماط تعتبر أكثر انتشارا فى كل المجتمعات وهى: الإنتساب إلى الأب Patrilineal أو إلى الأم Matrilineal والنسب الثنائى Bilateral أو النسب المتعدد Multilineal

أما أكثر الأنماط انتشارا فهو الإنتساب إلى جانب واحد Unilineal فمعظم مجتمعات وسط آسيا والصين والهند وافريقيا يتم نسب أفرادها فى اتجاه واحد وهو عادة خط الأب، ويرتبط هذا النمط بالملكية والسلطة وضبط الزواج والمميزات الأخرى. ويقابل هذا النمط نمط آخر وهو الإنتساب إلى الأم ويشيع هذا النمط بين قبائل النايرز Nayars فى الهند حيث يعيش العروسان معا لمدة ثلاثة

أيام فقط بعد إتمام مراسم الزواج، ثم يترك الزوجان أحدهما الآخر، ولا يكون الزوج مسئولا عن زوجته أو أطفاله، بل عن أطفال شقيقاته. أما أطفاله هو فيتولى مسئولية رعايتهم أشقاء زوجته، ولا يكون للاب الفسيولوجي أي حقوق أو التزامات إقتصادية أو إجتماعية أو قانونية نحو أبنائه. ولكن هذا الشكل موجود بصورة محدودة جدا فى الواقع.

أما فى المجتمع المصرى فإن الانتساب يكون فى خط الأب حيث يحمل الابناء أسماء آبائهم وأجدادهم كما يرثون أملاكهم، وقد حددت الشريعة الاسلامية حدود الميراث، وينتمى الأبناء أيضا إلى عقيدة الأب الدينية حتى لو كانت الأم تنتمى إلى عقيدة أخرى.

طريقة إختيار الزوجة :

تقوم فكرة الاختيار فى الزواج Mate Selection على سؤالين : من الذى يختار ؟ ومن الذى يقع عليه الاختيار ؟ ومن المعروف أنه فى المجتمعات التقليدية يقع عبء الاختيار الزواجى على الوالدين، وإذا لم يكن لهما دور كبير فى عملية الاختيار، فيجب الحصول على موافقتهما على الأقل. وكثيرا ما يتقدم الشاب المقبل على الزواج فى هذه المجتمعات مباشرة إلى والدى الفتاة لطلب يدها دون الرجوع إليها أو أخذ رأيها فى هذا الموضوع.

أما من يقع عليه الاختيار فعادةً يكون من داخل الجماعة، والشريك المناسب هو الذى ينتمى إلى نفس العقيدة الدينية، والطبقة الإجتماعية أو من الجيران. أما الغرباء فينظر إليهم بشك، فالزواج من شخص غريب علامة أكيدة على مشاكل زوجية فى المستقبل. وقد أصبح الاختيار الزواجى فى المجتمعات الحديثة مسئولية الشباب أنفسهم، حيث لا يسمحون فى كثير من الأحيان بتدخل والديهم فى

الاختيار باعتبار أن الزواج مسألة شخصية بحتة لاتهم سوى الشخصين المقبلين على الزواج ، ومما لاشك فيه أن هذا التغير الواضح فى الاختيار الزواجى كان نتيجة لظروف اقتصادية واجتماعية وثقافية مرت بها المجتمعات الحضرية المعاصرة، حيث أتاح نظام العمل الحالى للابناء إمكانية الإستقلال المادى عن أبائهم وبالتالى أتاح لهم حرية الاختيار الزواجى دون الرجوع بصورة إجبارية إلى والديهم. كما أصبح الزواج من خارج الجماعة هو الشكل السائد فى كثير من المجتمعات .

تخطيط الأسرة وضبط السكان :

إرتباطا بالمعنى المقدس للزواج فإن الهـــدف الأول للعلاقة الجنسية بين الزوجين هو الإنجاب Reproduction ، والاسرة الصالحة من هذا المنظور هى الأسرة المنجبة كثيرة العدد.

وقديما كانت الأسر التقليدية لديها من المصادر الاقتصادية ما تسهم به فى ضمان المستقبل سواء للكبار أو الصغار ، ونادرا ما كانت هذه الاسر تشعر بالمشكلة السكانية أو تحتاج إلى ضبط حجمها . وكانت الامهات يفخرن بكثرة عدد أطفالهن.

ونتيجة للتغيرات التى تعرضت لها المجتمعات المختلفة، فقد تغيرت النظرة إلى الأسر الكبيرة ، كما أن التحول من الزراعة إلى الصناعة جعل من الابناء عبئا إقتصاديا كبيرا لا يتحمله كثير من الآباء ، وأصبح الناس يفصلون بين العلاقة الجنسية كمتعة زوجية ، وبينها كوسيلة للانجاب . وأصبح الاطفال موضوعا للاختيار الإرادى وليس للصدفة ، وأصبح العــــدد الأمثل للاطفال فى كثير من المجتمعات طفلان فقط. كما أصبح للرجل والمرأة فى عدد كبير من الدول الحق المطلق فى زيادة أو تحديد عدد أطفالهما حسبما يرغبان، وذلك بفضل الوسائل التى يضعها العلم الحديث تحت تصرفهما . ويميل الرأى العام كثيرا إلى الربط بين

موضوع ضبط النسل Birth Control ومشكلات زيادة السكان .

ويستخدم مصطلح تنظيم الأسرة الذى يقابله باللغة الانجليزية Family planning للاشارة إلى إنجاب الأطفال بطريقة منسقة على فترات متباعدة لاعتبارات صحية تتعلق بالأم والأطفال أما كلمة planning فهى تعنى التخطيط، غير أن الأخذ بمنهج التخطيط الأسرى ليس مجرد اختيار هذه الوسيلة أو تلك من وسائل التحكم فى الحمل، بل هو انتهاج طريقة معينة فى الحياة يشعر فيها الفرد بأنه مسئول مسئولية كاملة عن نسله .

ونحن لاننسى تلك الجهود التى بذلتها الدولة ورجال الفكر والمجتمع فى وقت كان الظلام الحالك يخيم فى بلادنا على فكرة ضبط النسل. وكانت الشجاعة تنقص أشد الناس جرأة لشرح وجهة نظرهم فى الدعوة إلى تنظيم الأسرة .

ولم تأخذ فكرة ضبط النسل شكلها الحقيقى إلا فى القرن التاسع عشر، حيث تأثر الناس بأفكار مالتس الذى حبذ فيها الحدمن عدد المواليد خوفا من ازدياد السكان بدرجة تفوق الموارد الاقتصادية فى العالم . ودعا إلى الامتناع عن الزواج أو تأخيره . وكانت انجلترا فى ذلك الوقت تمر بأزمتها الاقتصادية الأولى، وكان البؤس والبطالة يخيمان على المجتمع الانجليزى .

وقد ندد الاشتراكيون بمذهب مالتس الذى يسمح للاغنياء بإنجاب عدد كبير من الأطفال ، على حين يحرم الفقراء من ذلك ، حيث كانوا يعتقدون أن خلاص البشرية يكون فى توفير الثروات الضرورية عن طريق التقدم وأن الذى ينبغى القضاء عليه هو البؤس وليست الحياة .

وقد تأثر المالتسيون الجدد بآراء مالتس الاقتصادية، إلا أنهم رفضوا القول بفكرة العفة كوسيلة لمنع الحمل، وشنوا حملة من أجل استخدام وسائل منع الحمل.

وفى عام ١٨٢٢ ظهر فى انجلترا كتاب « إيضاح و براهين مبـــدأ السكان » لمؤلفه فرانسيس بليت Francis Platt أشار فيه إلى أنه من الطبيعى بالنسبة للزوجين اللذين يتهدد البؤس حياتهما ، أن يتخذا ما يرياه من احتياطات مناسبة للحد من عدد الأطفال .

وقد انتشرت الأفكار المالتسية الجديدة فى جميع أنحـاء أوربا ، ففى فرنسا كان الاعتدال فى الانجاب هو الذى يحظى بقدر كبير من الاهتمام. وقد رصد المجلس البلدى فى « فرساى » عام ١٨٨٢ جائزة للاعتدال قدرها ألفان من الفرنكات لكل من ينجب عددا من الأطفال المتفوقين .

وفى هولندا اكتسبت المالتسية الجديدة طابعا إيجابيا ، فقـــد افتتحت الدكتورة اليدا جاكوبز Elida Jaccobs فى ١٨٧٨ فى امستردام أول مستوصف كانت المولدات فيه يقمن بتعليم طرق استخدام وسائل منع الحمل . وفى عام ١٨٨٢ صدر مرسوم ملكى باعتبار المالتسية الجديدة جمعية ذات منفعة عامة (١).

الأسرة والمشكلة السكانية :

إذا استمر سكان العالم الذين يبلغ عددهم الآن حوالى ٤٠٠٠ مليون نسمة يتزايدون بالمعدل الحالى، فمن المحتمل أن يصل عددهم إلى الضعف فى عام ٢٠٠٠، ففى كل يوم يولد ٢٤٦ ألف طفل فى جميع انحاء العالم أى بمعدل ١٧٠ طفل فى الدقيقة الواحدة.

ولسنا بصدد تحليل الموقف السكانى فى العالم ، بل إننا نطرح سؤالا هو : أين يتعين ضبط النسل فى العالم ؟

---

(١) يوسف كامل « ضبط النسل وتنظيم الأسرة » (ترجمة) الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٣٥ـ٤٩ .

إن المشكلة تختلف باختلاف الدول من حيث تقدمها أو تخلفها ، ففى الحالة الأولى يبرز الطابع الانسانى والفردى للمشكلة، وتصبح فكرة الأمومة الاختيارية أمرا منشودا طالما أنها تساعد على تحقيق السعادة والتوازن للزوجين وأطفالها. أما فى حالة التخلف فيعتبر تحديد النسل هو الهدف الأول الذى ينبغى تحقيقه. ومن ثم لابد للذين ينشدون تحقيق التقدم لبلادهم أن يبحثوا المشكلات المتعلقة بتحسين مستوى المعيشة وتخطيط الاسرة فى وقت واحد . وهذا ينطبق على جميع الدول النامية أو التى فى طريقها إلى النمو . ذلك لانه لابد أن يصحب الجهود التى تبذلها للحد من نسبة الوفيات مجهود منظم للتحكم فى معدل المواليد ، وحقيقة الامر أنه لو تم استغلال موارد الكرة الأرضية بالطريقة العلمية ولصالح المجتمع الإنسانى بأسره فإنها لن تكفى إلى الأبد لتغذية سكان يتزايدون زيادة لامتناهية. ومن ثم إذا استمر السكان فى الازدياد فسوف تتكفل المجاعات وحدها بمهمة الزيادة التى كانت تقوم بها من قبل بمساعدة الأمراض والحروب .

إن أكثر من ثلثى سكان العالم لايجدون من الغذاء مايكفى لسد رمقهم. وقد أعلن مدير صندوق الأمم المتحدة لإغاثة الطفولة عن وجود ٥٠٠ مليون طفل يعانون من سوء التغذية . ولهذا ينبغى على العلم الذى أحرز تقدما كان من شأنه إنقاذ الملايين من الأفراد من موت مبكر ، أن يكتشف الوسيلة اللازمة لعدم استمرارهم فى التكاثر بطريقة غير منظمة تنتهى بهم إلى المجاعة، ودون اعتبار أن هناك حاجات أخرى غير الجوع ينبغى اشباعها .

وتعتبر الخصوبة Fertility أمرا مألوفا فى الدول المتخلفة ومن ثم فنحن لانواجه إذن ظاهرة جديدة لتزايد السكان، بل بالعكس نواجه موقفا جديدا ناشأ عن انخفاض نسبة الوفيات .

ونتيجة لهذه الزيادة المستمرة فى عدد الأطفال ، فإن هذا الموقف يثير القلق بالنسبة للحاضر والمستقبل سواء للأسر أو للمجتمع ككل . إذ أنه عندما يزداد عدد سكان دولة ما بنسبة ١٪ فلابد من إنفاق ٤٪ من الدخل القومى حتى يمكن أن يتمتع هذا العدد الزائد من السكان بمستوى المعيشة ذاته والذى كان يتمتع به سائر السكان من قبل . ولما كانت القدرة على الإدخار فى الدول النامية قلما تتجاوز ١,٢٥٪ فإن الدولة لا تواجه صعوبة بالنسبة لرفع مستوى معيشة سكانها فحسب، بل أيضا فى المحافظة على هذا المستوى عند حد مناسب دون اللجوء إلى مساعدات خارجية (١) .

وهكذا يصبح الموقف خطيرا بالنسبة لملايين الأفراد ، ذلك لأن منحنى ازدياد المنتجات الغذائية لا يسير مــع منحنى ازدياد السكان ، وبالرغم من المحاولات العديدة للبحث عن مصادر جديدة للغذاء ، إلا أن الحل الذى يقضى بتحديد النسل هو فى النهاية أكثر الحلول إمكانا للتطبيق الفورى .

أدوار الزوج والزوجة :

كان الذكر تقليديا ، الزوج والأب ، هو رئيس الأسرة الذى يعول أسرته أقتصاديا ويمثلها فى المجتمع ، وهــو الذى يعمل ليكسب لقمة العيش، ولذلك فهو الشريك المسيطر وصاحب الكلمة العليا . وقد كان هذا النمط التقليدى لدور الزوج مسايرا للمعنى المقدس للزواج الذى يركز السلطة فى يد الرجل . ولكن بمرور الوقت ، أصبحت المرأة فى كثير من المجتمعات تعمل مثل الرجل نتيجة لالتحاقها بمراحل التعليم وتخصصاته المختلفة بحيث أصبح لها مكانة مساوية للرجل ، وأصبح لها استقلالها الإقتصادى ، مما أتاح لها وضعا متميزا أو على الأقل بالنسبة لاتخاذ القرارات فى الأسرة .

---

(١) يوسف كامل ، المرجع السابق ، ص٧٧ .

إن التعريف المعاصر لأدوار الزوج والزوجة يشير إلى أن ارقمانهم وواجباتهم ، وحقوقهم أو مسئولياتهم ليست مكتسبة أو ثابتة أو دائمة . فبالاضافة إلى دخول النساء ميداناً كان قاصراً على الرجال من قبل أصبح كثير من الرجال يقومون بأعمال كانت قاصرة فى الماضى على النساء . ولهذا أصبحت هذه المرونة وعدم وضوح الفصل بين الأدوار عائقا فى سبيل تقديم تعريف دقيق لكل من أدوار الزوج والزوجة فى الوقت الحالى نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الجديدة التى تمر بها كثير من المجتمعات المعاصرة وخاصة المجتمعات التى قطعت شوطاً طويلا فى التصنيع والحضرية . فليس غريباً أن نرى الآن بعض النساء يعملن لإعالة أزواجهن وأطفالهن وخاصة فى حالات عجز الأزواج عن العمل . كما أصبح من المألوف أن نرى كثيرا من الأزواج يقومون ببعض الأنشطة الأسرية مثل العناية بالاطفال وإعداد الطعام أو ترتيب المنزل مما كان يعتبر تقليديا من صميم أدوار الأنثى ، الزوجة ، والأم .

وعموما يلاحظ أن التقدم نحو أنماط المساواة يزداد جيلا بعد جيل . ففى دراسة قام بها هيل Hill وتلاميذه على ثلاثة أجيال من الاسرة : (١٠٠ جد ، ١٠٠ أب ، ١٠٠ إبن متزوج) . أظهرت النتائج تحولات وتغيرات هامة تميز الأجيال الجديدة عن أجيال الآباء والاجداد فقد تبين أن اتجاهات القيم عند جيل الشباب أقل حتمية وقدرية ، فقيمهم متفائلة باعتدال ، وتتجه نحو المستقبل . كما أن هناك تحولا فى أنماط السلطة نحو مساواة أكثر مع تقسيم العمل بين الزوجين يتضمن مشاركة أكثر وتخصصا أقل . ووجدت أيضا درجة عالية من العواطف المتبادلة ، والكفاءة المهنية ، والرفاهية الاقتصادية ، فى الوقت الذى ظهر فيه أن الجيل الجديد يتميز بشجاعة أكبر وتحمل المخاطر مرتبط بالتخطيط والمرونة(١).

(1) Reuben Hill, 'The American Family of the Future,' =

وظائف الأسرة :

إن معظم النقد الذى يوجه الآن إلى الاسرة الحضرية المعاصرة هو فقدها الكثير من وظائفها التقليدية . وبتتبع التاريخ المكتوب نجد أن الاسرة كانت طوال العصور الماضية هى النظام الاجتماعى الرئيسى . وقد صاحب التغيرات التى تعرضت لها المجتمعات مثل : زيادة التخصص وتعقد المجتمع الحديث ، تغيرات فى الوظائف التى كانت الاسرة تقوم بها من قبل ، الامر الذى أدى إلى انتقال عدد كبير منها إلى مؤسسات أو تنظيمات أخرى خارج نطاق الاسرة .

وفى عام ١٩٣٠ أكد ، وليام اجبرن William Ogburn أن مأساة الاسرة الحديثة تكمن فى فقدانها لأغلب الوظائف التى كانت تقوم بها وهى .

١ - الوظيفة الاقتصادية : كانت الاسرة فى الماضى وحدة اقتصادية مكتفية ذاتياً حيث كانت تقوم باستهلاك ما تنتجه ، وبالتالى لم تكن هناك حاجة للبنوك أو المصانع أو المتاجر .

٢ - وظيفة منح المكانة : كان أعضاء الاسرة يستمدون مكانتهم الاجتماعية من مكانة أسرهم ، كما كان اسم الاسرة يحظى بأهمية وقيمة كبرى .

٣ - الوظيفة التعليمية : كانت الاسرة تقوم بتعليم أفرادها ولا يعنى ذلك تعليم القراءة والكتابة وإنما تعليم الحرفة أو الصنعة ، أو الزراعة ، والتربية البدنية ، والشئون المنزلية الخ ...

= Journal of Marriage and the Family, 26 (February, 1964)pp. 20 - 28, and Reuden Hill et al., Family Development in Three Generations Comlridge, Mass : Sohen Kman Publishing Co, Inc - 1970.

٤ ـ وظيفة الحماية : كانت الاسرة أيضا مسئولة عن حماية أعضائها . فالأب لا يمنح لاسرته الحماية الجسمانية فقط وإنما يمنحهم أيضا الحماية الاقتصادية والنفسية وكذلك يفعل الأبناء لآبائهم عندما يتقدم بهم السن .

٥ ـ الوظيفة الدينية : مثل صلاة الشكر عند تناول الطعام ، وصلوات الاسرة الجماعية ، وقراءة الكتب المقدسة وممارسة الطقوس الدينية .

٦ ـ الوظائف الترفيهية : كانت الوظيفة الترفيهية محصورة أيضا في الاسرة أو بين عدة أسر وليس في مراكز خارجية مثل المدرسة ، أو المجتمع المحلي ، أو وسائل الترفية المختلفة (١) .

ونتيجة لفقدان الاسرة لهذه الوظائف فإن أجبرن يرى أنها أصبحت مفككة والدليل على ذلك هو زيادة عدد الاسر المنهارة بسبب الطلاق . وقد تعرضت آراء أجبرن لكثير من النقد حيث يرى بعض علماء الاجتماع أنه من الخطأ التأكيد على المحتوى التقليدي والشكل المعين للوظائف بدلا من النظر اليها باعتبارها وظائف تقلص أداؤها بالنسبة للاسرة ؛ وليس هناك شك في أن الاسرة فقدت بالفعل بعض وظائفها التقليدية ، إلا أن هذا الفقدان ينطوي على تغير في الشكل والمضمون . ومثال ذلك أن الاسرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تعد وحدة أقتصادية منتجة في المحل الأول ، ولكنها أصبحت وحدة إقتصادية مستهلكة . فهل استهلاك الوحدة الاسرية أقل أهمية كوظيفة أقتصادية في المجتمع الحديث مما كان عليه في الماضي كوحدة منتجة ؟ وإلى أي مدى يستطيع الاقتصاد الحالي

---

(1) William Ogburn, 'Technology and the Changing Family' Houghton Mifflin, Boston, 1955.

أن يستمر إذا لم يعتمد على الاسرة من حيث هى كذلك فهو استهلاك ، الملابس والمنازل والعربات ، المنتجات الغذائية والاثاث الخ ...

ويمكن تقديم الدليل بنفس الطريقة على أن الوظائف الاخرى التى تدعى نظرية أجبرن أن الاسرة فقدتها مثل : التعليم ، الدين ، الحماية . فإذا كانت الاسرة قد فقدت بالفعل هذه الوظائف المشار اليها فلماذا إذن نجد أن الابناء يعتنقون المعتقدات الدينية والسياسية ، وكذلك المعتقدات الطبقية المشابهة أو المماثلة مع تلك التى يعتنقها آباؤهم ؟ ولماذا نرجع أكثر الإنحرافات وإرتكاب الجرائم إلى الاسرة وليس إلى دور العبادة . كذلك إذا كانت الاسرة قد فقدت بالفعل وظيفتها التعليمية فلما نعتبرها بوجه عام والوالدين بوجه خاص ، المفتاح الذى يحدد مدى تقدم الطفل فى المدرسة ؟

إلا أن النظرية البنائية الوظيفية التى قدمها بارسونز Parsons لم تفسر التغيرات الحديثة فى أنماط الأسرة على أنها انهيار أو تفكك ، بل على العكس من ذلك تماما نجد أن بارسونز كان واضحا عندما أكد أن « عملية التمايز » تؤدى إلى تزايد المؤسسات والهيئات والوحدات التى تقوم بوظائف محددة ، ومعنى هذا أن الوظائف التى كانت تقوم بها فى الماضى وحدة واحدة (الأسرة) أصبحت تضطلع بها وحدات عديدة متخصصة ، بينما تقتصر الوحدة الأصلية على وظائف محدودة. ويشير بارسونز إلى أن التغيرات التى تحدث فى الأسرة تنطوى على مكاسب كما تنطوى على خسائر ، والوحدة التى تفقد بعض أو كل وظائفها ، تصبح أكثر حرية فى تبنى وظائف أخرى : « عندما تكون وظيفتان مستغرقتان فى نفس البناء ثم يحدث أن يقوم بأدائها بناءان مختلفان ، فإنهما تؤديان بدقة وعناية أكثر وبدرجة أكبر من الحرية . وإذن فتحرر الاسرة من الأعمال العديدة التى كانت

تقوم بها فى الماضى بجعلها قادرة على أداء الاعمال المتبقية لها بطريقة أكثر نجاحا . كما تصبح فى مركز يسمح لها بتلبية الإحتياجات العاطفية والشخصية لكل من البالغين والأطفال . ويؤكد بارسونز أن الأسرة أصبحت أكثر تخصصا مما كانت عليه من قبل ولكن هذا لا يعنى أنها أصبحت أقل أهمية لأن المجتمع أصبح يعتمد عليها أكثر فى أداء عديد من وظائفه المختلفة (١) .

هذا ويبرز وليم جود Goode أهمية الوظائف الوسيطة للأسرة ، وجدير بالذكر هنا أن فكرة الاسرة كوسيط (ناقل - مؤثر - قامع) بين الفرد والمجتمع الكبير قد ظهرت فى كتب الاسرة منذ مدة طويلة إلا أن جود هو أول من وضح الأهمية الإستراتيجية للاسرة وخاصة من خلال وظيفتها الوسيطة (٢) .

ويتحدث هوبارت Hobart عن فقدان الاسرة الأمريكية لوظائفها ويركز على توفير الصحبة والأمن العاطفى باعتبارهما الوظائف الأساسية والعامل الاهم وراء قيام أسر اليوم (٣) .

وعموما ، تنحصر وظائف الاسرة الإجتماعية فى الوقت الحالى فى الإنجاب، والإعالة ، والتنشئة الإجتماعية ، ومنح المكانة بالاضافة إلى وظيفة جديدة لم يهتم بها التحليل السوسيولوجى من قبل وهى « الوظيفة العاطفية Affectional Function » ، ونعنى بها التفاعل العميق بين الزوجين وبين الآباء والأبناء فى

(1) T. Parsons and Bales. 'The Family, Socialization and Interaction Process' The Free Press, 1955, pp 10 – 11.

(2) Goode, The Family, op Cit p. 2.

(3) Charles Hobart, Commitment, Value Conflict and the Future of the American Family, Marriage and Family Living, 25 (November, 1963) pp 405-412.

منزل مستقل مما يخلق وحدة أولية صغيرة تكون المصدر الرئيسى للاشباع العاطفى لجميع أعضاء الاسرة وقد أصبحت هـــذه الوظيفة من الملامح المميزة للاسرة الحضرية الحديثة . بعكس الحال فى الاسرة الممتدة فى المجتمعات الزراعية، حيث يتم التفاعل الأولى بين حلقة كبيرة من الاقارب الذين يعيشون متجاورين .

وقد ترتب على هذه الوظيفة الجديدة أن أصبحت الاسرة النواة تحمل عبئاً ثقيلا ، لأنها أصبحت المصدر الوحيد الذى يستمد منه الأفراد الحب والعاطفة. ولهذا لا يريد الأفراد البالغين الزواج فقط وإنما يريدون الزواج السعيد(١).

تأثير النظم الاجتماعية على الاسرة

إن القضية المحورية فى نظرية الاسرة المعاصرة لا يمكن أن توصف بالجدة أو الاثارة ، وذلك لأن الاسرة لا يمكن فهمها على أنها ظاهرة منعزلة، إذ لابد أن نعالجها فى سياق النظم الاقتصادية والسياسية والتأثيرات الدينية والحقائق المتعلقة بالسكان فى المجتمع الذى تنتمى إليه ، وليس من قبيل الصدفة أن المجتمع الزراعى سوف يسائد الأسرة الممتدة ، أو أنه سوف يسمح أو يشجع الزواج المتكرر ،أو أنه سيعطى الوالدين السلطة فى فرض اختيارات معينة للزواج على أبنائهم ، إن مثل هذه العناصر الأثم بناءا إجتماعياً مستقرا نسبيا ، كما أن وجود العائلة الزوجية والحب الرومانتيكى والإقامة المستقلة يمكن أن يكون من خصائص المجتمعات الحضرية ، ولهذا فإن دارسى الأسرة يميلون إلى القول بأن القـوى ذات النفوذ فى المجتمع تسهم فى خلق نوع من النسق الأسرى يمكن أن يكون هو النمط السائد فى وضع اجتماعى معين ، ولهـذا إذا أمكن اكتشاف التطابق بين هذه القوى ، فإن أى مؤسسة تعمل فى ميدان الأسرة يمكن أن تتوصل ،

---

(1) James B. Mckee, op. cit, pp. 362 –363.

أو تضمن وجود عناصر مرغوبة ، وعلى الرغم من الفكرة الشائعة بين الدارسين الأسرة بأن الولايات المتحدة الأمريكية هي أكثر المجتمعات في العالم إبرازا لتلك الحقيقة التي يؤكدها الكثيرون من أن الأسرة النواة هي الشكل النهائي لأسرة عالم اليوم ، إلا أن أهمية الأسرة الممتدة أمر لا يمكن التقليل منه حتى في هذا المجتمع ، ومعنى ذلك أن الأسرة النواة سوف تستمر وتزداد أهميتها في نفس الوقت ولكن جوانب أخرى من النسق القرابي يمكن أن تزداد ضعفا ، وهذا يعني أن الأسرة قد أصبحت منظمة متخصصة أكثر من أي وقت مضى(١)

إن هذا التحول لم يجعل الأسرة أقل أهمية لأن وظائفها الأساسية لا تزال باقية . وإذا أخذنا في الإعتبار الفترة الطويلة التي يكون فيها الوليد الإنساني عاجزا عن مواجهة الحياة وحده فإن القول بأن الانسان حيوان حامل للثقافة الأمر الذي يتطلب فترة طويلة من التدريب والتمرين ، وكذلك القول بأن هناك حاجة لعملية تؤدي إلى وضع الأفـــراد في مواضعهم المختلفة في المجتمع (وهي الأمور التي تعتبر من صميم وظائف الأسرة) فإننا نستطيع أن ندرك ببساطة المركز الجوهري الذي تحتله الأسرة في كل المجتمعات ، وجدير بالاشارة هنا أن بعض الحركات الثورية تحاول أحيانا أن تدمر الأســرة من أجل كسر إستمرارية الأجيال ، وهي الاستمرارية التي تربط السكان بتقاليدها الماضية ولكن بعد مضي وقت قصير فإن كل حركة من هذه الحركات الثورية وكما حدث في الاتحاد السوفيتي تبـــدأ من جديد في التأكيد على الأهمية القصوى للنسق الأسري ، ومنذ عام ١٩٤٠ بدأ قادة روسيا يعلنون أن الأســرة هي أساس الدولة .

---

(1) Talcott Parsons and Robert F, Bales, 'Family, Socialization and Interaction Process, Free press Glencoe' 1955, p. 9.

إن التأكيد على الأهمية الحيوية للأسرة لا يمكن أن يؤدى إلى الزعم بأنه ليست هناك مؤشرات وصراعات خطيرة ، ففى المجتمعات التى تتغير بسرعة تتعرض كل جوانب الحياة الأسرية تقريبا إلى إضطرابات عنيفة ، ويمكن أن نرى بوضوح الطريقة التى يتأثر على أساسها النسق الأسرى بالوسط الاجتماعى الذى يوجد فيه إذا أمعنا النظر فى المستويات المتعددة للتفاعل فى الأسرة ، وملاحظة الأساليب المتعددة التى تتغير على أساسها . إذن فالأسرة التى كانت تؤدى وظائف مستقرة وتقوم بدورها من خلال بناء اجتماعى مستقر نسبيا كانت تشكل مع النظم الاجتماعية السائدة كلا متساندا ، ولكن العوامل العديدة للتغير التى تزايد منذ الثورة الصناعية فى أكثر بلاد العالم تؤدى إلى تغيرات فى شكل البناء الاجتماعى وفى علاقات النظم الاجتماعية بعضها ببعض الأمر الذى يؤدى إلى تغير مصاحب فى النسق الأسرى ، ولكن الأسرة لا تتغير بشكل متوازن مع سرعة وعمق النظم الاجتماعية هذه ، ولهذا فن المتوقع دائما أن تتعرض الحياة الأسرية للاضطرابات والتوتر .

الضغوط الاجتماعية على الأسرة

من الملاحظ أن الأسر التى لها نفس الكفاءة والمقدرة تستجيب بصورة مختلفة للأحداث المتشابهة . ويرجع السر فى أختلاف الاستجابة إلى ما يسمى « البعد المعنوى Meaning Dimension » إلا أن تحول الحادث الضاغط إلى أزمة يتطلب فهما لمعنى مصطلح « الحادث Event » أو تعريفا له . وقد نتمكن من هذا الفهم من خلال استخدام الصيغة التالية :

ا (الحادث) يتفاعل مع ب (وسائل مواجهة الأسرة للأزمة) يتفاعل مع

ج (التعريف الذى تضعه الإسرة للحادث) ينتج د (الأزمة) [١] وتنبعث الاحداث الناتجة من مصادر مختلفةمن داخل نطاق الأسرة أو خارجها و بالتالى فإن النتائج تختلف تبعا لمصدرها . وهناك -مثلا- قاعدة أساسية فى علم الاجتماع تؤكد أن أحداثا معينة خارج نطاق الجماعة قد تؤدى إلى تماسكها مثل نشوب حرب أو حدوث فيضان . ولهذا فان الاحداث الخارجية الضاغطة تشكل أزمة بالنسبة للأسرة أو الجماعة الا أنها تؤدى إلى تضامن أعضائها حتى يتمكنوا من التغلب عليها ، وبالمثل فإن هذه الاحداث الخارجية الضاغطة قد تؤدى إلى توحد الأسرة وجعلها أكثر تماسكا أكثر مما تؤدى إلى انهيارها . غير أن نفس الاحداث قد لا تكون ضاغطة بالنسبة لأفراد آخرين فى نفس الموقف .

أما الاحداث الداخلية فى الاسرة التى تعرف على أنها ضاغطة ، تكون غالبا ناشئة عن أضطرابات تنعكس آثارها على كفاية الاسرة الداخلية [٢] ، ويمكن تقديم أمثلة عديدة على هذه الاحداث مثل فقدان العائل ، والانهيار العقلى ، أو شرب الخمر . . . الخ . لكن حلقة الاحداث ، سواء داخل الاسرة ، أو خارجها التى تعوق حياة أعضاء الأسرة متعددة ، وهى لا تتضمن فقط فقد الاشخاص ، أو العمل أو الدخل ، بل هناك أيضاً أشياء أخرى مثل قدوم طفل جديد ، أو قدوم الحماة للمعيشة مع الأسرة ، فهذه قد تكون أموراً معوقة مثل فقد أى منهم تماما . وكذلك قد تؤدى الشهرة أو الثروة المفاجئة إلى

---

(1) Reuben Hill, 'Social Stresses on the Family'. Social Casework, 39 (February-March, 1953). pp. 139 - 150.

(2) Ibid, p. 142.

لشوء الأزمة أو التمزق مثل فقدها تماماً . وعموما فإن كل تغير مفاجيء فى مكانة الأسرة أو قيام صراع بين أعضاء الأسرة حول تصوراتهم لأدوارهم يمكن أن يؤدى إلى أزمة عائلية (١)

وقد صنف هيل Hill أزمات الأسرة إلى ثلاثة فئات هى التمزق أو فقدان الأعضاء Dismemberment والتكاثر أو الإضافة accession والانهيار الخلقى Demoralization ، يعنى هيل بالتمزق فقد أحد أعضاء الأسرة نتيجة ذهابه إلى الحرب ، أو دخول أحد الزوجين المستشفى ، أو موت أحد الوالدين . ويعنى بالتكاثر أو الأضافة ضم عضو جديد للأسرة دون إستعداد مسبق ، ومثال ذلك حمل غير مرغوب فيه ، أو زوج أم ، أو تبنى طفل ، أو حضور أحد الأجداد المسنين للاقامة مع الأسرة .

أما الإنهيار الخلقى فإنه يشير إلى فقدان الوحدة الأسرية والأخلاقية ويقصد بها هيل ، فقد العـــائل ، أو الخيانة الزوجية ، أو إدمان الخمر أو المخدرات أو الانحراف ، وكل الأحداث التى تجلب الخزى والعار . هذا ويمكن أن تؤدى الأحداث المسببة للأزمة Crisis producing Events إلى نتائج عديدة مثل : الانتحار والطلاق والهجر والهروب ، والإصابة بأمراض عقلية ... الخ .

التوافق مع الأزمة :

إن التوافق مع الأزمة التى تهدد الأسرة يعتمد أساسا على فعالية أداء أعضاء الأسرة لأدوارهم وعلى استجابة المجتمع . ويختلف اتجاه التوافق من

---

(1) Enrest W. Burgess, 'The Family and Sociological Research' Social Forces, 26 (1947). pp. 1-6.

أسرة إلى أسرة . وقد عدد هيل العوامل المؤدية إلى التوافق مع الأزمة فيما يلى : مدى استعداد الأسرة لمواجهة الأزمة ، تكامل الأسرة ، مدى العلاقات العاطفية بين أعضاء الأسرة ، التوافق الزواجى القوى بين الزوجين ، علاقات الصداقة الحميمة بين الآباء والأبناء ، مشاركة مجلس الأسرة فى إتخاذ القرارات ، المشاركة الاجتماعية للزوجة ، والتجارب السابقة الناجحة مع الأزمات (١) .

· أنماط تفكك الأسرة :

يشير تفكك الأسرة إلى إنهيار الوحدة الأسرية وإنحلال بناء الأدوار الاجتماعية المرتبطة بها عند ما يفشل عضو أو أكثر فى القيام بالتزامات دوره بصور مرضية . وقد صنف وليم جود W. Goode (٢) الأشكال الرئيسية لتفكك الأسرة كما يلى :

١ - إنحلال الأسرة تحت تأثير الرحيل الإرادى لأحد الزوجين عن طريق : الانفصال ، أو الطلاق ، أو الهجر وفى بعض الأحيان قد يستخدم أحد الزوجين حجة الإنشغال الكثير بالعمل ليبقى بعيداً عن المنزل وبالتالى عن شريكه لأطول فترة ممكنة .

٢ - التغيرات فى تعريف الدور الناتجة عن التأثير المختلف للتغيرات الثقافية ، وهذه قد تؤثر فى مدى ونوعية العلاقات بين الزوج والزوجة ، إلا

---

(1) Reuben Hill, Families Under Stress, N. Y. Harper and Brothers, 1949. p. 148.

(2) William Goode, ' Family Disorganization' in Robert K. Merton and Robert Nisbet, 'Contemporary Social Problems N.Y. Harcourt Press Jovanovich Inc., 1971. p. 468

أن الصورة أو النتيجة الأكثر وضوحاً فى هذا المجال تكون فى قيام صراع الآباء مع أبنائهم الذين يكونون فى سن الشباب .

٣ – أسرة « القوقعة الفارغة » وفيها يعيش الأفراد تحت سقف واحد ولكن تكون علاقاتهم فى الحد الأدنى ، وكذلك اتصالاتهم ببعضهم ، ويفشلون فى علاقاتهم معا ، وخاصة من حيث الالتزام بتبادل العواطف فيما بينهم .

٤ – يمكن أن تحل الأزمة العائلية بسبب أحداث خارجية External . وذلك مثل الغياب الاضطرارى المؤقت أو الدائم لأحد الزوجين بسبب الموت أو دخول السجن أو أية كوارث أخرى مثل الحرب أو الفيضان ... الخ.

٥ – الكوارث الداخلية التى تتسبب عن فشل لاإرادى فى أداء الدور نتيجة الأمراض النفسية أو العقلية مثل التخلف العقلى الشديد لأحد أطفال الأسرة ، أو الاضطراب العقلى لأحد الأطفال أو لأحد الزوجين ، والظروف المرضية الجسمانية المزمنة والخطيرة والتى يكون من الصعب علاجها.

وجدير بالذكر أنه لاينظر لجميع أنماط تفكك الاسرة فى أى مجتمع بنفس الدرجة من الاهمية . إلا أن الطلاق يعتبر أهم أشكال التفكك الأسرى فى جميع المجتمعات بلا استثناء

الطلاق

تضمن الإنساق الإجتماعية فى جميع أنحاء العالم شخصين على الأقل يعيشان معا ، ورغم هذا فكل منهما له احتياجاته وقيمة الخاصة . ونتيجة لهذا الإختلاف تكون إمكانية الصراع قائمة ومن ثم تحدث الرغبة فى الرحيل الإدارى . ويعتبر

الزواج فى كثير من المجتمعات عقدا مدنيا يمكن فسخه، تحت ظروف معينة وقد صنف روبرت وينش Robert Winch الظروف والقرائن التى تجعل الانحلال الزواجى أمرا مشروعا كما يلى (١) :

١ - يكون الزواج فى بعض المجتمعات غير قابل للانحلال الا بالموت، وتتبع هذه المجتمعات الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

٢ - تسمح بعض المجتمعات بالطلاق . إذا ثبت أن أحد الزوجين أجرم فى حق التزاماته الزوجية.

٣ - يسمح بالطلاق إذا تبين فشل الزواج وانهياره التام.

٤ - يسمح بالطلاق فى حالة إتفاق الطرفين على ذلك.

٥ - يكون من حق الزوج المطلق أن ينهى زواجة بمحض ارادته ودون موافقة الطرف الآخر (١).

---

(1) Robert Winch. 'The Modern Family' N Y. Holt, Rienhart and Winston Inc, 1971, pp. 574-575.

(١) بالرغم من أن الزواج لايتم فى المجتمعات الاسلامية إلى بموافقة كل من الطرفين المقبلين على الزواج الا أن الطلاق عندما يحدث فانه يكون من حق الزوج فقط، وقد يحدث دون موافقة الزوجه أو حتى دون علمها، ولهذا ظهرت الدعوة فى الآونة الأخيرة الى ضرورة توقيع الطلاق أمام القاضى، بدلا من توقيعه أمام المأذون لتكون هناك فرصة للتروى والحد من الاندفاع الذى قد ينتهى الى تقويض الأسرة وتشريد الأطفال، وحتى يمكن اجراء التحكيم القرآنى تحت رعاية القاضى، الذى يبدأ أولا بمحاولة التوفيق بين الطرفين، ثم بدعوة حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة حسبما جاء فى الآية الكريمة. وعموما فان ايقاع الطلاق بغير سبب شرعى حرام ومكروه، فما أحل الله شيئا أبغض اليه من الطلاق. وذلك فان الزوج اذا اوقع الطلاق بغير الطريق الذى رسمه القانون استحق الجزاء، سواء كان هذا الجزاء تعزيرا أو تعويضا للمطلقة حسبما ينتهى اليه رأى القاضى.

ويعتبر الطلاق بدون شك « حادثا مشئوما » للاشخاص الذين يشملهم كما يعتبر . مؤشرا واضحا لفشل نسق الأسرة . بالإضافة إلى اعتباره دليلا على محنة شخصية ، هذا وينظر اليه كذلك كطريق للهروب من توترات الزواج ومتاعبه . ويدعى « جود » أن الطلاق لا يسمح به فقط فى معظم مجتمعات العالم بل يرى أن الطلاق فى المجتمعات البدائية أعلى نسبة منه فى المجتمعات المتحضرة .

الطلاق كجزء من نسق الأسرة :

يميل الناس فى العادة إلى النظر الى الطلاق Divorce ككارثة أو كأساة، كما سبق أن أشرنا ، وعندما ترتفع معدلات الطلاق فى مجتمع ما فإن هذا يكون دليلا على أن نسق الأسره لا يعمل بصوره مرضية . وبالرغم من أن بعض الأديان السماوية تبيح الطلاق إلا أنها تضع عوائق كثيرة فى سبيله ، فالديانة المسيحية مثلا تحرم الطلاق إلا فى ظروف معينه ومحددة للغاية ، ونظرا لأن معظم المجتمعات الأوربية (التى تدين بالمسيحية) تجعل من الحب الرومانتيكى القائم على الاختيار الحر أساسا للزواج فإن الطلاق إذن يعنى الفشل .

ولما كانت جميع أنساق الزواج تتطلب وجود فردين (الزوج والزوجة) يعيشان معا ، فانه لابد - ولو فى فترة معينة من دورة الحياة الزوجية - أن تنشأ بينهما بعض الخلافات والتوترات والمشاكل ، قد تصل الى درجة عالية بحيث تصبح حياتهما معا مستحيلة وعند ذلك يلجآن إلى الطلاق كحل أمثل لهذه المشاكل وبهذا المعنى يكون الزواج سببا فى الطلاق، أى أنه لكى يحدث الطلاق لا بد أن يحدث الزواج أولا .

ويوجد نمط زواجى آخر منتشر فى المجتمعات المختلفة غير الصناعية وهو ارتباط الزوجين بشبكة العلاقات القرابية ، ولذلك لا تكون الخلافات قاصرة

على الزوجين فقط بل قد تمتد ليشارك فيها الآقارب الأمر الذى يزيد من حدة التوترات بين الزوجين إلى درجة لا تطاق .

ويوجد فى كل مجتمع بعض الأنماط الإجتماعية ، يمكن عن طريقها تفادى هذه التوترات . وذلك مثل النظر إلى بعض الخلافات باعتبارها أمورا تافهة، فقد يعتبر الناس الخلاف النسبى فى القيم بين العريس والعروسة أمرا غـير ذى أهمية .

وتختلف نظرة المجتمعات فى تعريفها للمستوى أو للحد الذى يصبح معه الخلاف بين الزوجين أمرا لا يطاق أو فى أسباب انحلال الزواج غير الموفق . فالرأى العام فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر مثلا كان ينظر إلى الحد الذى لا تطاق معه الحياة الزوجية على أنه درجة من درجات عـــدم الإنسجام التى لا يستطيع الأزواج فى العصر الحديث تحملها .

هذا ويختلف الموقف من الزواج غير الموفق مـــن مجتمع لآخر وخاصة فى المجتمعات الغربية . ففى أسبانيا وايرلندا وايطاليا والبرازيل لا يسمح هناك الا بافتراق الزوجين القانونى ورفض أى شكل اخر مثل الهجر أو الإنفصال الجسدى أما فى المجتمعات التى تتميز بشبكة علاقات قرابية واسعة والتى يكون فيها الطلاق اختياريا ، فإن الزوجين يستطيعان الإستمرار فى أعمالها اليومية ولكنهما يحدان من اتصالهما إلى الحد الأدنى . أما فى المجتمعات التى تسمح بتعدد الزوجات فإن الرجل إذا ضاق بزوجته أو وجد أن حياته معها مستحيلة فله الحق فى أن يتزوج من أخرى فى نفس الوقت . وبذلك يمـــكنه أن يرفض قضاء أى وقت مع أحدى زوجاته إذا كانت علاقته بها غير سعيدة أو غير موفقة .وفى الصين يقيم الزوج غير الموفق فى علاقته بزوجته بعيدا عن بيته لفترات طويلة من الزمن مع بعض أقاربه أو جماعات العمل (وهذا يعتبر نوعا من الإنفصال) .

ويحدث الطلاق إذن نتيجة لتعاظم الخلاف بين الزوجين إلى درجة لا يمكن تداركها ، ولكنه بالاضافة إلى ذلك يؤدى إلى صراع جانبى بين كل من أسرتى الزوج والزوجة . حيث تقع بينها فى العادة خلافات لا نهاية لها ذات مضمون مادى أو معنوى أو تتعلق بالأطفال الذين كانوا ثمرة هذا الزواج . ولا توجد فى أى مجتمع طرق معينة واضحة لتجنب أو خفض حدة الصراع الزواجى ، أو حتى جعل الأزواج قادرين على تحمل زيجاتهم .

فالطلاق إذن يكون أحد صمامات الأمن للتوترات الحتمية التى تقع فى الحياة الزوجية . وليس لدينا حاليا أى مقياس أو دليل نصل منه إلى أسباب تفضيل معظم المجتمعات للطلاق بدلا من أشكال الانفصال الأخرى . فالطلاق هو الحل الاكثر انتشارا لمشاكل الحياة الزوجية . كما أن الحلول البديلة التى تقدمها المجتمعات المختلفة للفصل بين الزوجين فى حالة وقوع الخلاف بينهما هى فى الواقع اختلاف فى نمط الطلاق والنقطة الوحيدة التى يختلف فيها الطلاق عن هذه الأشكال من الانفصال هو أنه يسمح بالزواج الثانى لكل من الزوج والزوجة .

وفى المجتمعات التى لا تسمح بالطلاق فإن الرجال عادة ما يدخلون فى علاقات جديدة وعديدة خارج الزواج ، وذلك باتخاذ عشيقات لهم إلا أن هذا السلوك لا يعتبر قانونيا وهو أيضا مخالف لقواعد الدين . ومن الأمثلة على ذلك ، أنه فى الهند يستطيع الرجل أن يأتى بزوجة أخرى تعيش مع زوجته فى نفس المنزل وفى الصين واليابان يمكن أن يكون للرجل محظية أو عشيقة ، ولكن هذه الامكانية (أمكانية أتخاذ عشيق) لا يسمح بها للمرأه على الاطلاق مهما كانت درجة عدم توفيقها وتعاستها فى الزواج . وفى المجتمعات التى تسمح بتعدد الزوجات يستطيع الرجل أن يتزوج بأخريات فى حاله عدم قدرته على احتمال الحياة مع زوجته

الأول ، بينما لا يسمح للزوجة التى تكون فى نفس الظروف بالزواج من رجل آخر فى نفس الوقت . كما أن الدول الغربية التى يسمح فيها بالانفصال فقط وليس بالطلاق (العقيدة المسيحية فى المجتمع المصرى أيضا لا تقبل الطلاق ولكنها تقبل الإنفصال فى حاله عدم تمكن الزوجين من المعيشة معا) فالاتجاه العام يعارض بشدة دخول الزوجة فى علاقات غير مشروعة . . بينما تغض الطرف عن اتخاذ الأزواج لعشيقات .

وعموما نستطيع أن نقول أن الطلاق نهاية مؤلمة للغاية أو أنه مأساة ، ولكنه فى الحقيقة أفضل من الحياه التعيسه غير الموفقة ، وحتى فى حالة وجود أطفال ، فإن معيشة الأطفال مع الأم أو الأب فى حالة انفصالهما تكون أفضل من المعيشة فى جو مشحون بالخلافات والصراعات الدائمة مما يكون له أكبر الأثر على سلامتهم النفسية أو فى تكوين شخصياتهم بصورة سوية .

الفصل العاشر

التغير الاجتماعي والثقافي

نظرة مبدئية : —

ليس هناك شك فى أن ما يشهده عصرنا الحالى من تغيرات ضخمة فى شتى مجالات الحياة ، هى تغيرات لم يعرف العالم لها نظيرا من قبل . وقد ازدادت معدلات هذه التغيرات بمرور الوقت بحيث لم تعد قاصرة على الدول المتقدمة التى تمتلك وسائل التقدم العلمى والاقتصادى وما يستتبع ذلك من نتائج اجتماعية وثقافية ، بل إن درجات متباينة من التغير أصبحت تواجه الدول النامية أو دول العالم الثالث التى تحاول اللحاق بركب التقدم العلمى واجتياز الهوة التى تفصلها عن الدول المتقدمة .

وقد شغلت قضية التغير علم الاجتماع منذ نشأته حتى يومنا هذا ، وعبر عنها رواده والباحثون فيه على اختلاف اتجاهاتهم ونظرياتهم بطرق متعددة على مستوى النظرية والبحوث التاريخية والامبيريقية . وليس هنـــاك شك ، أن المناخ الفكرى والظروف الاقتصادية والاجتماعية التى كانت سائدة فى أوربا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد وجهت المفكرين فى المجتمع إلى وجهتين مترابطتين . الأولى متابعة منطق العلوم السائدة وخاصة الطبيعية والبيولوجية فى الدراسة والبحث فى مسائل المجتمع ، والثانية محاولة فهم التغيرات العديدة التى ظهرت وطأتها على النظم الاجتماعية والسياسية وعلى انساق القيم والعادات والتقاليد وعلى اتجاهات السلوك الاجتماعى وأسلوب الحياة .

ومن المعروف أن فهم التغير وإدراك عوامله وتتبع مساراته وتحليل

نتائجه قد اختلط بالإيديولوجيات والمذاهب الفكرية والفلسفية المتصارعة ، ولهذا ترجمت نظريات التغير عن اتجاهات محافظة ومتحررة واصلاحية ، ظلت حتى اليوم حية وقوية ويمكن تمييزها بسهولة فى النظرية السوسيولوجية العامة، ودراسات التغير بصفة خاصة . هذا ويزخر تراث علم الاجتماع بنظريات عديدة عن التغير سواء فى أعمال الرواد الأوائل من أمثال ماركس ، ودور كايم ، وأوجيست كومت، وسبنسر، وماكس فيبر ، وباربتو ،أو فى دراسات المحدثين من أمثال اجبرن ، وتشابن ، وسوروكين ، سواء على مستوى فهم التغير وتحليله فى وحدات كبرى أو عالمية Macro Sociology أو على مستوى وحدات صغيرة Micro Sociology أو بمعنى آخر هناك فئتان من النظرية ، نظرية عامة واسعة المدى Wide Range ونظرية واسعة المدى Middle Range [1] .

وعلى الرغم من الصعوبات أو التعقيدات التى تصاحب التغير أو يثيرها إلا أنه يعبر عن العملية الجوهرية التى تتيح للمجتمع البقاء والاستمرار فى الوجود. فقد أصبح من المعروف أن المجتمعات تتخلص من القديم الذى أصبح غير ملائم وغير مناسب وتخلق الجديد الذى يواجه مطالبها واحتياجاتها ، وقد يشار إلى هذا التغير على أنه تغير اجتماعى أو تغير ثقافى أو أنه مزيج منهما ، وقد تكون عملية التغير بطيئة أو سريعة ، تطورية أو ثورية ، لكن التغير فى حقيقة الامر يفهم عند الكثيرين على أنه عملية تحافظ ديناميا وأحيانا استاتيكيا على كيان المجتمع وتلائم بين تنظيماته ، وتؤلف بينها وتنسقها ، فالانسان

---

١ - لمزيد من التفاصيل أنظر فى كتابات ميرتون Merton وجورج جيرفيتش George Gurvitch وعاطف غيث فى التغير الاجتماعى والتخطيط .

لا يكف عن اكتساب الخبرات ، ولا يكف عقله عن التفكير ، لأن حياته فى واقع الأمر لا تصلح بغير هذا ، وكلما اكتسب الانسان خبرة أو استفاد فكراً تفتحت أمامه طرق أوسع وفرص أفضل فى الحياة . وهكذا نتبين أنه على قدر ما فى مصطلح « التغير الاجتماعى » من مظهر البساطة النسبية إلا أن مفهومه السوسيولوجى شامل واسع يحتاج إلى تحديد موضوعى دقيق .

ويشير التغير الاجتماعى إلى « العملية التى تؤدى الى اختلاف الموضوع (نظام ـ نسق ـ قاعدة ـ قيمة .. الخ) بالمقارنة بحالة سابقة له فى مدى قريب أو بعيد » . وعملية التغير الاجتماعى على هذا النحو ليست مجرد إضافة ميكانيكية أو إنقاص لبعض الأنماط والسمات السابقة بطريقة كمية ، وإنما هى إلى جانب ذلك عملية إضافة وتعديل كيفيـة لسمات ثقافية مختلفة فإذا اطرد التغير كشكل متسلسل كانت نتائجه إضافات لمراحل متتابعة سابقة من التغير ، أمكن تسمية هذه العمليـة تطوراً . أى أن كل تطور لاحق (فى هذا التطور) إنما يسير على نهج كل تغير سبقه ، ولهذا تبدو كل التغيرات ذات الطبيعـة التطورية متصلة الحلقات ، إلا أن هذا لا ينفى التأثيرات التى تمارسها قوى معينة ذات وجود كامن أو واقع وما قد يترتب على ذلك من تغيرات متلاحقـة (1) .

ولعل فى هذا ما يؤكد أن حقيقة التغير قد شغلت الفكر الإنسانى وبقيت من أكبر المشاكل المحيرة فى العلوم الاجتماعية ، ويبدو ذلك أكثر إذا تساءلنا عن اتجاه التغير الاجتماعى نحو هدف معين يسعى إليه الإنسان أو المجتمع أو

---

1 - John Eric Nordskog, "Social Change" (McGraw - Hill com., Inc., N-Y, 1960) p. 1.

نحو خلق الكوارث والأزمات ، أو عن شكل التغير الاجتماعى ، هل هو اليوم أسرع من الأمس وهل سيسرع فى المستقبل ؟ أو عن مصدر التغير الاجتماعى هل هو استعارة من الخارج أو يقوم على الاختراع المستقل ؟

كل هذه الاسئلة شغلت بال الكثيرين من علماء الاجتماع واجتهدوا نظريا فى الاجابة عليها ، وخرجت نظريات ذات أصول مختلفة ووجهات متباينة . الا أن مضمون الاجابة عليها من ناحية أخرى يشكل اطار المقومات التى توجه البحث الاجتماعى فى التغير على مستوى المجتمع ككل أو على مستوى نسق أو نظام أو تنظيم فيه . والمستقرىء لدراسات علماء الاجتماع الذين أنفقوا قدرا ملحوظا من جهودهم العلمية على دراسة التغير ، يجد أن مادة كثيرة قد كتبت عن مسألة العلية فى التغير ، ومن المألوف فى المقدمات التى تصدر بها دراسات التغير أن نجد هذا السؤال الهام . . : **ماسبب التغير الاجتماعى ؟ وهل يستطيع عامل واحد أن يفسر التغير بأسره ؟ أم تفسره عوامل مختلفة تعمل معا ؟ أو ماهى الضرورة فى ضبط التغير الاجتماعى ؟ وهل نستطيع أن ننظمه أو نقوده فى اتجاه رغباتنا ؟** .(1)

ومع ذلك ، ودون الدخول فى التفاصيل التى أصبحت مألوفة فى كتابات علم الاجتماع فان حقيقة التغير واضحة امبيريقيا ، ولكن فهمها وتحليلها وادراك توقعاتها وضبطها ليس أمرا سهلا ، فهناك على الأقل ثلاث صعوبات تقف عائقا فى فهم التغير :

١ - أن التغير متداخل فى البناء ، فمعظم العناصر والابعاد فى المجتمعات

1 - Kingsley Davis., ' Human Society " Macmillan Company, N.Y, 1949). pp. 621-622.

التقليدية تتغير وكلها قابلة للتغير . وأكثر من ذلك أن معظم الصعوبات التي تعترض دارس البناء الاجتماعي الكلي يمكن أن تتضاعف كثيرا بالمقارنة عند فهم أو وصف بناء خاص في وقت معين .

٢ ـ كثرة أنماط التغير مما يجعل التعميم الذي يصدق على أحد الأنماط قد لا يصدق على الآخر .

٣ ـ قلة المعرفة التي ترتكز على البحث الدقيق مما يكون من الضروري قبل أن نقبل على عملية تفهم التغير أن يكون لدينا خط أساسي نرتكز عليه ويمكننا أن نبدأ منه (١) .

وثمة صعوبة أخرى ، تعتبر امتدادا لتراث القرن التاسع عشر والنظريات التي طرحتها دراسات فلسفة التاريخ والاتجاهات التطورية تكمن في اختيار المصطلح الذي يدل على انتقال المجتمع من حالة الى أخرى والخلفية الفكرية أو القيمية التي تكمن وراءه . فقد كان علم الاجتماع منذ بداية ظهوره مرتبط بفلسفة التاريخ ، ورغبة في وضع تفسيرات مناسبة للتغيرات السريعة المتلاحقة في المجتمعات الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فقد أهتم المؤرخون والفلاسفة الاسكتلنديون من أمثال (فرجسون Ferguson وميلر Miller وروبرتسون Robertson) والفلاسفة الفرنسيون مثل (فولتير Voltaire وتيرجو Turgot وكوندرسيه Condorcet) والمؤرخون والفلاسفة الألمان (مثل هيردر Herder وهيجل Hegel ، كل هؤلاء اهتموا بتفسير أو شرح أو اختبار الثورات الاجتماعية والسياسية في عصرهم من خلال النظرية

---

1 - Lowry Nelson and Others, 'Community Structure and Change, N.Y; 1960) pp 391-392.

التاريخية العامة ، وقد كان تأثيرهم عميقا ويمكن ملاحظته عند بعض الكتاب مثل سان سيمون Saint-Simon وباكلى Buckle وفى أعمال علماء الاجتماع الرواد من أمثال كومت Comte وسبنسر Spencer وماركس Marx ؛ وقد ظل المدخل التطورى مسيطرا على علم الاجتماع ، والانثروبولوجيا حتى بعد القرن التاسع عشر . فماكس فيبر لم يقدم نظرية فى التاريخ العالمى وانما عبر عمله السوسيولوجى عن اهتمامه الشديد بأصول الرأسمالية الغربية الحديثة ، وبتزايد الاتجاهات العقلانية فى الحياة الاجتماعية ، وما تتضمنه بالنسبة للحرية الانسانية. وقد رفض دور كايم علم الاجتماع التطورى الذى قال به أوجيست كومت ولكن إتجاهه العام فى تصنيف المجتمعات كان يعتمد على مخطط تطورى ، كما أن تقسيمه للعمل فى المجتمع Division of Labor in Society كان يهتم بعملية التطور من المجتمعات البدائية الى المجتمعات الحديثة . وقد تأثر هوبهاوس Hobhouse الى حد كبير بكومت وسبنسر ، وكان انتاجه السوسيولوجى مشتقا مباشرة من المفهوم الفلسفى للتقدم الاجتماعى .

ان تصورات التغير Change والتطور Evolution والنمو Development والتقدم Progress فى هذه النظريات السوسيولوجية المبكرة كانت غامضة فى كثير من الأحيان. وقد كان النقد الذى وجه إليها يتركز على عدم ملاءمة المصطلحات عند تطبيقها على الظاهرة الاجتماعية أو فى وصف العلاقات بينها .

أن مفهوم التطور الاجتماعى يشتق مباشرة من نظريات التطور البيولوجى التى أزاحت بقوة (فى القرن التاسع عشر) تأثير فلسفة التاريخ على علم الاجتماع. وقد قدم هربرت سبنسر فى مؤلفه الاستاتيكا الاجتماعية (١٨٥٠) social Statics وكذلك فى مؤلفه عن مبادىء علم الاجتماع Principles of

sociology مناظرة بين المجتمع والكائن الحي ، وبين النمو الاجتماعي والنمو العضوي ، وقد تأثر سبنسر الى حد كبير بالنظرية الداروينية في النشوء والإرتقاء ، والآلية التي يحدث بها التطور . فالمجتمعات في رأيه تتطور من حالة يعمل فيها الناس نفس النوع من العمل الى حالة من التخصص والتعاون . ففي مراحل الصراع الأول من أجل البقاء تظهر الروح الحربية ، والحرب المنظمة تدفع الجماعات الصغيرة الضعيفة الى الاتحاد مع المجتمعات الكبيرة التي يسودها السلام طلبا للحماية ، ويؤدي التوازن بين المجتمعات في بعض الأوقات الى إتاحة الفرصة لاستمرار السلام فترات أطول ، ومن ثم تتهيأ الفرصة لقيام المرحلة الصناعية ، وهنا تظهر مستويات أخرى غير القوة البدائية تحكم وتهيمن على عملية البقاء للأصلح .

وقد أشار الكتاب المحدثون الى الاختلافات بين النظرية البيولوجية والنظريات المختلفة للتطور الإجتماعي . وبالرغم من أن وليم اجبرن(١) لم يرفض مفهوم التطور الإجتماعي كلية الا أنه لاحظ أن ، محاولات ايجاد قوانين للوراثة ، والإختلاف والإنتقاء في تطور النظم الإجتماعية لم ينتج عنه سوى نتائج ليست ذات أهمية كبيرة

وبالمثل فقد كتب جوردون تشايلد Gordon Childe (٢) يقول ، هناك اختلافات هامة بين التقدم التاريخي والتطور العضوي ، وبين الثقافة الإنسانية وبين مكونات الجسم الحيواني ، وبين التراث الإنساني وبين المؤثرات البيولوجية ، فمعتقدات الإنسان ووسائل دفاعه خارجة عن نطاق جسمه ،

---

1 - W.F. Ogburn, Social Change (New-York, 1922,p. 59 .

2 - V Gordon Child, Man Makes Himself, London 1956, pp. 16 – 17.

وباستطاعته أن يتركها جانبا وأن يستعملها متى شاء كما أن طريقة استخدام تلك الوسائل ليست موروثه ، بل يتعلمها الفرد ببطء خلال نموه من جماعته التى ينتمى اليها . فالميراث الإجتماعى الانسان لم ينتقل اليه عن طريق الخلايا الجرثومية Germ - Cells التى اخرجته الى الوجود ، ولكن تم ذلك عن طريق انتقال هذا التراث من جيل الى جيل وبدأ الإنسان فى إكتسابها فور ولادته . والتغيرات فى الثقافة والتقاليد يمكن تلقينها وضبطها أو تأخيرها أو تعويقها ، فالاختراع Invention ليس تحولا فجائيا فى الموروثات Germ - Plasma ولكنه تركيب جديد للتجربة المتراكمة التى ورثها المخترع عن التراث الإجتماعى. وأعتقد أنه أصبح واضحا الآن نوع الإختلافات الأساسة بين العمليات التى كانت موضع المقارنة هنا .

ولهذا أدرك الباحثون منذ وقت طويل عدم جدوى التناظر بين التطور البيولوجى والتطور الاجتماعى ، وقد فضل بعض علماء الاجتماع استخدام مصطلح النمو الاجتماعى Social Development للاشارة إلى عملية التغير التاريخى ، ويستخدم هذا المصطلح حاليا ليشمل التغير بمعنى الظهور بالتدريج أو كشف إمكانية ظهور شىء ما بصورة متتابعة ، وكثيرا مايطبق على الظواهر الاجتماعية. وبالرغم من ذلك فمصطلح النمو ليس أكثر دقة من مصطلح التطور فى تطبيقه على الظاهرة الاجتماعية . ففى الاستعمالات العادية يعنى النمو ، النمو التدريجى ، أى نمو ما هو فى الخلية ، وهذا ما نعنيه عند ما نتكلم عن نمو الطفل ، أو نمو المرض ، ولكن من الصعب أن نتكلم بنفس الطريقة عن النمو الاجتماعى لاننا لا نستطيع بأى صورة من الصور أن نرجع ظاهرة ما إلى خلاياها أو نضع حدا فاصلا بين النمو والانهيار . وبالرغم من ذلك فهناك عمليتان اجتماعيتان يمكن تطبيق مصطلح النمو عليهما وهما نمو المعرفة ونمو التحكم

الانسانى فى البيئة الطبيعية كما يظهر فى الكفاية التكنولوجية والاقتصادية .

هذا ويستخدم مصطلح النمو فى معظم الكتابات السوسيولوجية الحديثة بطريقة مختلفة تماما . الأول : للتمييز بين نمطين من المجتمعات الحديثة ، وهى الصناعية من ناحية وباقى المجتمعات من ناحية أخرى ، بما فى ذلك المجتمعات الريفية الزراعية والتى تتميز بمستويات الدخل المنخفض ، الثانى : للاشارة إلى العملية التى بدأت بها المجتمعات الأخيرة فى الاتجاه نحو التصنيع .

وهذا المفهوم الحديث للنمو له ميزتان ، الأولى : أنه لم يلجا إلى أى نظرية عامة فى التطور الاجتماعى أو النمو ، بل يهتم بنوع معين من التغير الذى يمكن ملاحظته فى الوقت الحالى . وكذلك الإشارة إلى التغيرات الاقتصادية البارزة التى يمكن قياسها بشىء من الدقة . والثانية تكشف ماكان متضمنا فى معظم نظريات النمو المبكرة بالنسبة لقيمتها المقبولة ظاهريا عن نمو المعرفة والتحكم أو السيطرة على الطبيعة ، أو بمعنى آخر ، نمو القوة البشرية الانتاجية . والحقيقة أن كثير من الدراسات الحالية لا تلجأ لأى نظرية عامة فى النمو الاجتماعى وبالتالى تنتفى الحاجة إلى استقصاء مقارن أو تاريخى .

أن مفاهيم التطور الاجتماعى والنمو الاجتماعى التى ناقشناها الآن ترتبط بشدة بفكرة التقدم Progress . وفى حالة كومت وسبنسر لا يحتاج الأمر إلى شرح . أما هوبهاوس فقد افترض اختلافا بين التطور الاجتماعى والتقدم الاجتماعى وبالرغم من هذا فقد كان مفهوم التقدم يسيطر على أعماله . إلا أنه أكد أن النمو فى مجال معين فى الحياة الاجتماعية قد يؤدى إلى نتائج غير مرغوب فيها . ومع ذلك فمفهوم التقدم يوجد فقط كتصور تقييمى أو ذاتى ، وطبيعته

كقيمة مميزة تعتمد على وجهة نظر الملاحظ ، كما أن التطور يمكن أن يكون فى بعض الأحيان تقدما وفى بعضها الآخر تخلفا ، ولهذا يبدو بعض أوجه التغير الاجتماعى والثقافى فى بعض الأحيان متميزة أو مختلفة ولكنها فى واقع الأمر تتصل كل منها بالأخرى . ولعل الصعوبة فى تمييز هذه المصطلحات ترجع إلى أن « الاجتماعى Social » يشير إلى « المجتمع Society » الذى لا يكون مترادفا مع « الثقافى Cultural » الذى يشير إلى الثقافة التى تشتمل على كل العناصر المادية واللامادية ، وكل ما هو نتاج الوجود الإنسانى ، كما أن المجتمع قد يشار إليه أو تحلل ظواهره من خلال تصورات سيكولوجية لا تنطبق على الأشياء المادية . وعلى ذلك إذا كان من الممكن تحديد ما هو اجتماعى من خلال بعض الملامح المجتمعية ، فإن هذا يستدعى بالضرورة أن يكون التغير الاجتماعى تغيرا فى آلية الترابط الإنسانى .

وعموما فقد أهملت فكرة التقدم منذ نهاية القرن التاسع عشر ، ليس فقط فى علم الاجتماع بل فى النظرة العالمية للتفكير فى المجتمعات الغربية . وهذه الظاهرة ذاتها تستحق دراسة سوسيولوجية . وقد ظهرت بالفعل مجهودات مستمرة هدفها أن تخلق من علم الاجتماع علماً متحرراً من القيمة Value-Erbe وفى خلال نفس الفترة نمت فى التفكير الفلسفى فكرة النسبية الأخلاقية Ethical Relativism مما أسفر عنه الاعتقاد بأن عالم الاجتماع يستطيع بل يجب أن يتجنب الأحكام القيمية .

كل هذه الصعوبات التى لا حصر لها فى نظريات التطور والنمو والتقدم أدت إلى ظهور مصطلح التغير الاجتماعى Social Change ليشير إلى جميع الاختلافات التاريخية فى المجتمعات الانسانية . ومن الضرورى أن نضع فى

اعتبارنا عند ما نستخدم مصطلح « التغير » التجربة الماضية للانسان فى أبعادها الثقافية والاجتماعية من خلال مجتمع معين ، لأنها هى التى تجعله قادرا على خلق الثقافة ونقلها فى شكل اجتماعى من جيل إلى جيل . ومن المعروف أن للانسان والحيوان تاريخا طويلا ، لكن الفرق بين الاثنين هو أن الأول يكتب تاريخه وينقله بنفسه إلى الأجيال التالية أو بمعنى آخر ، تنتقل عناصر الثقافة كتغيرات وتنتشر كذلك من خلال وسط اجتماعى على درجة معينة من التنظيم .

هذا ويعنى التغير الاجتماعى (بالنسبة لعلم الاجتماع) ظهور « اختلاف » يمكن ملاحظته فى البناء الاجتماعى ، أو فى العادات المعروفة ، أو فى معدات وآلات لم تكن موجودة من قبل وذلك بالمقارنة بحالات أو أوضاع سابقة . ولقد صيغت نظريات التغير المبكرة من خلال الأفكار التطورية التى ميزت الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كما بينا من قبل ، ولذلك لو أمعنا النظر فى نظريات علم الاجتماع المبكرة لوجدناها فى حقيقة الأمر نظريات فى التغير الاجتماعى (1) .

وقد أتجهت نظرية التغير فى الثلاثينات وبعد الحرب العالمية الثانية اتجاهات عديدة نتيجة لسرعة التغيرات الاجتماعية والإقتصادية فى كثير من المجتمعات وكذلك نتيجة لتراكم المادة الامبيريقية عن التحولات المترتبة على هذه التغيرات فى الانماط الاجتماعية المختلفة . وقد أسهمت الدراسات والمعلومات التى استمدها علماء الاجتماع من مجتمعات العالم الثالث أو المجتمعات النامية فى اثراء المادة المقارنة . هذا فى الوقت الذى بدا فيه واضحا اتساق نظرية التغير مع

---

1 - Gould and Kolb, Dictionary of the social science, Great Britin. 1964, p 647.

الاطر المذهبية لمدارس علم الإجتماع المعاصرة . فقد نظر بعض علماء الاجتماع من أمثال جينزبرج إلى التغير نظرة بنائية وظيفية بينما نظر اليه اخرون مثل أ . م . روز على أنه تغير قيمى وأيديولوجى أساسا . ومن المؤيدين للاتجاه البنائى الوظيفى كينجسلى ديفيز Kingsley Davis حين يقول . « أن التفسير الاجتماعى هو التحول الذى يقع فى التنظيم الاجتماعى سواء فى تركيبه وبنيانه أو فى وظائفه(١). كذلك أرجع وليم أجبرن التغير الاجتماعى إلى عدة مصادر أهمها الاختراعات المادية ، وهو أول من قال بأن التقدم والنمو التكنولوجى يصنعان التغير الاجتماعى ، وبالرغم من أنه لا ينكر قيمة العوامل الأخرى فى عملية التغير إلا أنها فى نظرة تعتبر عوامل جانبية فليس هناك شىء يؤثر فى عملية التغير مثل الاختراعات الثقافية والعلميـــة . (٢)

وهكذا نجد أن التغير الاجتماعى له صـــلة وثيقة بالتحولات العديدة التى تحدث فى مختلف أنماط الحياة الإنسانية ، ذلك أنه نظرا لأن الانسان مخلوق اجتماعى فان التغير له أبعاده الانسانية . وكل تغير فى المجتمع ينعكس أثره على الأفسان بالضرورة وعند دراسة التغير فى مجتمع ما لا يجوز أن ندرسه خلال فترة قصيرة نسبيا وإنما يجب أن يكون المدى الزمنى متضمنا لعدة أجيال حتى يمكن الوقوف على نتائج التغير بصورة ملموسة .

وخلاصة القول أنه إذا كان هناك ما نؤكد عليه فهو أننا نعيش فى عصر التغير السريع ، لان التغير فى الماضى كان يسير فى بطء شديد نتيجة للظروف

---

1 - K. Davis, "Human Society " Macmillan Company, N Y. 1949, pp 622 - 623.

2 - W. Ogburn and M Nimkoff, A Handbook of Sociology" L. .don, 1947 pp 515 - 516

غير المواتية التي كانت قائمة ولكنه بدأ يميل إلى السرعة ، ويرجع المعدل السريع للتغير الإجتماعي في الوقت الحديث بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للتقدم الذي يتم في ميادين العلم الحديث والتكنولوجيا . فالعلم يضيف الجديد إلى معارفنا المتراكمة والتكنولوجيا تنمي باستمرار طرقا أفضل للانتاج.

العوامل المؤثرة في حدوث التغير

يدخل الإنسان من أجل البقاء ومن أجل التعامل مع البيئة التي يعيش فيها بأنواعها المختلفة ، الإجتماعية والثقافية والطبيعية ، في علاقات متعددة تقوم على قاعدة التفاعل المستمر ، وتتعرض باستمرار لتغيرات قصيرة أو بعيدة المدى ويلاحظ أن بعض هذه العلاقات تفرضها « عليه » ثقافته ، والأخرى يفرضها « الانسان » على الثقافة . وهناك بالتأكيد علاقة وثيقة بين التفاعل الإجتماعي والتغير الإجتماعي ، لأنه من خلال التفاعل ينبعث التغير ، ويمكن القول أن التفاعل ممكن لأنه يقيم « بناء » والتغير ممكن لأنه يتيح التفاعل (١).

هذا وقد أتفق كثير من علماء الاجتماع المعاصرين على مجموعة من العوامل باعتبارها مصادر التغير الاجتماعي ، وبعض هذه العوامل خارجة عن نطاق المقدرة الانسانية مثل العوامل الطبيعية والبيولوجية والسكانية ، وعوامل أخرى ناتجة عن النشاط الانساني مثل العوامل التكنولوجية والثقافية وغيرها(٢).

١ - العوامل الطبيعية :

ويقصد بها مكونات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الانسان وتتضمن الموقع

---

1 - Davis, op. cit, pp. 623-624.

2 - Maciver and page, op. cit. pp 512-513

الجغرافى والتضاريس والتربة والمناخ والمواد الأولية وبالرغم من أن التغيرات فى «البيئة الطبيعية» نادرة الحدوث، الا أن تأثيرها عندما تحدث يكون عظيما فى حياة المجتمع، فقد تؤدى إلى الهجرة الجماعية وإلى أحداث تغيير شامل فى حياة الجماعات المتبقية. كما يكون للمناخ أثر كبير فى نوع المحاصيل وفى الإنتاج الصناعى فانتاج الصوف وصناعته مثلا لاتتم إلا فى جو بارد بينما صناعة الكتان يلزمها المناخ الحار، وحيث توجد الانهار ومجارى المياه تكثر الزراعة وتنشط الحركة الاقتصادية والتجارية، بينما يلجأ أهل المناطق الباردة والمتجمدة إلى مزاولة الصيد والمهن البحرية المناسبة. وقد تختلف مياه الانهار من حيث ما تحتويه من أملاح أو طمى أو مواد أخرى يساعد كل منها على خلق انتاج له طابعه المميز. ويتأثر الدخل القومى وبالتالى مستوى المعيشة والرخاء فى المجتمع بما تحتويه الأرض من ثروات، فاقتصاديات المجتمعات التى تغلب عليها الطبيعة الصحراوية والأراضى البور تختلف عن تلك المليئة بمناجم الفحم أو الحديد أو الذهب أو مساقط المياه، وهذه بلاشك تنعكس على الظروف السياسية وحياة المجتمع.

وما يقال عن أثر العوامل الطبيعية يمكن أن يقال عن الظروف المضادة لهذه العوامل مثل تغيير المناخ وهبوب العواصف والأعاصير والفيضانات وقيام البراكين وإشتداد الحرارة أو البرودة وفى كل هذه الحالات ينبغى التكيف من حيث تغيير طرق المعيشة وأسلوب الحياة الإجتماعية والظروف السياسية المحيطة.

إلا أن الإنسان لايخضع للعوامل الطبيعية خضوعا تاما بحيث تتحكم فى حياته ومصيره، فقد استطاع بالعلم أن يطوع البيئة وأن يستخدم مصادرها استخداما ايجابيا لرفاهيته، كما أنها لم تعد إلى حد بعيد حتمية فى تحديد مجالات

.. اطه ، إلى جانب أنه ليس فى إمكانها تفسير معظم التغيرات الإجتماعية فنفس البيئة الطبيعية يمكن أن تنشأ فيها حضارتان مختلفتان تماما . ومثال ذلك أن مناخ أوربا لم يتغير فى القرون الخمسة الماضية ومع ذلك فقد تغير النظام الإجتماعى تغيرا ملحوظا نتيجة للثورة الصناعية .

٢ ـ العامل السكانى :

يعتبر حجم السكان وتوزيعهم وتركيبهم من العوامل الهامة فى أحداث التغير الإجتماعى ، فأى تعديل يحدث فى الجماعات الإنسانية قد يكون عاملا من عوامل التغير ، وهذا ليس راجعا إلى أن الجماعات تنظم وتفرض أنواع السلوك المتوقع من أعضائها فحسب ، بل أيضا لانها فى نفس الوقت عبارة عن وحدات تقوم ببعض الوظائف الإجتماعية الهامة . ولهـــذا فان التغيرات التى تتم فى الجماعات تؤدى وتعكس فى نفس الوقت الانساق الخاصة بالسلوك المتوقع والنماذج الاجتماعية السائدة بما تحوية من قواعد ومقاييس .

مثل هذه التغيرات التى تحدث فى الجماعات قد تؤدى إلى تغيرات اجتماعية توافقية عن طريق تغير الحاجات الإجتماعية التى كان السلوك الجماعى يقوم بها . ومثال ذلك أن حاجات الأسرة الصغيرة أو المنعزلة تختلف أساسا عن حاجات الأسرة الكبيرة المكتفية بذاتها . ومن ناحية أخرى نجد أن التغيرات الجماعية سوف تغير امكانيات السلوك الإجتماعى والوظيفة الجمعية ، ذلك أن الأسرة الريفية الكبيرة (العائلة والبدنة) يمكن أن تقوم بعدة وظائف تعجز عنها الأسرة الحضرية ، الزوجية أو الفردية . وبالاضافة إلى ذلك تتغير التوقعات الإجتماعية بتغير المدى والنماذج والحجم وتعقد البناء الجماعى .

كما أن لتغيرات التى تتم فى طابع الجماعة سوف تؤدى إلى أحداث تأثيرات

واضحة فى واحد أو أكثر من العوامل الأساسية الأخرى . فكلما صغر حجم العائلة فإنها تصبح أقل قدرة على مواجهة الظروف الجغرافية المتصلة بعملية الزراعة ، وكذلك كلما صغر حجم العائلة فان الانساق الثقافية للسلوك العائلى تتغير تغيرا أساسيا . أى أننا نرى أن التغير فى بعض الظواهر أو الملامح المتعلقة بالجماعات الاجتماعية يؤدى إلى سلسلة من التغيرات الاجتماعية التوافقية .

ويمكن اعتبار درجة « الاتصال » أو « العزلة » من العوامل المؤثرة فى التغير الإجتماعى . فالعزلة لا تشجع الانتشار وإنما تشجع الاتجاه المحافظ. ومعظم المجتمعات البدائية تكون شديدة العزلة ، وكذلك الشعوب التى ترغب فى حماية ثقافتها من الانتشار فى المجتمعات الأخرى فهى تسعى دائما إلى مقاومة ورفض الاتصال بهذه المجتمعات (اليهود القدماء ، الصين الحديثة) .

٣ - العوامل القيمية :

تساعد « القيم والاتجاهات » التى تسود فى مجتمع معين أو تعوق التغير . فكثيرا ما يدفع احترام الماضى وتقديس كبار السن إلى رفض التغير والوقوف فى وجهه ومقاومته بشتى الطرق . وتؤثر القيم أيضا فى أنواع التغير فى المجتمع . فاليونانيون القدماء كانوا خلاقين فى الفن والأدب والفلسفة ، الا أنهم كانوا متخلفين إلى حد كبير فى التكنولوجيا ، لأن العمل اليدوى فى عصرهم كان محتقرا ، ولهذا كان السادة يهتمون به ويتركون العمل كلية للعبيد . وجدير بالذكر أن « البناء الاجتماعى » القائم يؤثر على طبيعة التغير ، فالمجتمعات الفاشسية تشجع بعض التغيرات بينما تتوجس شرا من الأخرى . ويمكن أن تعوق وحدة الكنيسة والدولة التغير لأنه يتعارض مع مصالحها . لكن التنظيمات الديمقراطية

سواء فى الأسرة أو المدرسة أو غيرها يمكن أن تكون أكثر مجاراة للتغير الاجتماعى وتشجيعا له .

٤ ـ عامل الحاجة :

تشجع «الاحتياجات الملحة» للمجتمع التغير وتوجهه. الا أن «الاحتياجات» الوحيدة التى تستجيب للتغير هى تلك التى تدرك كاحتياجات عن طريق الناس، فكثير من الاختراعات اختفت تماما أو قل استخدامها إلى الحد الأدنى عندما انتهت الحاجة إليها (ويكون ذلك فى العادة نتيجة لتغيرات اجتماعية لاحقة) .

٥ ـ العامل الثقافى :

إن الثقافة لها صفة « التكوين الذاتى التلقائى الدينامى » فإذا نظرنا إلى أى نسق ثقافى خاص ، فان التجديد قد يأتى من الداخل أى من «داخل الثقافة» أو من خارجها . وهناك ثلاثة مصادر كبرى للعوامل الثقافية الجديدة، وهى الاختراع والانتشار والاستعارة . وكقاعدة تتغير الثقافة عن طريق تجمع العناصر أو المكونات . وأحيانا وليس كقاعدة تختفى بعض العناصر القديمة أثناء عمليات التغير ، ولكن كثيرا ما تستمر العناصر القديمة وتعيش جنبا إلى جنب مع العناصر الجديدة بصورة تختلف أو تتغير وفقا لأنماط السيادة أو التساند لأى منها .

وقد كان للعوامل الفكرية أو الثقافية وما تشتمل عليه من آداب وعلوم ومعتقدات فلسفية ودينية أكبر الأثر فى تنظيم الحياة الاجتماعية وإذا كانت مثل هذه العوامل الفكرية فى أغلب الأحيان تأخذ شكل التفكير التركيبى فلعل هذا يساعد على أن تؤدى دورا فعالا فى إحداث التغير يفوق فى كثير من الأحيان دور العوامل التكنولوجية العلمية والتطبيقية. ويكون أثر هذه العوامل واضحا فى المجتمعات

المختلفة. والتاريخ حافل بالكثير من الحركات الفكرية التي نادت بمبادىء وقيم غيرت من طبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة بين أفراد المجتمع الواحد ، ومن بين هذه الحركات الفكرية العالمية حركة النهضة الأوروبية ، وكلها حركات إنسانية تستهدف خير المجتمع الانسانى وسعادته خاصة عندما نادت بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية ونبذ العصبيات وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وبالتالى فإنهما جعلت الانسان الفرد غاية فى ذاته وليس وسيلة أو جسرا يعبر عليه الآخرون مستغلين عرقه وجهده وصحته لتحقيق مآربهم وأطماعهم الشخصية .

ومن الجدير بالذكر أنه عند تحليل النظام الثقافى ، تتبين أن اتجاهات التقييم الانسانى لا تعتمد على تغيرات الوسائل الفنية ، فهناك دول عديدة تستخدم نفس الوسائل ، بيد أن أيديولوجياتها تختلف . فالتصنيع والحضارة يتخذان أشكالا واتجاهات متعددة تحددها الاهتمامات الثقافية المختلفة .

وغنى عن البيان أن التغيرات الثقافية تغير المطالب كما تعدل مدى الامكانيات السلوكية ، ومثال ذلك أن الأسرة العاملة فى الزراعة إذا استخدمت الجرارات والوحدات الكهربائية وموقد الغاز أو وحدات التبريد ،فانها تكون بذلك قد استعارت عناصر ثقافية جديدة ، ولكنها توضع جنبا إلى جنب مع العناصر الأخرى التى كانت لها وهى تعيش على أمكانيات ثقافتها الأصلية ، ومع ذلك فقد تتسبب فى أحداث عدة تغيرات فى طريقة الزراعة أو العمل المنزلى أو النشاط العام لأعضاء العائلة ككل .

٦ ـ العامل التكنولوجى :

ليس هناك شك فى أن قيام الثورة الصناعية وظهور كثير من الاكتشافات

والاختراعات العلمية فى مجالات الطب والدواء والذرة والفضاء والزراعـــة وغيرها أحدث تقدما ملحوظا فى النواحى المادية والاقتصادية . كما أن انتشار الثقافات وتبادلها وتيسير وسائل الاختراع والكشف وتوجيه العلم لخدمة المجتمع ساعد على إحداث تغيرات جذرية فى كثير من المجتمعات . بل إن ذلك أحدث فى بعض الأحيان إنقلابات اقتصادية وإجتماعية فى البيئات الصغيرة أو المتخلفة أو المنعزلة ، مما كان له صدى كبير فى تطوير البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع .

وقد ساعد على انتشار تأثيرات العوامل التكنولوجية وإحداثها للتغيرات الاجتماعية المصاحبة تلك الطرق الجديدة المتيسرة السريعة لوسائل الاتصال المختلفة وتشجيع الهجرة وازدياد حجم المدن الصناعية . ومن الصعب أن نحدد أنماط التغير الاجتماعى التى تنشأ مباشرة عن التقدم فى مجال التكنولوجيا ، ولكن عموما يؤثر التغير التكنولوجى كعامل مستقل أو وسيط فى التغيرات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال نلاحظ أن « الأسرة » تغيرت تغيرا كبيرا بالتقدم التكنولوجى ، حيث أن اختراعا معينا يمكن أن يتيح فرصا جديدة لتوظف المرأة ، ويغير بالفعل الساعات التى تقضيها فى العمل وفى المنزل ، كما أنه تحت تأثير التكنولوجيا تتجه الاختلافات بين الجنسين فى الأسرة نحو التلاشى ، كما يمكن أن تتلاشى الاختلافات بين الآباء والأبناء .

التغير التكنولوجى والتغير الاجتماعى :

إن إنتصار الانسان على العوائق التى تصادفه فى العالم الطبيعى يرجع إلى تراكم معارفه التكنولوجية ، كما أنه أصبح نتيجة للسلوك الذى تعلمه قادرا على حماية اقتصاده وحماية نفسه من الظواهر الطبيعية والحيوانات ... الخ . ولهـــذا

تعتبر المعرفة التكنولوجية المتراكمة أساسا هاما من الأسس التي يقوم عليها كل مجتمع ، وعن طريقها يرضى أعضاء المجتمع احتياجاتهم المختلفة ، وحول هذه الاحتياجات ومن أجلها يتوالى ظهور الاختراعات وتعود التكنولوجيا مباشرة إلى البيئة ، ولكن هذا لا يعني أن البيئة تخلق التكنولوجيا ، بل إن التكنولوجيا والبيئة يعتمد كل منهما على الآخر . أو بمعنى آخر تكون التكنولوجيا هي الطرق المتعلمة التي عن طريقها يستغل الانسان بيئته لكي يرضى احتياجاته المادية ورغباته الثقافية . وأهم ما يميز الانسان هو قدرته على الاختراع ، فمنذ القدم اخترع الانسان البدائي أشياء تتلائم مع بيئته ووقته وظروفه ، كما اخترع الانسان في أجزاء مختلفة من العالم نفس الأشياء ، ولم يكن الجنس ولا الدين ولا الزمان في يوم ما الأسباب الوحيدة في القدرة الخلاقة للانسان الذي لا يستطيع إيجاد حلول كافية لجميع مشاكله ، ولكن مقدرته على العمل والخلق والابتكار والتجديد شيء يميزه عن بقية المخلوقات. وقد بدأ كل تقدم أو نجاح وصل اليه الانسان من الداخل ، من الانسان ، من قيمه وتصوراته ومهاراته إلا أن الصورة الأساسية للتطور هي التطور التكنولوجي، والشيء الهام هو أنه من التطورات التكنولوجية استطاع الانسان أن يزيد مقدرته في خلق ما هو ضروري للابقاء على حياته .

إن الثقافة جزء من المعرفة المكتسبة ، تميل إلى الاستمرار خلال الزمن . وعند ظهور أي اختراع والإقبال عليه فإنه يستمر كجزء من الثقافة طالما كان هذا الاختراع يحقق الفائدة المرجوه منه ، حتى يظهر اختراع جديد يقلل من فائدة الأول ويطغى عليه . وفي مجال التكنولوجيا نجد أن الاختراعات تكون موضعا للقبول لما تتميز به من شكل مادي ظاهر على عكس التنظيمات الأخرى

الأسرية والاجتماعية المختلفة . ومما يعزز ذلك أن التكنولوجيا تدعم الهدف المباشر للثقافة . ومثال ذلك أهداف الإختراع المادى التى تتجه مباشرة إلى تعديل صور ممارسة الواقع من أجل مزيد من سعادة الانسان وراحته وتخفيف أعباء الحياة عن عاتقه . وفيما عدا رأى هؤلاء الذين يصرون على أن « ما كان مناسبا لأبى يكون مناسبا لى » فان فرص ظهور الإختراعات التكنولوجية متاحة دائما . ولا تتشابه التكنولوجيا مع الصور الدينية أو السياسية أو مع الاختلافات اللغوية أو الفلسفية لأنها تتميز ببناء قيمى خاص ، ذلك أن الحد الفاصل بين اختراع وآخر هو الفائدة التى تعود من كل منهما ، فالسهم أحسن من الحربة مثلا لأنه ينطلق أسرع ويؤدى إلى القتل فى معظم الأحيان (١)

وهناك عاملان أساسيان يعملان على تعويق النمو الثقافى وبالتالى تعطيل التغير الاجتماعى ، الأول هو ركود حركة الإختراع أو النشاط الإبداعى (ولا يقصد بالاختراع ماهو مادى فحسب بل كل تجديد أو اتجاه نحو التجديد فى ميادين العلوم والفنون والنظم الاجتماعية) أما العامل أو العائق الثانى فهـــو وجود فئات فى المجتمع لا تتقبل الاختراعات الجديدة لما ترى فيها من إزعاج لأنماط الحياة التى تسير عليها، فالمجتمع فى جزء كبير من العالم ينقسم إلى طبقات تكون فيها الثروات والدخول غير موزعة توزيعا متكافئا ، ولذلك لا تشجع الطبقات التى تحظى بمراكز القوة بأنواعها فى إحداث تغيير فى بناء المجتمع ، وبالتالى تقف معوقة لكل تغيير يضر مصالحها الطبقية ، بل وتشكل نواة صلبة

---

1 - Walter Golschmidt., Understanding Human Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1959, pp. 112-114.

لمقاومة أى تغيير (١). ولا يقل عن ذلك أثـــراً التعصب والتزمت والتقاليد القديمة فى عرقلة التغيرات التكنولوجية. فالناس فى المجتمعات البدائية أو المتخلفة أو النامية يحترمون الماضى، ويقدسون القديم ويتعصبون له ويتخذون منه المثل الأعلى، ويخشون كل جديد. إلا أن إنتشار وسائل الاتصال المختلفة والتأكد من فائدة الجديد يؤدى بالتدريج إلى الإقتناع به والاقبال عليه ولكن بخطوات بطيئة. أما فى المجتمعات المتقدمة، فالناس ينظرون إلى العلم والتكنولوجيا بكل إعجاب وتقدير، وهنا ينظر بعض علماء الاجتماع والفلاسفة إلى التكنولوجيا على أنها المعيار الوحيد للحكم على مدى ما حققته الأمم من حضارة، وهى عندهم مقياس التخلف أو التقدم، ومعيار الحضرية أو الريفية. كما أنهم كذلك يعتقدون أن باستطاعة العلم إيجاد حلول لكل المشاكل مهما كان نوعها، ومعنى ذلك أن العلم والتكنولوجيا يغيران بوضوح الأشكال المادية للحضارة (الملابس، آلات الانتاج وآلات الحرب، وسائل المواصلات .. الخ) ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن الإنسان الذى يعيش هذه الأوضاع هو نفسه قد تغير، ويعبر عن تغيره فى هذه الحالة عن طريق عادات جديدة وقـــوى جديدة واتجاهات، قيم جديدة وآراء جديدة فى الحياة، وأمنيات ومخاوف جديدة كذلك. هـــذه التغيرات التى أحدثتها التكنولوجيا أثارت توترات بين العناصر الجديدة والقديمة للثقافة. وقد رأينا فى الفصل السابق أن قوة الدفع الآلى نقلت العمل من المنزل إلى المصنع، وغـــيرت مكانة العامل، وأخرجت المرأة من البيت، وشجعت على إنشاء المصانع وبالتالى نمو المدن، والنقطة

١ ــ عبد الجليل الطاهر «مسيرة المجتمع»، دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦.

التي يجب تأكيدها أن التغيرات في مجالات معروفة مثل آلات الانتاج سوف تؤثر في الحضارة من القاع إلى القمة ومن المركز إلى الأطراف وأن التوافق مع تلك التغيرات وصل إلى أنظمة المجتمع المختلفة ولكن التكيف والتوافق مع هذه التغيرات تعترضه صعوبات بالغة حيث يدخل الانسان في كثير من مناطق العالم عصر الذرة وارتياد الفضاء والالكترونات والبلاستيك والألياف الصناعية ، بعقلية عاشت طويلا في عصر المحراث والحصان وعجلة الغزل ومراكب الصيد ... الخ . وهذا ما يطلق عليه أحيانا الثورة التكنولوجية ، ورغم ذلك فما زالت تلك الثورة تقف عند خطواتها الأولى حتى في الدول التي تعتبر قمة التقدم في هذه المجالات .

وبالرغم من هذا التقدم التكنولوجي الهائل فان الأفكار والايديولوجيات والمعتقدات الدينية والأخلاقية والتنظيمات الاجتماعية تجد صعوبة بالغة في إحداث التغيرات المصاحبة ، ولعل هذا التخلف النسبي مسئول إلى حد كبير عن الاضطرابات والصراعات التي تنشأ في المجتمع .

نظرية التغير التكنولوجي .

يحدث التغير التكنولوجي نتيجة الاختراعات الجديدة التي تظهر في مجالات الحياة المختلفة، وذلك بفضل القوى التي يستخدمها الانسان مثل البخار والكهرباء والذرة والسؤال الذي يطرح هنا هو : هل تحدث التغيرات التكنولوجية نتيجة العناصر الايديولوجية ؟ أم هي مصاحبة للتقدم العلمي؟ لقد اختلفت الآراء حول هذه التساؤلات ويؤكد كثيرون من علماء الاجتماع أن ما يحدث في مجال التكنولوجيا لا يكون نتيجة لمفهوم أخلاقي أو لعقيدة دينية أو لأي شكل من الأشكال الايديولوجية ، وهم يؤكدون أن الانسان توصل إلى الاختراعات

التكنولوجية بالعلم من أجل إشباع حاجاته الفردية، ويرون أنه لا محل للقول بأن الانسان توصل إلى استخدام قوة البخار بسبب محاولته التكيف مع عناصر الثقافة المعنوية . لأن القسم الأعظم من الثقافة بطبيعته عبارة عن طرق للتكيف انتقلت وتعدلت من جيل إلى جيل ، لتقابل مطالب الانسان المتزايـــدة فى التنظيم والمعرفة ولتتناسب مختلف البيئات الطبيعية التى يعيش فيها ، إلى جانب محاولات تطويع هذه البيئة لارادته . ولهذا ظهرت الأنساق القيم والتقاليد والمعرفة ، كما ظهرت أنساق المعالجات المادية المتعددة لإمكانيات الطبيعة . أما الذى يجعل عدد الاختراعات فى الثقافة المادية (التكنولوجيا) يفوق عددها فى الثقافة المعنوية فهى الطبيعة التراكمية لهذا الجانب من الثقافة والتى تكون مسئولة إلى حد ما عن عـدد كبير من التغيرات فى الجوانب الأخرى للثقافة ، هـذا فى الوقت الذى لا تبـدو الثقافة المعنوية تراكمية هى الأخرى ، ومثال ذلك أن الأخلاق والتقاليد والنظام العائلى لا يحققان نسبيا معـدلات التراكم إذا قيس بمعدل تراكم العناصر المادية التكنولوجية (1) .

ويستنتج أصحاب هـذه النظرية أن إتساع القاعـدة الثقافية وتعاظمها هو العامل المباشر فى توالى الاختراعات ، والتغير فى هذه الحالة يصبح من خصائص الثقافة المادية وهو السبب الرئيسى فى حـــدوث التغيرات فيها ، فإن التغيرات الاجتماعية تصاحب التغيرات التى تحدث فى الثقافة المادية التى تتفوق كعامل رئيسى فى مجتمع اليوم المتغير .

هناك وجهة نظر أخرى يراها بعض علماء الاجتماع وهى أنه بالرغم من

1 — Lynn White Medival Technology and Social change' London, 1962, pp. 1 — 38.

أن الإختراعات المادية ــ التكنولوجية أكثر من الاختراعات اللامادية ـ المعنوية، إلا أن كل اختراع تكنولوجى يكون الباعث وراء ظهوره أيديولوجيا . ونستطيع تقديم مثال على الطريقة التى يمكن بها أن تكون الايديولوجيا باعثا على النمو التكنولوجى . وهو مايحدث فى روسيا والولايات المتحدة فى الوقت الحالى، ذلك أن الاختلافات الايديولوجية وتعاظمها وظهورها فى ميادين مختلفة قد أدى الى زيادة إهتمام كل من الدولتين بنمو العلم وبتقدم التكنولوجيا باعتبار أن معيار القوة فى هذا العصر للاكثر تفوقا فى مجالات الاكتشافات العلمية واستخدام هذه الامكانيات فى النمو التكنولوجى الذى يواجه كثيرا من متطلبات الحياة ،ومن يتمكن من إحراز التفوق فى هذه المجالات يستطيع أن يدعم نفوذه (١).

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر حول هـذا الموضوع فإننى أعتقد أنه يوجد تساند وظيفى بين النوعين من التغير وأن كـلا منها يكون سببا للاخر فى مرحلة من المراحل ، ولهذا يكون من الأفضل عدم الأخذ بأسبقية أحدهما على الآخر . ومن المؤكد أن التكنولوجيا تسبب التغير الإجتماعى ، ولكن كيف؟ قد يبدو أثر العوامل التكنولوجية واضحاً فى مدينة مثل نيويورك أو موسكو أو لندن حتى يتصور الباحث أنه يستطيع أن يعمم فيقول : إن التكنولوجيا هى العامل المسيطر على التغير فى الثقافة المادية أو غير المادية فى هذه المدن لإنها تفرض على كل أجزاء الحياة أن تتوافق مع كل اختراع يتم فى هذا الميدان . ولهذا كان البحث فى التكنولوجيا والاختراعات التى تـتم فى حدودها من الموضوعات التى تميز البحث السوسيولوجى على «مستوى حضرى»

---

1 — Richard Lapiere, «Social Change», N.Y. 1965, pp. 268-274

على وجه الخصوص . كذلك كان الاهتمام بالتكنولوجيا يمثل . الاتجاه الكمى ، فى الدراسات السوسيولوجية لأن التغير فى هذه الناحية وآثاره يمكن قياسه وعده بسهولة أكثر من التغير الذى يرجع إلى عوامـــل الكمى عليها (١) .

وليس من السهل أن نفسر كيف يؤدى الاختراع إلى التغير التكنولوجى لأن السبب فى هذه الحالة وفى حد ذاته متغير ، فعندما تحدث نتيجة معينة تتغير تبعا لها بعض الأشياء . وهناك دائما على الأقل متغيران، النتيجة والسبب ، وتغيرهما يكون معا غالبا ، ويسمى من أجـــل ذلك « تغيرا مصاحبا » (٢) وفى بعض الأحيان تكون النتيجة تغيرا من العدم إلى الوجـود ، وذلك عند خلق شيء جديد (مثل ظهور التليفون لأول مرة) وفى بعض الأحيان الأخرى يكون نفس العامل متغيرا فى موقف وثابتا فى موقف آخـــر . كما أن بعض الأشياء الجامدة يمكن أن تتسبب فى وجود شيء ما ، فالسيارة مثلا تسببت فى ظهـور أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل، مثل الطرق الممهدة والجراجات والصناعات المتعددة وغير ذلك . اذن قد يؤدى استخدام اكتشاف جامد إلى التغير الاجتماعى ولكن هذا التغير يتم غالبا بمساعدة العمل اليدوى للانسان ، فقولنا إن اختراعا ما أدى إلى التغير الاجتماعى يمكن أن يفهم منه أنه تم دون ارادة الانسان، مع أن أى اختراع ليس سوى آلة يستعملها الانسان كما يشاء (كالسكين مثلا) وهناك

---

١ — عاطف غيث ، « التغير الاجتماعى والتخطيط » دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٢ ٤١—٤٢ .

2 — Ogburn, 'How Technology Causes Social Change', in Allen and Others (eds.), Technology and Social Change, N.Y, 1957, p. 12.

أيضا آلات تستخدم فى أغراض مختلفة دون أى تغيير فى الشكل مثل الراديو، حيث نسمع منه الموسيقى أو الأغانى أو نشرات الأخبار أو قد لا نستعمله على الاطلاق . فالفرد هنا هو الذى يحدد ويختار نوع الاستعمال وليس الآلة. وفى هذه الحالة لاتكون التكنولوجيا هى السبب فى التغير ، أما اذا كان هناك عدد كاف من الناس يرغبون فى استعمال اختراع ما بطريقة أو بأخرى فإن هذا الاختراع يكون له اذن تأثيرات اجتماعية.

من هذا يتضح أن العلة والمعلول أو السبب والنتيجة يشبهان حلقات فى سلسلة . بل إن الحلقة كأثر ، يمكن أن تنتج عن أسباب عديدة تتركز فيها . ومن الأفضل أن نشبه أنماط العلية بالشبكة ، وهذا التصور للشبكة يتطابق مع فكرة أن الحضارة كل من العلاقات المتداخلة . فالحكومة مرتبطة بالتربية ، والتربية بالأسرة، والأسرة بدور العبادة وهكذا . . وهناك أشياء مترابطة تماما مثل النقل والانتاج وأشياء متباعدة تماما مثل الشعر والجيولوجيا . وليس من الغريب أن الاختراعات الكبرى مثل الطباعة وآلة الاحتراق الداخلى يكون لها تأثيرات متعددة فى أجزاء الثقافة المختلفة (١) .

وهناك مايشير إلى وجود علاقة وثيقة بين الاختراعات والتغير الاجتماعى فالاتجاهات والمعتقدات والتقاليد التى كان يراها الفكر يوما ضرورية بالنسبة للطبيعة الانسانية ، تلاشت بتقدم الاختراعات التكنولوجية . وقد بدأت العملية بتغيرات خارجية وانتهت باستجابة المجتمع لها ، وأصبح من السهل فهمها واتباعها، ومن ثم أصبحت ضرورة من ضرورات المعيشة ومعبرة عن استجابة ملائمة لعالم الآلة ، وذلك مثل التخصص العالى فى جميع الأعمال والتوقيت

______

1 — Ibid, pp. 16-23.

الدقيق ، وسرعة سير الحياة . وقد صاحب هذه التطورات من ناحية أخرى ارتفاع مستوى المعيشة ، وتحول الأبنية والمستويات الطبقية ، وتدهـــور علاقات الجيرة ، وانهيار نظام الأسرة القديم ، وبناء الروابط الواسعة المتغيرة طلبا للقوة والثروة وانتشار الموضة ، ونمو الديمقراطية وتحدى الجماعات الصناعية المنظمة (وعلى وجه الخصوص منظمات العمال) للاشكال القديمة للسلطة ، وعند مسايرة الظروف تنشأ أوضاع مقابلة ، ومعتقدات وفلسفات تتلاءم مع الأوضاع الجديدة وهكذا . . .

ومع ذلك يجب ألا نستنتج أن العلاقات الاجتماعية فى جميع أشكالها الهامة تحددها التغيرات التكنولوجية . فهذه النتيجة يمكن الأخذ بها إذا كانت الثقافة أيضا وقيم الإنسان أساسا من نتاج التكنولوجيا . ولكن الثقافة بدورها تحاول توجيه التكنولوجيا وغاياتها والانسان فى استطاعته أن يكون سيدا للاله أو عبدا لها [1] .

إن بعض التغيرات الاجتماعية تكون نتائج حتمية للتغير التكنولوجى ، فالاختراع الذى سوف يستعمل يجب أولا أن يصنع ، وعندما يتناسب مع المستهلكين فإن عاداتهم سوف تتغير ، فالشخص الذى يركب السيارة يختلف عن من يركب عربة تجرها الخيل (ويعتبر هذا تأثيرا مباشرا للاختراع) وتأثير أى اختراع لاينتهى بتغيير عادات مستخدميه ، بل إن هـذه العادات المتغيرة تؤدى بالتالى إلى تغيرات أخرى (تأثير مشتق) فاستعمال السيارة قلل عدد المستعملين للسكك الحديدية وقلل عـدد صانعى العربات التى تجرها

---

1 - R. Maciver and ch. Page., 'Changing Techniques and Changing Society', in Nordskog (ed.,) Social change, N.Y, 1960, pp. 26-28.

الخيول . والأسباب والتأثيرات المشتقة يمكن أن ينتج عنها شيء واحد (التقارب) فإذا قلنا: إن عمل الزوج يقلل من ممارسته للسلطة فى المنزل ، فإنه توجد الى جانب ذلك أسباب أخرى تقلل من السلطة مثل العناية بالأطفال فى المدرسة وعمل الزوجات والبنات يسهم فى ذلك إلى جانب سلطة الهيئات الحكومية . وهذه العملية تشبه الدائرة عندما تنتشر الأشعة فيها من الوسط إلى الأطراف .

وهناك نقطة أخرى هامة وهى أن بعض الاختراعات لايكون لها تأثير واحد (التشتت والتفرق) فتأثير الطائرة ينتشر فى عدة اتجاهات . حيث أنها تؤثر فى الحرب والإنتقال والحكومة والتجارة والزراعة والسياحة ، وكل هذه التأثيرات يسببها اختراع واحد (١) .

التساند المتبادل بين التغير الاجتماعى والتكنولوجى :

إن القول بأن التغير التكنولوجى يصحبه دائما تغير اجتماعى حقيقة أكدها علماء الاجتماع ،ولكن ما طبيعة العلاقة العلمية بينهما ؟ أو بمعنى آخر كيف يتتابعان ؟ هل يكون التغير الاجتماعى سابقا أم مصاحبا أم لاحقا للتغير التكنولوجى ؟ لقد تعددت الآراء حول هذه التساؤلات ، وكثير من النظريات الاجتماعية المعاصرة تفترض أن التغيرات التكنولوجية هى أساس التغير أكثر من أى تغيرات اجتماعية أخرى. ونظرا لأهمية هذا الموضوع نعرض هنا فى ايجاز لبعض هذه الآراء .

١ — يحلل « لسلى وايت » الثقافة من خلال نظمها الثلاثة : التكنولوجية

---

1 — Ogburn, op. cit, pp. 19 - 23.

والاجتماعية والأيديولوجية . ولكنه يعتبر التكنولوجيا العامل الأساسى الذى يحكم طبيعة النظامين الآخرين ، والتطور التكنولوجى هو الدافع المحفز للتقدم العام ويقول : « يمكن أن ننظر إلى النظام الثقافى على أنه سلسلة من ثلاث طبقات أفقية : الطبقة التكنولوجية فى القاعدة والفلسفية فى القمة والإجتماعية بينهما . وتعبر هذه المواقع عما تقوم به من أدوار فى العملية الثقافية . فالنظام التكنولوجى أساسى وجوهرى ، بل أن الأنظمة الاجتماعية عبارة عن وظائف التكنولوجيا ، وتعبر الفلسفات هى الأخرى عن القوى التكنولوجية وتنعكس على النظم الإجتماعية . فالعامل التكنولوجى إذن هو العامل المقرر الحاسم للنظام الثقافى بأكمله . ولكنه لايعنى بالطبع أن النظم الإجتماعية لاتسهم فى العمليات التكنولوجية أو أن الأنظمة التكنولوجية لاتتأثر بالفلسفة (١) ، فالواقع أنها تتأثر ولكن الإسهام شىء والتقدير والتصميم شىء آخر .

٢ — يعتبر « وليم اجبرن » أول من دعم « الحتمية التكنولوجية » فهو يرجع التغيرات الاجتماعية بالضرورة إلى التغير التكنولوجى ، وعلى الرغم من اعترافه بالقدرات العقلية والعوامل الأخرى مثل « التراكم » و « الانتشار » الذى يكون نتيجة التلاقى الثقافى ، الا أنه يرى فى العامل التكنولوجى هو العنصر الأول والأساس فى أحداث التغير الاجتماعى . كما يرى أن جميع عناصر الثقافة غير المادية تتخلف وراء التغير التكنولوجى ، وهذا ما دعاه إلى صياغة نظرية التخلف الثقافى ، لاعتقاده أن التغيرات التكنولوجية كثيرا ما تسبب اضطرابات اجتماعية (٢)

1 — Leslie White, 'The Evolution of Culture, N.Y. 1959.

2 — Ogburn. Social Change, With Respect to Culture and Original Nature,' N.Y, 1950.

٣ - يرى « هنت » أن التغير التكنولوجى لا يحدث مستقلا عن التغيرات فى أوجه الثقافة الأخرى . ومع ذلك ففى المجتمعات الصناعية الحديثة تشكل التكنولوجيا أهم العوامل الديناميكية فى عملية التغير الثقافى والاجتماعى (١).

٤ - ويؤكد « ريتشارد هول » على أهمية العامل التكنولوجى فى عملية التغير ، وينظر إلى التغير التكنولوجى كتغير مستقل ، بينما تكون التغيرات فى البناء الاجتماعى متغيرات معتمدة . وهو يرى أن العلاقة بين النوعين من التغير ليست وحيدة الاتجاه ، فأى تغير فى البناء التنظيمى مثلا يؤدى إلى تغيير فى النسق التكنولوجى من خلال عدد من الأدوات والأجهزة ، أى أنه ينظر إلى التغير التكنولوجى باعتباره نقطة البدء من أجل التحليل فقط . ومن الواضح أن وجهة النظر هذه مغايرة للسابقة حيث أنها تفصل بين النوعين من التغير لغرض التحليل ، كما تؤكد وجود نوع من التساند والارتباط بينهما حيث يمكن لأحدهما أن يكون سببا فى تغير الآخر تبعا للظروف (٢).

مما سبق نجد أن هناك كثيرا من علماء الاجتماع ينظرون إلى التغير التكنولوجى كعامل مسبب للتغير الاجتماعى أكثر من أى عامل آخر ، ونحن لا نستطيع الاعتماد على التسلسل الزمنى فقط لاكتشاف السبب ، وفى تلك الحالة نتساءل عن العامل المسبب : هل هو الذى يؤدى إلى نتيجة ، أم هى أفكار الإنسان التى كان يتوقعها ؟ . ويطرح « كراريل » تفسيرا هاما بصدد هذا التسلسل ، وهو أن جميع القوانين العلمية تتطلب منا أن نبين أنه فى ظل شروط معينة إذا حدث أ يتبعه ب ، وبهذا المعنى يكون التاريخ ضرورة . ونظرا لضخامة الظاهرة

1 — E. Hunt. 'Social science,' N.Y. 1955, p. 620.

٢ - عبد الجليل الطاهر ، المرجع السابق .

الاجتماعية فإنها تنتقل من جيل لآخر (كحزمة) من الثقافة ، ومن الصعب أن نكتشف ما هو الشيء (بالمعنى السببي) الضروري لثبات مركب معين ، وما هو الشيء الذي يكون عرضيا فقط ، وعندما تخضع الثقافة لضغوط وتوترات أو تفكك بمرور الزمن . فإننا نجد أن ما كان يبدو العلاقة السببية الظاهرة يستغرق بمرور الوقت ويصبح غير ذي قيمة ، وبتحليل تاريخ الإنسانية عامة نجد منهجا يفترض أن التغيرات فى التكنولوجيا هى الأساس والسبب فى التغير أكثر من أى تغيرات اجتماعية أخرى . فالتغيرات فى طريقة أداء الانسان لعمله تقتضى تغيرات أخرى فى الأجواء الأخرى من ثقافته . ولكن العكس صحيح أيضا ، فإن عادات الناس فى أحد مجالات الحياة تحدد وتشكل التكنولوجيا التى يمكن الأخذ بها فمثلا يبدو أن زيادة أهمية الأسرة الصغيرة كان (سببا) فى انتشار السيارة الصغيرة أكثر من أى نوع آخر من المركبات . ونعود إلى السؤال الذى طرحناه فى بادىء الأمر . وهو : تحت أى شروط يكون التغير التكنولوجى سببا فى التغيرات الاجتماعية الأخرى ؟ وتحت أى شروط يكون نتيجة لتلك التغيرات ؟.

أولا : فى المجتمعات التى تضع الأولوية لفعالية (التكنيك) تكون التغيرات التكنولوجية أساسية ، لأن أى اختراع يظهر فى تلك المجتمعات يتبناه الناس بسرعة ، وبالتالى تصبح أشكال الثقافة الأخرى غير ملائمة (مثلا نسق الاسرة الممتدة) فهى التى يجب أن تتوافق وتتلائم وليست التكنولوجيا .

ثانيا : عندما تكون الأولوية لفعالية الاقتصاد وضرورة تقدمه فإن اتجاه النمو التكنولوجى تحدده دائما معتقدات وقيم وخطط معينه ويمكن أن نتبين ذلك من تأكيد بعض الدول المتقدمة على (التكنولوجيا الحربية) وهذا يرجع

للأولوية التي تعطيها (لقيمة) الأمن القومي ، هذا إلى جانب (الاعتقاد) بأن تقدم الأسلحة النووية هو أفضل الطرق للمحافظة عليه. هنا تكون التكنولوجيا مجرد « نتيجة » وليست سببا ومع أن التغير الاجتماعي يكون في بعض الأحيان سريعا وفي أحيان أخرى بطيئا ، الا أنه يتجه نحو التراكم ، لأن التغير في متغير يؤدي إلى تغير في المتغيرات الأخرى وهذا يتضح من أن التغير الاجتماعي يتضمن تغيرا في الانساق (الحربية ، الاقتصادية ، السياسية ، القرابية ، الدينية ... الخ) ولما كانت هذه الانساق متداخلة فإن أي تغيير في أحدهما يؤدي بالضرورة إلى تغيرات في الأخرى للمحافظة على الانسجام الكلي بينهما .

أن مناقشة وجهتي النظر القائلة « بالحتمية التكنولجية » أو الحتمية الايديولوجية باعتبار أن كلا منهما يمكن أن يكون أساسا في التغير الاجتماعي تقود إلى أن هذين النوعين من عوامل التغير لا يمكن النظر اليهما كعاملين مستقلين أحدهما عن الآخر لانهما يتفاعلان ويتساندان في واقع الأمر حيث يؤدي كل منهما إلى الآخر ، ومثال ذلك أن نوع التغير التكنولوجي والسرعة أو البطء في تبنية يتأثران بالاختلافات في معتقدات وقيم الجماعات ذات القوة غير المتساوية وخاصة في مجال وسائل الاتصال (١).

كما أن معتقدات الناس وقيمهم تتأثر في المدى الطويل بمعرفتهم بالامكانيات الطبيعية السابقة عليهم. وباختصار فإن العلاقة بين التكنولوجيا والنظام الاجتماعي تتميز بالتبادل والتساند واعتماد كل منهما على الآخر فقيم الانسان ومعتقداته هي التي تحدد نوع التكنولوجيا التي يطورها ويستخدمها . ويطورون هذه

---

1 — Harold Wilensky., "Industrialism, Society and Social Change", in Richard Simpson (ed.,) Social Organization and Behavior, N. Y, 1964, pp. 37-41.

الوسائل التكنولوجية فإنها تؤثر فى الانسان وفيما سوف يفعله فى مجالات الحياة المختلفة وهكذا . ذلك هو المفهوم الملائم الذى يمكن الأخذ به فى دراسة موضوع التغير الاجتماعى وعلاقته بأنواع التغيرات الأخرى فى المجتمع .

قبول التغير ومقاومته

لعل مقاومة التغير الاجتماعى تعتبر من أهم الصعوبات التى تواجه مسيرته فالناس عادة يميلون إلى أن يكونوا محافظين . ذلك أن العقل الانسانى والشخصية يتشكلان عن طريق أكتساب الناس معتقدات معينة واتجاهات وأنماط السلوك الأمر الذى يشكل صعوبة كبيرة فى تغييرها . كما أن طرق التفكير والعرف والنظم الرئيسية فى المجتمع تتواجد فينا بحيث تصبح جزءا أساسيا من شخصياتنا ولهذا يلاقى التغير الاجتماعى مقاومة قوية عند حدوثه ، ونتيجة لذلك نجد أن معظم التغيرات الاجتماعية تحدث بالتدريج ، وتظهر الثقافات درجة معينة من الثبات . هذا إلا أن قبول أو رفض أحد التجديدات هو أساسا رد فعل داخلى لا يمكن ملاحظته مباشرة وإنما يمكن استنتاجه ويكون واضحا فى التعبيرات اللفظية أو أنماط السلوك الأخرى ونستطيع اعتبار رد فعل شخص ما لأحد التجديدات حقيقة اجتماعية عندما تكون عملية القبول أو الرفض متطابقة فى عدد من الأفراد وهؤلاء يعتمدون على فهم واحد لعدد معين من الأشياء ، فالوثبة الاجتماعية تحدث عندما يفعل الفرد ما يفعله الآخرون ، و « المحاكاة » تكون واضحة فى عملية الموافقة . فعندما يظهر الدليل على فعالية التجديدات فإن هذا يعجل بالموافقة عليها . والتجديدات التى يمكن اختبارها بسهولة فى مجال صغير وتظهر فعاليتها تكون عرضه للتبنى والقبول السريع . ومعظم الاختراعات الآلية يمكن أن يظهر أثرها بسهولة . كما أن معظم الاختراعات الاجتماعية مثل

الحروف الابجدية ، والنظام العشرى والسلاحية أو اللاعنفية (١) أو الحكومة العالمية تكون أكثر صعوبة فى تبينها وذلك لكونها أشياء غير مادية ، ملموسة وليست محسوسة .

والتوافق مع الثقافة القائمة يسهل عملية القبول. فإذا كان التجديد لا يتعارض مع أى من القيم أو الممارسات فى الثقافة القائمة فإنه يمكن أن يضاف اليها دون أن يحل محل شيء آخر . ويكون قبوله موضع موافقة وتشجيع . والتجديد يمكن أن يكون متعارضا أو متنافرا بطرق عديدة :

١ — يمكن أن يتصارع التجديد مع القوانين القائمة مثل افتراض السماح بتعاطى المخدرات ، فإن هذا السماح يتصارع مع الاتجاهات والقيم التقليدية وعندما يحدث مثل هذا الصراع فإنه يمكن حسمه بطرق ثلاثة :

أ) رفض التجديد (كما يرفض كثير من الناس الموافقة أو التصريح بتعاطى المخدرات) .

ب) الموافقة على التجديد مع محاولة التوفيق بين القيم الثقافية المتصارعة (حذف المخدرات من قائمة الممنوعات وتعريفها بأنها غير ضارة) .

ج) الموافقة على التجديد والتغلب على الصراع بطريقة عقلانية (الاعتراف بأن المخدرات ضارة ، ولكنها أقل ضررا من الكحوليات والطباق).

٢ — يمكن أن يتطلب التجديد إنماطا جديدة لم تكن موجودة أصلا ، فعندما استجلب هنود السهول فى أمريكا . الحصان من أسبانيا لم يكن لديهم

---

(١) معارضة الحرب أو العنف ورفض اللجوء اليها فى كل النزاعات ، وبخاصة ، رفض حمل السلاح لأسباب أخلاقية أو دينية .

قبل ذلك أية معايير الملكية أو الميراث أو الاملاك الخاصة ، ومن ثم حاولوا وضع معايير جديدة .

٣ — بعض التجديدات تكون أستبدالية وليست اضافية ، فالتجديد الذى يستطيع ببساطة أن يضاف دون أن يزيد أو يتعارض مع الثقافة القائمة تكون الموافقة عليه سريعة وسهلة . أما التجــديد الذى يتطلب استبعادا فوريا لقيم التقليدية مثل الحب الحر أو الشيوعية فى أمريكا أو الأعمال أو المشروعات التى تعتمد على العقل والفكر والمنطق فى الدول المتخلفة . فهذه كلها تجد معوقات كثيرة تقف فى سبيلها .

و تكاليف التغير ، أيضا تعوق القبول . فكل التغيرات الاجتماعية تقريبا تكون مكلفة لجهة ما . فإختراع طائرة الجامبـــو يتطلب تكاليف إعادة بناء المطارات . والتغير قد يكون مقلقا للبعض بينما لا يكون كذلك بالنسبة الآخرين كل تبعا لظروفه وإمكانياته الخاصة ، فالاهتمامات الخاصة هى تلك التى تستفيد من الأشياء بوضعها الراهن ، مثل استفادة أو انتفاع الملاك من نظام الملكية الخاصة ، وطلبة الجامعة لهم اهتمام راسخ بالقيمة المادية للدرجة الجامعية ، والاهتمامات الراسخة تتعارض بوجه عـــام مع التغير ، فأصحاب السيارات يقاومون أو يعارضون وجود السكك الحديدية ، والسكك الحديدية تقاوم شق القنوات والطرق البحرية وهكذا .

وعموما فإن التجديد يحدث صدمة للثقافة الراسخة ، وقد عدد وليم أجبرن حوالى ١٥٠ تغيرا اجتماعيا أرجعها إلى اختراع وقبول السيارة ، وكذلك فإن البارود وضع حدا الاقطاع ، والآلات الحربية قضت على الفرسان ، والاسلحة الذرية جعلت ، كسب ، الحرب العالمية أمرا صعبا ، وبصورة عامة ، لا يوجد

اختراع هام الا واكون له سلسلة لانهاية لها من النتائج الإجتماعية .

التغير والتخلف الثقافى :

بما أن الثقافة مترابطة ومتكاملة ، فان أى تجديد يحدث تغيرات فى بعض أجزاء الثقافة وهذا يتطلب بدورة توافقات فى الأجزاء الاخرى لها . لأن أى تغير يؤدى إلى متطلبات جديدة فى الأبعاد والعناصر . وهذا التوافق يحدث فى الناحية المادية أسرع من الناحيـــة اللامادية . مما يؤدى إلى التخلف الثقافى Cultural lag وقد أتخذ هذا المصطلح جاذبيته فى عصر ظهرت فيه الاختراعات والاكتشافات والتجديدات الأمر الذى أحـــدث أضطرابا وتهديدا لطرق الحياة القديمة .

ونظرا لتعقد التنظيم الاجتماعى الحديث ، فطرق إعتماد أجزاء الثقافة بعضها على بعض متعددة للغاية . كما أن التكنولوجيا الحديثة يمكن أن تكون مستعارة من الخارج وقد تكون الثقافة التى أتت منها مختلفة تماما . فالوحدة الثقافية تتمزق إذا كانت الثقافة مفروضة على المجتمع . وهذا واضح من محاولة فرض الثقافة العربية على المناطق الشرقية والاسيوية . ولقـــد رأينا شعوبا كثيرة فى هذه المناطق تنتقل من مرحلة البداوة والتخلف إلى مرحلة الانحلال دون أن تمر بمرحلة الحضارة والتقدم وذلك نتيجـــة لدخول التكنولوجيا الحديثة اليها دفعة واحدة . وهى التى جاءت اليهم منقولة من نسق اجتماعى يختلف عن نسقهم تماما ، فالمجتمعات الصناعية يكون فيها ارتباط بين التكنولوجيا والانساق الثقافية ، وكل تغير فى أحدها يؤدى إلى تغير فى الأخرى . وعندما تنشأ فى المجتمع الواحد طريقتان للحياة أو الفكر ولكنهما تتعارضان بحيث لاتستطيعان العيش جنبا إلى جنب ، يحدث مايسمى « بالصدام الثقافى » وفى

كثير من المواقف يكون التكيف أصعب من الاختراع ذاته . فمثلا صناعة القنابل الذرية كانت أسرع وأقل صعوبة من الغاء الحرب وتخريب المدن أو حتى تحريم صناعة القنابل الذرية .

من هذه الناحية ينظر للتقدم فى المجالات المادية كسبب فى حدوث المشاكل الإجتماعية وذلك بسبب التخلف فى التوافق مع الاختراعات الالية الحديثة فالانسان يحاول مسايرة وقع الحياة الجديدة من حيث استخدام المنجزات المادية التكنولوجية والعلمية ولكنه يفشل فى تكييف البنــاء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، والأفكار ، والنظم الإجتماعية للانماط الجديدة المادية ، بل أنه أحيانا يحاول أن يدير العالم الجديد بأفكار ونظم عصر الحصان والعربة . وهذا الفشل فى مسايرة الأفكار والنظم الاجتماعية للعصر الجديد يؤدى إلى (التخلف الثقافى) الذى يواجه كثيرا من مجتمعات اليوم أو على الأقل يبرز حدة بعض المشاكل الاجتماعية . وقد استتبع ذلك أن كثيرا من الباحثين حاولوا دراسة العوامل التى تؤدى إلى تباطؤ تغير الجوانب المعنوية واكتشفوا أن التغير فى المجالات غير المادية لا يحدث بنفس السرعة التى يحدث بها فى المجالات المادية لعدة أسباب منها : أن هناك معارضة عاطفية تعترض التغير فى المجالات غير المادية . فى الوقت الذى تلقى فيه التغيرات فى الثقافة المادية قبولا ، ويفسر ذلك على أساس أن (العادة والاهتمامات الشخصية والجهل) تميل إلى الابقاء على الحالة الراهنة فى المجال الاجتماعى . وهذا يؤدى إلى نشأة المشاكل الاجتماعية ووقوع التخلف الثقافى . كما أن مقدرة الناس على هضم وقبول التغير محدودة . فطبيعة التغيرات قد تكون فوق الطاقة وهنا يتعرض الناس للتفكك وهذا يعنى أنهم يصبحون مرتبكين ومضطربين فالقواعد والقيم والمعايير التى تعلموها أصبح من غير الممكن تطبيقها، وسلوكهم

أصبح غريبا وشاذا . وعندما يتزايد عـــدد الناس على هذه الصورة من عدم التأكد مما يفعلونه أو يعتنقونه فإن المجتمع ككل يصاب بالتفكك . ويكون المجتمع فى حالة تفكك عندما تصبح القواعد التقليدية بالية بينما القواعد الجديدة لم تنضج أو تصل إلى حد الكمال بعد .

نتائج التغير الاجتماعى :

بمناقشة العوامل والأسباب السابقة يتبين لنا أن كلا منها لا يكون لسبب فى التغير الاجتماعى بمفرده ، بل أن التغير عادة ما يكون نتيجة لتشابك مجموعة من العوامل ، الا أن كثيرا من عمليات التحديث يكون المدخل اليها من خلال ما يسمى بالتنمية الإقتصادية ، تلك التى تبين أن لها أهمية كبرى ، ومع ذلك يجب الا نعطى أهمية مطلقة . لأن كثيرا من مشاكل التحديث لا يمكن أن تواجه الا عن طريق الدولة والمدرسة والمجتمع الريفى ، ومع ذلك فإن رفع مستويات المعيشة ضرورى للتنمية الاقتصادية ، والحصول على درجة مقبولة من المستويات المصرية ، وهذا يعنى أن رفع مستوى الحياة الاقتصادية لابد أن يكون قائما على خطط للتنمية الاقتصادية التى تتبنى التصنيع كأساس للتنمية العامة فى المجتمع ومع ذلك فإن الاثر العصرى فى الاتجاه الاقتصادى له متضمنات واضحة فى البناء الإجتماعى حيث يفرض حدودا حاسمة على تنوع عـــدد من مظاهر التنظيم الإجتماعى نلخصها فيما يلى : (١)

١ ـ أن التنقل المكثف أو الكثيف جغرافيا واجتماعيا المناسب للمجتمعات الصناعية له نتائج سلبية على أنساق القرابة الممتدة ويميل إلى التقليل من الروابط الوثيقة بين أجيال الكبار وأجيال الشباب ، ومع أن كثيرا من الدارسين قد

1 — Wilbert Moore, Social Change, New. Dalhi 1965 p.102.

تبدوا وجهة النظر القائلة بأن نسق الأسرة الصغيرة هو النسق الممكن الوحيد فى المجتمعات الصناعية فإننا نرى أن هذا التعميم متسرع للغاية ، أن المسئوليات الإجتماعية للأقارب خارج العائلة النووية قد أصبحت بالفعل ضعيفة كما أنها أصبحت ذات طابع غير الزامى ولكن ذلك لا يمنع من وجـــود مجموعات قرابية كبيرة تعمل كوحدات سياسية واقتصادية .

٢ - هنـاك احتمال لظهور التفكك الأسرى العميق الذى يصحب انهيار الأنماط التقليدية وقيام النظم الجديدة ، ولو كانت غير تامة النمو ، هذا التفكك الإنتقالى ليس شبيها بالتفكك الذى ينجم عن الانفصال والطلاق فى المجتمعات الصناعية ، ذلك أن الانفصال والطلاق يمكن أن يستمد أصوله من شدة التفاعل داخل الأسرة الصغيرة التى تؤدى وظيفة عاطفية فريدة فى المجتمعات الحديثة ولكن مثل هذا المظهر غير المستقر لا يمكن أن يؤخذ كعلامة على أنهيار النظام الأسرى من خلال فقدان وظيفة الأسرة (١).

٣ ـ أن الاختيار الزواجى وعلاقات الآباء بالابناء تتأثر بالفردية التى تقويها وتدعمها العصرية حتى فى المجتمعات التى يقوم نظامها الإجتماعى والاقتصادى على أيديولوجية جموعية ؛ إن الزواج الذى يتم عن طريق ترتيبات تتم بين المجموعات القرابية سوف يختفى بدون شك نتيجة لضعف الروابط القرابية وسوف يقوم على أساس ذلك نوع آخـــر من الاختيار يعتمد على الانتقاء الفردى ، كما أن الأطفال سوف يتلقون جزءا من تدريبهم على أيدى أشخاص غير آبائهم وسوف يتضمن هذا التدريب معرفة ومهارات ليست متوفرة فى أغلب الأحيان عند الاباء . وهكذا فإن ثمة توتر متوقع بين الأجيال حتى قبل أن يترك الأطفال أسرهم لا يمكن تجنبه .

---

1 — Ibid, p. 102.

٤ — عندما لا تصبح الأسرة وحدة إنتاجية اقتصادية وخاصة فى المناطق الحضرية فإن المركز الاجتماعى للنساء سوف يتدهور محليا ، ومع ذلك فان احتمالات تشغيل النساء والحرية المتزايدة فى الحركة واستخدام أوقات استخداما حرا يمكن أن يؤدى إلى موازنة فقدان المركز أو المرتبة . وهناك احتمال أن تحصل النساء على سلطة أكبر عن طريقين مهمين بسبب غياب الذكور الذين يكونون بعيدا فى أماكن العمل :

(١) رعاية الأطفال والأشراف عليهم (٢) الأشراف وتدبير دخل الأسرة على الأقل من ناحية الاستهلاك المادى ، ومن خلال هذا المفهوم فإن القول بأن الأسرة تفقد وظائفها الاقتصادية كلما تقدم التصنيع لا تعتبر قولا دقيقا لان الأسرة هى الوحدة المستهلكة المألوفة فى الاقتصاد الحديث ، وهكذا فهى مصدر لكل القرارات الاقتصادية الهامة .

٥ — تجمع المدينة أو المجتمع المحلى الصناعى أشخاصا لهم خلفيات اجتماعية متباينة ، قد ينتمون إلى قبائل متعددة أو بلاد أو ثقافات مختلفة أيضا ، ويترتب على ذلك أن الضوابط الإجتماعية غير الرسمية يصيبها الضعف وتنشأ من أجل ذلك مؤسسات رسمية لرعاية النظام المطلوب . (١)

٦ — يحدث أن يفقد السكان الحضريون الروابط الوثيقة مع أولئك الذين كانت تربطهم روابط عاطفية مما يترتب عليه ظهور أعراض عديدة من الإغتراب والإنحراف ولهذا يرى الكثيرون من الباحثين فى المجتمع الحضرى أن الادمان على الخمور والأضطرابات العقلية المختلفة وتعاطى المخدرات سوف يزداد كلما زاد التغير الإقتصادى .

---

1 — Ibid, p. 103.

٧ — أن الحاجه إلى التثقيف والمهارات الفنية ذات المستويات المتعددة فى مجرى العصرية سوف يقود إلى زيادة التأكيد على أهمية المدارس ومؤسسات التربية الأخرى.

٨ — ومع أن كثيرا من الدول أخذا بمبادىء العصرية تتوسع فى أنشاء المدارس الاولية أو الإبتدائية لمحاولة خلق قاعدة المواطنة الواعية التى تتفهم مطالب العصرية ومسئوليتها الا أن وسائل الإتصال الجموعى الحالية وخاصة عن طريق تكنولوجيا الراديو يمكن أن تكون بديلاً لهذا الإنتشار الواسع الإطار للمدارس فى المستوى الإبتدائى أو الأولى ، أن وسائل الإتصال هذه تصلح لارساء قاعدة الوعى القومى السياسى ، إلا أن هذا البديل التكنولوجى لايمكن أن يكون له تأثير يقابل تأثير التعليم والتربية .

٩ — إن الوصول إلى ثقافة شعبية أو عامة من خــلال وسائل الإتصال الجموعيه ليست بالدرجة التى يتصورها الكثيرون ،فسوف تبقى اللهجات الإقليمية حتى فى أكثر البلاد الصناعية تقدما ، وسوف تبقى بعض صور الترفيه التقليدية كالرقص والاحتفالات . (١)

١٠ — يعمل التصنيع فى أغلب الأحيان على الفصل الحاسم بين العمل وبين الفراغ هذا الفصل الذى لايكون مألوفا فى المجتمعات الزراعية أو القبلية،ولهذا فان استخدام الوقت من أى نوع يتأثر بهذا التقسيم ويصبح الفراغ مشكلة لكثير من أقسام السكان .

١١ — إن العصرية لاتؤدى إلى ازدهار جماعات المصلحة ومنظماتها التى تركز على الاهتمامات المهنية والإقتصادية ، ذلك لأن مجموعات من الناس تتجمع حول

1 — Ibid, p. 104.

كثير من الهوايات مثل جمع الطوابع والأثاث القديم ورعاية الفنون وكثير من الترفيه البدنى ، حتى أن البناء الاجتماعى فى الدول التى تأخذ بنظام سياسى مركزى فإن كثيرا من الجماعات تتشكل لتمارس وظائف اجتماعية متخصصة أو لتتابع بعض المفضلات ذات الطابع الفردى .

١٢ — تلقى الاتجاهات العلمانية تشجيعا عن طريق الاتجاهات العقلانية المتزايدة والتى تأخذ الطابع النظامى فى كثير من الاحيان ، لكن التوجيهات العقلانية لا يمكن أن تكون كافية فى معالجة جميع مشاكل الحياة . ولهذا أما أن ينخرط بعض السكان فى أهتمامات دينية أو ايديولوجية . (١)

١٣ — يترتب على التصنيع ظهور التباين الاجتماعى الذى يقوم أساسا على أختلاف المراكز الإجتماعية ومستوى الدخل الذى يحصل عليه الفرد من خلال المراتب التى يشغلها أو الوظائف التى يؤديها ولهذا يعتقد كثير من باحثى علم الاجتماع فى العالم الغربى أن المجتمع الذى يمر بطريق العصرية يتكون فيه نسق واضح من التدرج الطبقى الاجتماعى . (٢)

---

1 — Ibid, p. 104.

2 — Ibid. p, 104.

الفصل الحادى عشر

المشاكل الاجتماعية

تعتبر المشاكل الاجتماعية من الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع فى معظم المجتمعات المعاصرة وخاصة النامية منها . فالبحث فى الجريمة أو الجناح أو التوترات الدينية أو الطلاق وانهيار الأسرة ، أو الأمراض العقلية ، أو المشاكل المتعلقة بالتربية أو المجتمعات المحلية الحضرية . كل هذه المشاكل استأثرت باهتمام علماء الاجتماع منذ وقت طويل .

والمشاكل الاجتماعية بوجه عام هى المواقف أو الظروف التى ينظر اليهما أعضاء المجتمع باعتبارها مهددة لقيمهم ، أو ببساطة أكثر . المشاكل الاجتماعية هى ما يعتقد الناس أنها كذلك . ولكى توجد مشكلة اجتماعية لا بد من توافر عنصرين ، إذ يجب أن يوجد أولا شرط موضوعى Objective Condition (جريمة ، فقر ، توترات دينية) يمكن ملاحظته وقياسه عن طريق الملاحظين الاجتماعيين المحايدين . وثانيا لا بد من وجود تعريف ذاتى Subjective Difinition من بعض أعضاء المجتمع بأن هذا الشرط الموضوعى يشكل مشكلة حقيقية ، وهنا تلعب القيم دوراً هاماً ، حيث أنه عندما تقع القيم تحت تهديد مباشر نتيجة وجود الشرط الموضوعى فإن هذا الشرط يصبح مشكلة اجتماعية حيث يعتبر الناس هذا الشرط الموضوعى (الفقر) شيئا حتميا بل ربما يعتبرونه شيئا ضروريا . بينما تعتبره مجتمعات أخرى مشكلة إجتماعية ومع ذلك فدراسة المشاكل الاجتماعية ما زالت مصدرا لعدم الاتفاق بين علماء الاجتماع ، نتيجة لاختلاف آرائهم وتعدد اتجاهاتهم .

تعريف المشكلة الاجتماعية

عندما يقول الناس « أنه شيء مروع !! لماذا لا يفعلون شيئاً حيالة؟ » هنا تظهر مشكلة اجتماعية . وهناك تعريف رسمى يقول « المشكلة الاجتماعية هى ظرف يؤثر فى عدد كبير من الناس بطريقة غير مرغوبة ، وأنه يمكن عمل شيء خلال الفعل الاجتماعى الجمعى » ويتضمن هذا التعريف أربعة أفكار متميزة .

١ — الظرف الذى يؤثر فى عدد كبير من الأفراد .
٢ — بطرق تعتبر غير مرغوبة .
٣ — وأنه يمكن القيام بعمل ما .
٤ — من خلال الفعل الاجتماعى الجمعى (١) .

لا يعتبر غضب فرد واحد مشكلة إلا إذا تسبب فى إزعاج عدد من الأفراد الآخرين ، ولكن ما هو العدد المطلوب لكى تقول بوجود مشكلة ؟ فى الحقيقة أنه لا يوجد عدد محدد يجب تواجده قبل أعتبار الحالة كشكلة اجتماعية ، ولكن عندما تؤثر الحالة فى عدد كاف من الناس ويلاحظها عدد كبير منهم ويبدأون فى التكلم والكتابة عنها ، ففى هذه الحالة فقط توجد مشكلة اجتماعية . وتعتبر المقالات التى تكتب فى الصحف والمجلات عن أحدى المشكلات مؤشرا حيويا لمدى أهمية هذه المشكلة ، فن الواضح أن الحالة التى تجذب الانتباه على مدى واسع تصبح مشكلة اجتماعية .

ولقد أعتبر عمل الطفل ولمدة طويلا شيئا مرغوبا ولذلك لم ينظر اليه على

---

١ — استعنت فى كتابة هذا الفصل بإ كتبة كل من بول هورتون Paul Horton وجيرالد لسلى Gerald Leslie أنظر : The Sociologiy of Social Problems, Appleton - Century Croft pp. 1 - 43.

أنه مشكلة اجتماعية . والكن عندما قرر عدد كبير من الناس أن التحاق الأطفال الصغار بالعمل شيء مؤذ ومروع أصبح ينظر إلى عمل الأطفال على أنه مشكلة اجتماعية . وتتضمن المشكلة إذن حكما قيميا Value - Judgment وهو نوع من الإعتراف بأن ظروفا معينة قد أصبحت سيئة Bad ، ومعنى هذا أن الشخص يمكن أن يصدر حكما قيميا على ظرف من الظروف بأنه ينطوى على موقف غير مرغوب فيه ويتطلب التغير أو قد يرى أنه سليم ومقبول باعتباره جزءا من المجتمع ، وجدير بالذكر أنه فى عصر الاصلاح كانت أدوات التعذيب الرهيبة فى ذلك الوقت مقبولة من كل من البروتستنت والكاثوليك بإعتبارها أنجع الوسائل لحماية عقيدتهم وقد ترتب على ذلك أن الكاثوليك والبروتستنت لم ينظروا إلى التشدد الدينى أو التعذيب باعتبارهما مشكلة اجتماعية . ومن هذا المنطق لم يعترضوا مثلا على أسلوب وخلع الأظافر ، لأن المشكلة بالنسبة الكليهما كانت تنحصر فى أن المخطئين قد تم خلع أظافرهم ببساطة وهم يستحقون ذلك . وبمعنى آخر أجازت قيم هـذا العصر استخدام التعذيب فى كبح جماح الإلحاد وهـذا لا يمنع أنه عند تغير القيم يمكن أن يطرح سؤال يتغير معه الموقف يتلخص فى أى نوع من الإلحاد جدير بأن يقاوم ، يتضح من ذلك أن قيم رجل الاصلاح قد أدت به إلى أن ينظر إلى المشكلة ليس باعتبارها دافعة إلى التسامح الدينى بل إلى الضرب بشدة على المنحرفين أو المخالفين ، ولو أننا طرحنا هـذا الموضوع فى الوقت الحاضر لتبين أن القيم التى تؤمن بها الغالبية العظمى يمكن أن ترى المشكلة فى الاتجاه المضاد تماما .

إن هذه الأمثلة تصور كيف أن القيم يمكن أن تحدد ظرفا معينا كمشكلة اجتماعية أو قد تمنع الاشارة إلى أى ظرف آخـــر خاص على أنه مشكلة ، فالانتحار والسكر وإدمان المخدرات والجنسية المثلية والجوع وضرب الأطفال

أو حتى عدم ضربهم كل من هذه المسائل يمكن النظر اليها كمشكلة اجتماعية من خلال قيم المجتمع أو ربما لاينظر اليها باعتبارها أنواعا من السلوك المقبول وعلى ذلك فأى ظرف بغض النظر عن كونه دراماتيكيا أو مزعجا لشخص ما لايكون مشكلة اجتماعية إلا إذا أصبح بالنسبة لعدد من الناس فى المجتمع يمثل مشكلة بالنسبة لهم .

لقد تحدث الناس عن الطقس لكن أحدا لم يفعل شيئا بشأنه الا منذ عهد قريب جدا ذلك لأن الظروف التى لا يمكن أن تتغير أو لايمكن التغلب عليها لا بد أن تقبل ، ويتم ذلك عادة بمعاونة مجموعة من التبريرات، ففى جهات كثيرة من العالم وحتى عهد قريب لم تكن المجاعة مشكلة اجتماعية وذلك بسبب الاعتقاد الذى كان سائدا أنها تعبر عن أسلوب الطبيعة الذى لامفر منه للتخلص من الزيادات السكانية كما أن السيطرة على الفيضانات أصبحت مشكلة اجتماعية عندما أصبح فى الإمكان منعها ولكن قبل ذلك كانت الفيضانات عبارة عن أحداث تداهم الناس وهى من نوع الكوارث التى ينسبونها الى سوء الحظ (١) .

وجدير بالذكر أن طبيعة المشكلة تتغير كلما نمت وسائل علاجها وتطورت. فمنذ قرون مضت كان المرض العقلى مشكلة لكن علاجه كان يتمثل فى الأساليب التى تتبع لحماية الأصحاء الا أنه فى السنين الأخيرة تحول الأمر فأصبحت مشكلة المرض العقلى تتركز حول ابتداع الوسائل العلمية والطبية بمعالجة من يقعون فريسة للمرض ولهذا فإنه من الصعب أن ننسب موقف المجتمع فى القرون الماضية من مرضى العقل الى قسوة الناس بل الأصح أن ننسب ذلك الى نقص

---

1 — Halacy, O.S. "The Weather Changers. New - York, Harper and Row, 1968.

وسائل العلاج عندهم لمثل هذه الأمراض . ومعنى هذا أن حالة معينة يمكن أن تكون مشكلة إذا كان هناك اعتقاد بأن شيئا ما يمكن أن يقوم به المجتمع أو جماعة منه لمواجهتها ، أو بمعنى آخر إن الاعتقاد فى إمكانية العلاج هو الذى يجعل الناس يعتبرون مثل تلك الحالة مشكلة . ويترتب على ذلك أن الأمل فى العلاج يعتبر مبررا كافيا يقود الناس الى إعتبار حالة معينة كمشكلة مما يؤدى الى البحث عن وسائل لعمل شىء بصددها .

إن المشاكل الاجتماعية إذن إجتماعية فى أصلها وإجتماعية كذلك فى تحديدها وتعريفها وهى أخيرا إجتماعية فى وسائل مواجهتها وعلاجها لأنها تعبر عن حالة تؤثر فى عدد كبير من الناس فى الوقت الذى تعبر عن أشياء غير مرغوبة وأن شيئا يمكن عمله لمواجهتها عن طريق العمل الاجتماعى الجمعى .

مغالطات شائعة عن المشاكل الاجتماعية :

على الرغم من أن أغلب الناس لديهم قدر معين من المعرفة عن المشاكل الاجتماعية إلا أنها معرفة غير منظمة بوجه عام وغالبا ما تكون متناقضة وأحيانا تكون غير صحيحة . وإذا وضعنا قائمة بهذه المغالطات الشائعة عن المشاكل الاجتماعية فسوف نكتشف أن كثيرا من المعرفة المستقرة فى أذهان الكثيرين سطحية ولا يمكن الوثوق بها .

١ ـ الناس متفقون عن ماهية المشاكل الاجتماعية :

مع أن كثيرا من الناس يمكن يوافقوا على أن الاسكان والفقر والبطالة مشاكل اجتماعية ، فإن كثيرا غيرهم قد يكون لهم رأى آخر . وخاصة إذا نظر إلى هذه المشاكل على أنها تمثل نوعا من المبالغة لأن حدتها كما يتصور البعض ليست واقعية . إن بعض الفرق الدينية قد ترى الفقر مفيدا من الناحية الروحية

وقد يساندهم فى ذلك الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، ومعنى هذا أنه إذا كان هناك اتفاقا ملحوظا حول بعض المشاكل فإن هذا الاتفاق لا يمكن أن يكون كاملا مطلقا . أما بالنسبة لبعض المشاكل الأخرى قد يكون هناك اتفاق قليل جدا حول طبيعتها أو حتى وجودها .

٣ - المشاكل الاجتماعية طبيعية وحتمية

إن القول بان المشكلة راجعة إلى قانون طبيعى هو نوع من التهرب من مواجهتها لأن فكرة القانون الطبيعى فى هذه الحالة تكون نوعا من الادعاء المسبق الذى ينبعث من التفكير النظرى المجرد أو ربما من تأملات لا يساندها البحث العلمى الواقعى ، ومثال ذلك أن القانون الطبيعى للمصلحة الخاصة الذى يدعى أن الناس تعمل بجد من أجل الكسب الخاص فقط قد أمكن البرهنة على عدم صدقه من بيانات ومعلومات استمدت من عشرات من الثقافات . كما أن القانون الطبيعى لبقاء الأصلح الذى استعير من علوم الحيوان حيث ظهرت هناك تطبيقات معينة له يمكن بوساطة البرهنة على أنه لا يصلح للتطبيق على المجتمع الانسانى ذلك لأنه أصبح من المعروف علميا أن العادات والنظم التى صنعها الانسان تتدخل فى عملية البقاء ذاتها ولسوف يظهر من خلال أى معالجة للمشاكل الاجتماعية أنها ليست نتاجا للقانون الطبيعى أو الحتمية الفزيائية ، إلا أن المشاكل الاجتماعية يمكن أن تكون أمرا لا مفر منه إذا كانت بعض الترتيبات الاجتماعية القائمة تؤدى إلى نتائج حتمية ، إلا أن هذا النوع من الحتمية تختلف كلية عن الحتمية بالمعنى المستمد من القانون الطبيعى لأنها فى النهاية تظل تحت سيطرة الانسان ومقدرته .

٣ - المشاكل الاجتماعية شاذة

ينظر إلى المشاكل الاجتماعية أحيانا حتى عند بعض علماء الاجتماع على أنها تمثل انهيارا بشكل ما فى النظام القائم ، وفى هذا الصدد يعرف ميرتون ولسبت المشكلة الاجتماعية على أنها انهيارات أو انحرافات فى السلوك الاجتماعى تشمل عددا كبيرا من الناس وتحظى باهتمام شديد عند كثيرين من أعضاء المجتمع الذى تحدث فيه الظواهر (1) . ان هذا التعريف قد يناسب بعض المشاكل مثل ادمان المخدرات أو الجريمة الا أنه يطمس حقيقة هامة وهى أن كثيرا من المشاكل تعتبر نتيجة للسلوك السوى وليست راجعة الى انهيارات أو انحرافات فى السلوك الاجتماعى ، ومثال ذلك فإن مشكلة التلوث ليست راجعة الى أن الناس يتحولون الى أجلاف قذرين بالمقارنة بما كانوا عليه فى الماضى ، كما أنه ليس هناك انحراف فى مسألة تربية الأطفال، وتنشئتهم أو انجابهم ، الا أن الانفجار السكانى الذى يترتب على ذلك يشكل مشكلة كبرى. كذلك فإن السلوك التقليدى والعادى والمقبول لعدد كبير من الناس يتصفون بالاحترام يسهم بشكل أو بآخر فى وجود المشاكل الاجتماعية وربما بنفس القدر الذى يسهم به السلوك الشاذ والمنحرف وغير الاجتماعى . وحتى تلك المشاكل التى تعتبر نتيجة مباشرة للتصدعات والانحرافات فى السلوك مثل الادمان على الكحوليات والمخدرات والجريمة لا يمكن تحليلها بشكل مرضى من خلال انحراف السلوك لأن نفس القيم الاجتماعية والضغوط التى تجعل المرء منافسا وطموحا قد تخلق القلق وانعدام الأمن والأحباط والفشل وهى أمور

---

1 - Robert K Merton and Robert A.Nisbet, *Contemporary Social Problems*. N-Y, Harcourt Brace and World, Inc. 1961, p. 11

تؤدى الى تشجيع مثل هـذه الانحرافات فى السلوك وقد يفسر المعدل العـالى للطلاق كمظهر للتصدع الاجتماعى الا أنه قد ينظر اليه باعتباره تعبيرا منطقيا للقيمة الكبيرة التى يؤكدهـا المجتمع على الفردية والرفاهية المادية ، وبنـاء على ذلك نستطيع أن نقول ان المشاكل الاجتماعية هى النتائج المنطقية والعادية والتى لا مفـــر منها ، التى تترتب على القيم الاجتماعية الحالية والممارسات الفعلية .

٤ ـ الأشرار مسئولون عن وجود المشاكل الاجتماعية

تعتبر هذه المغالطة من أكثر المغالطات انتشارا لأننا عادة ما نحلل المشاكل فى ضوء ثنائية الحسن والردىء، فقد تعودنا أن نقرأ منـذ الصغر أن الشرور يتسبب فيها سحرة أو شياطين وأن الأشياء الجميلة من فعل أميرات أو أمراء يتصفون بالجمال والرقة والشهامة ، كاأن كثيرا من القصص والعروض السينمائية تتجنب الاشارة الى أى جماعـة باعتبارهـا مسئولة عن مشكلة معينة وتستبدل ذلك بعرض المشاكل على أنهـا تمثل نوعا من الصراع بين الناس الطيبين وبين الأشرار ، وتحرص على أن يهزم الشر فى نهاية الامر ، الا أننا يمكن أن ندعى أن المشاكل الاجتماعية يمكن أن يتسبب فيها من هم فى حكم الناس الطيبين الذين يركزون اهتمامهم على أعمالهم ولا يتدخلون فى شئون الغير ، ومثال ذلك أن هؤلاء الطيبين عندما يتحركون للسكن فى أطـــراف المدينة فإنهم بذلك يعملون على توسيع نطاق المناطق المتخلفة ومن ناحية أخـرى تستمر المشاكل الاجتماعية لأن هؤلاء الناس يتسامحون بل ويساندون الظروف التى تؤدى الى قيامها وانتشارها وخلاصـة القول هنا دون الدخول فى كثير من التفاصيل والأمثلة ، أن المشكلة الاجتماعية هى نتيجة للممارسات والنظم الاجتماعيـة القائمة وليست نتيجة بشكل أو بآخـر لاتجاهات شريرة أو أفعال منحرفة يقوم

بها أفراد أو حتى جماعات . ان السلوك الشرير الذى يرتكبه شخص أو أشخاص يحسن أن ينظر اليه كمظهر لمشكلة وليس كسبب فيها ، ويترتب على ذلك أن مجرد معاقبة الأشرار على الرغم من أن هذا قد يرضى مشاعرنا الا أنه لا يترك الا أثرا قليلا على المشكلة ذاتها .

٥ - المشاكل يخلقها من يتحدثون عنها

ان مصدر هذا الاعتقاد أنك من أجل أن تكون محترما رفيع الذوق ألا تتحدث عن أشياء مثل المناطق المتخلفة والفقر ونقص الإقامة الطبية أو التمييز العنصرى لأن الجهلاء والذين لا يشعرون بالمسئولية يمكن أن يثيرهم مثل هذا الحديث، ومعنى ذلك أن الحديث عن هذه الموضوعات يؤدى إلى اثارة المتاعب وبث روح الكراهية الطبقية ، لكن مثل هذا الاعتقاد لا يتمتع بأى وجاهة فهو أسلوب غير ديمقراطى لأنه يتضمن أن الناس وخاصة العاديين منهم ليسوا أهلا للثقة وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بإصدار أحكام تلقى مسئولية على معتنقيها وخاصة إذا كانت الديموقراطية تقوم على الإدعاء بأن الناس العاديين يمكن أن نثق بامكانية توصلهم إلى قرارات حكيمة طوال الوقت .

٦ - كل الناس يتطلعون الى حل المشاكل

لاحظ بعض الدارسين أنه عند اجتماع بعض النساء لمناقشة موضوع تنظيم الأسرة وخاصة تحديد النسل أنهن جميعا كن يومئن برؤوسهن على موافقتهن لكل ما كانوا يسمعونه حول أهمية هذا التنظيم وهذا التحديد ، إلا أنهن بعد أن تفرقن أخذت الكثيرات منهن يرددن عبارات تدل على عدم اقتناعهن عمليا لأسباب مختلفة عما وافقن عليه قبل ذلك، ومعنى ذلك أن هؤلاء النسوة مجتمعات كن يتطلعن إلى حل إيجابى لهذه المشكلة بمشاركتهن، إلا أنهن عمليا

لن يفعلن شيئا فى هذا السبيل . والنتيجة التى تستخلص من ذلك وخصوصا إذا أخذنا أمثلة عديدة على مثل هذه المواقف ، أن الناس على الرغم من إيمانهم بضرورة مواجهة المشاكل الاجتماعية إلا أن بعضهم لا يريد ذلك فى الواقع ، وخاصة إذا كانت قيمهم القديمة لم تتغير بعد ، أو أن حل بعض هذه المشاكل يمكن أن يكلفهم مالا أو مركزا أو قوة أو عواطفا أو أى شىء آخر يعتزون به .

٧ - المشاكل تحل نفسها بنفسها

كل مجتمع يتوقع التقدم بشكل أو بآخر ، ومن المعروف فى هذا الصدد أن النظرية القائلة أن التقدم الاجتماعى يتم آليا وحتميا قد سيطرت على التفكير الاجتماعى فى العقود الأخيرة إلا أنه قد اتضح وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية أن جهدا انسانيا مخططا لابد أن يبذل من أجل الوصول إلى هذا التقدم، ومع ذلك فعادة ما نسمع عند المناقشة التى نجريها حول أى مشكلة بعض الملاحظات أو الأقوال التى تتصف بالحكمة مثل أن الأمور لاشك تتحسن،أو أن الأمر ليس سيئا كما تعودنا أن نراه إن بعض هذه الأقوال قد يكون صحيحا من الناحية الوصفية إلا أنه يتضمن فى نفس الوقت أن التقدم سيحدث بطريقة طبيعية بمرور الزمن مثل نمو الشجرة ، وأن الأمر لايحتاج إلا إلى الصبر، لأن الزمن يحل كل المشاكل،وليس هناك شك أن مثل هذا الاتجاه يقدم تبريرا جميلا للكسل . إن تطبيق هذه الأقوال أو الأخذ بالنظرية المشار إليها لايستند إلى أساس ولا يعبر إلا عن السذاجة ذلك أنه على الرغم من أن بعض المشاكل قد تتوارى أو يقل خطرها بمرور الوقت فإن بعضها مثل الجريمة والبطالة وتعقيدات المرور والتلوث يمكن أن يزداد خطرا بمرور الزمن ، وعلى ذلك فإن قبول مثل هذه المغالطة عمل يتنافى مع الواقع .

٨ ـ معرفة الحقائق تحل المشكلة

إن أى مشكلة لا يمكن أن تعالج بطريقة فعالة بدون الحصول أولا على الحقائق المتصلة بها ولكن هذا ليس ضمانا على أن الناس سيفسرون هذه الحقائق بطريقة سليمة أو بصورة واحدة ، لأن الحقائق فى حد ذاتها لاتعنى شيئا ولا تقود إلى أى مكان معروف، وهذا هو الذى يجعلنا لقول أن الحقائق يجب أن تفسر حتى يكون لها معنى ، ومثال ذلك هل إذا عرفنا أن هناك كثيرا من المواطنين المحترمين يقامرون أو يتعاطون المخدرات يعنى أن القوانين التى تمنع مثل هذا السلوك يجب أن يبطل مفعولها حتى يصبح لما يقوم به هؤلاء شرعية ، أم أنه يجب أن تنفذ هذه القوانين بصرامة حتى لاتشجع هذه الإفعال. إنه من الواضح هنا أن « الحقيقة » لايكون لها معنى إلا إذا فسرت طبقا لقيم المرء ، فإذا كان للناس نفس القيم فإن جمع الحقائق يمكن أن يعالج اختلافاتهم ولكن إذا كان للناس قيم مختلفة فإن جمع الحقائق يحتمل أن يكون له أهمية فى مواجهة اختلافاتهم، كما أنه قد يعاون الفرد فى الدفاع عن قيمة بشكل مقنع ولكن لما كانت كل المشاكل الاجتماعية تقريبا تنطوى على أحكام قيمية متصارعة ، فمن العبث إذن أن نأمل فى أن مجرد جمع الحقائق سوف يعالجها. ويستنتج من ذلك أن عملية جمع الحقائق أو التوصل اليها لها قيمة محددة مع كل هذا ، لأن الحقائق التى جمعت بعناية تعاون على كشف التبريرات التى يبرر بها بعض الناس وجود المشكلة أو مبلغ خطرها ، ذلك أن إدعاء مثل الرعاية الطبية متوفرة فى جميع المستشفيات ، يمكن كشف مافيه من تناقض بطريقة فعالة من خلال الحقائق . وخلاصة الأمر أن الحقائق بالغة الأهمية إلا أننا نحتاج إلى فهم واضح وخاصة فيما يتعلق بما نستطيع أو لانستطيع أن نفعله أو نتوصل اليه عن طريق جمع الحقائق .

٩ - المشاكل تحل بدون تغيرات نظامية :

كثير من الناس مثل الرجل البدين الذى يريد أن يقلل من وزنه دون أن يتنازل عن الأشياء التى يحب أن يأكلها ، ذلك أننا نريد أن نحـل المشاكل الاجتماعية دون أن نغير شيئا ، والعلماء الاجتماعيون طالبون بتقديم وصفة اجتماعية سريعة لاتحدث ألما لحل أى مشكلة دون أن يضحى أحد بالمال أو القوة أو المشاعر وهذا أمر مستحيل .أن حل أى مشكلة حلا كاملا نسبيا يتطلب تغييرات شاملة فى الممارسات القائمة وفى النظم أيضا ، ومثال ذلك أن حل مشكلة كالفقر قد تتطلب تغيرات كثيفة فى عدد من النظم الهامة فى المجتمع مثل النظم الاقتصادية والتربوية والحكومية ، كما أن حـل مشكلة الاسكان قد تتطلب فى بعض الجوانب أن نقلل إلى حد واضح من تكاليف البناء وأن نستحدث مواد جديدة . وهذا الذى يدعونا إلى القول بأن كل حل مطلوب لكل مشكلة ينبغى أن ينطوى على تغيرات نظامية كبرى، وعلى تضحيات يجب أن تقدمها الجماعات ذات المصالح الخاصة . إن المشاكل مؤلمة وكذلك حلولها ويجب أن نعلم أن هذه الحلول يمكن أن تؤدى إلى مشاكل جديدة علينا أن نحلها .

الاتجاهات المختلفة من المشاكل الاجتماعية :

من المعروف أن اتجاهات المرء وقيمة تحدد المعانى التى يمكن أن يجدها فى الحقائق التى يلاحظها ولهذا فإن دراسة لبعض الاتجاهات الواسعة الانتشار نحو المشاكل الاجتماعية يمكن أن تعاون فى الكشف عن الإسلوب الذى يستجيب على أساسه الناس للحقائق التى تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا.

١ - اللامبالاة :

إن أهم اتجاه من هذه الاتجاهات هو من غير شك اتجاه عدم الاهتمام أو

اللامبالاة ، ذلك لان قلة من الناس يمكن أن يستثاروا وخاصة إذا كان الأمر لايمس مصالحهم أو رغباتهم المستقرة . إن الضغوط التى تتعرض لها من المنزل والأسرة ومن الأصدقاء والأعمال والواجبات الآخرى تجعلنا منهمكين إلى الدرجة التى نلتمس فيها لحظات قليلة من الاستمتاع والراحة وبالتالى لايكون لدينا الوقت لعمل مسوح اجتماعية أو دراسات بحثية أو حتى قراءتها. وإذن لاينمو الاهتمام العام بمشكلة معينة إلا إذا أحس الناس أن هناك تهديدا خطيرا ومباشرا لمصالحهم أو أن ثمة إنكار لقيمهم بهدد بتعطيل أهدافهم .

٢ـ الاستسلام القدرى :

ويتمثل هذا الاتجاه فى القبول السلبى لما يظهر من مصاعب أو توترات أو مشاكل ونستطيع أن ندلل من حقائق التاريخ أن ملايين عديدة من البشر احتملوا وعانوا كثيرا حتى من الجوع دون أن يحركوا ساكنا وكان رد فعلهم يميل أكثر إلى الاستسلام ، وفى الحقيقة لايمكن أن تكون هناك مشكلة إذا سيطر الاعتقاد بأن مايتحمله الانسان من مصاعب أو مشاكل هو من باب القدر الذى لامفر منه .

٣ ـ السخرية والتهكم والامتعاض :

يدور محور هذا الاتجاه إلى أن كل حديث عن المشاكل الاجتماعية هو مضيعة للوقت ، إذ لاينبغى أن نقلق أنفسنا لأى كارثة أو لأى شىء يمكن أن يعيق حركة الانسان لأن شيئا فى النهاية لا يهم . إن معتنق هذا الاتجاه يعتقد أن الناس هم مجموعة مؤسفة لأنهم لايتحركون إلا من خلال مصالحهم الخاصة ، ودوافعهم الخسيسة الأخرى، ويتلخص هذا الموقف فى أنه إذا كان أولئك الذين

يمرون بالمتاعب لا يستحقون الانقاذ ، وأن خلاصهم لا يمكن الوثوق بهم ، فلماذا لا نترك كل شخص يلاقى مصيره المحتوم .

٤ ـ الجزاء الدينى :

يرى هذا الاتجاه أن المشاكل هى عقاب الله الذى ينزل على الإنسان بسبب خطاياه وكلما ظهرت مشاكل كالحرب والفيضان والكساد وارتفاع الأسعار أو أنواع أخرى من الكوارث سوف تجد بعض الناس يصيحون إن هذا هو عقاب الله ينزل على الانسان الخطاء ، فإذا كان ذلك صحيحا فلن نجد حلا للمشاكل الاجتماعية فى تخطيط سياسه اجتماعية أو فى تغيرات نظامية ، بل نجده فى الصلاة والصلاح والتعبد والتوبة

إلا أن كل الموضوعات المتصلة بتدخل الله عز وجل فى الشئون الانسانية ووظائف التوبة والصلاة تنتمى لميادين أخرى كالفلسفة والدين وليس إلى علم الاجتماع . ومن المعروف أن هذه المسائل ليس لها من الناحية العلمية وسائل البحث عن إجابات لها ، ذلك أن علماء الاجتماع فى دراستهم للمشاكل الاجتماعية يمكن أن يحللوها فى ضوء ما هو اجتماعى ، ويبحثون عن العلية فى هذا النطاق .

٥ ـ الاتجاه العاطفى :

إن العاطفى بخلاف من أشرنا اليهم من قبل لا يحاول الهروب من المشكلة بل ينشغل بها إلى درجة كبيرة ويحاول جاهدا أن يفعل شيئا بشأنها ، ومن سماته أنه يتأثر بعمق بالفقراء مثلا وينادى بضرورة عمل شىء لهم ، إلا انه لا يرى أن البؤساء مثلا يعتبرون مظاهراً أو أعراضا للخلل النظامى الموجود فى المجتمع ، بل يراهم أفرادا يعانون يجب أن يمد المجتمع يده لهم ، وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه لا يستقيم مع الاتجاه العلمى ، الا أن موقف العاطفيين قد أثار عددا من الناس

ودفعهم إلى الاشتغال بفنون الرعاية الاجتماعية ، ومن الناحية التاريخية يعتبر الاتجاه العاطفي المرحلة السابقة مباشرة على ما نسميه الآن بالمدخل الاجتماعي العلمي الذي تبنى الدراسة الجادة للمشاكل الاجتماعية ، وجدير بالذكر هنا أن مدخل العاطفيين في معالجة مشاكل المجتمع قد تحول إلى ما يسمى الآن بالخدمة الاجتماعية التي تقوم على تعليم وتدريب الإخصائيين الاجتماعيين وتأهيلهم للعمل في ميدان تخفيف حدة المشاكل الاجتماعية ومحاولة أعادة تنظيم بعض الأوضاع الاجتماعية المحلية لخلق مناخ أفضل لمساعدة المحتاجين .

٦ - الاتجاه الاجتماعي العلمي :

يؤيد هذا الاتجاه ويعمل من خلاله العالم الإجتماعي والمشتغل بالخدمة الإجتماعية،ومع أن هؤلاء قد يشعرون بالتعاطف الا أنه ليس كافيا إذ يجب أن يمتزج بالمعرفة الخبيرة وبالعمق المهني ، فكما هو الشأن في أي علم يبدأ الإتجاه الإجتماعي العلمي نحو المشاكل الإجتماعية بالتساؤل عن طبيعة المشكلة،والحقائق المتصلة بها ، والأحكام القيمية المختلفة التي تنطوى عليها كل منها ، والسياسات التي يكون في اتباع أحدها أمرا يؤدى إلى نتائج مرغوبة بالقياس الى أوسع القيم انتشارا في هذا المجال،وواضح أن هذا المدخل هو أصعب المداخل جميعا ذلك لأن المداخل السابقة لاتعطينا الا اجابات بسيطة ومحددة في الوقت الذي لايكون للمدخل الإجتماعي العلمي قدرة مباشرة على اعطاء حلول جاهزة ،لأن مثل هذه الحلول لابد أن تعتمد علىَ الدراسة المضنية والموضوعية للمشكلة ، وربما كانت هذه الصعوبة هي التي تجعل قليلا من الناس ينجحون في تحمل ما يفرضه عليهم هذا الإتجاه من أعباء .

متطلبات هامه فى دراسة المشاكل الاجتماعية :

١ ـ الدراية والمعرفة :

إن الطلاب لابد أن يكونوا على وعى بالمشاكل الاجتماعية الاساسية ولهذا عليهم أن يدققوا النظر فيما يسمعون عن المصاعب التى يواجهها الناس ومايشكون منه .

٢ ـ المعرفة الواقعية :

كل معرفة يعتد بها لا بد أن تستند إلى الحقائق ، لأن مناقشة أى مشكلة اجتماعية لن تفيد شيئا إلا إذا كنت تعلم ما تتحدث عنه ، وعلى الرغم من أن مجرد جمع الحقائق كما سبق أن ذكرنا لن يحل أى مشكلة بطريقة آلية ، إلا أنه من المستحيل تحليل المشكلة إلا إذا أمكن جمع أكبر قدر من المعلومات عنها لنتمكن من تنظيمها ثم تفسيرها .

٣ ـ فهم رسالة علم اجتماع المشاكل الاجتماعية :

إن هذا يعنى فى الدرجة الأولى أن يكون لدينا فهماعاما عن لماذا وكيف تظهر المشاكل الاجتماعية وتتطور وكيف يتأثر الناس بها وما الذى ينطوى عليه أسلوب معالجتنا لها ، ويتحول ذلك الفهم إلى اطار مرجعى من خلاله نتعرف على المادة التى يجب أن نجمعها ونصنفها ونوعية المشاكل التى ينبغى دراستها ، وليس هناك شك أن الطالب الذى لديه معرفة دقيقة بعلم اجتماع المشاكل الاجتماعية فإنه سوف يكون قادرا على تصنيف معطياته وتنظيمها بسرعة ، ويكون قادرا بنفس الدرجة على تحليل المشكلة بكفاءة .

٤ ـ العلاقة المتبادلة بين النظرية والتطبيق :

كثيراً ماهوجمت النظرية والمنظرين وخاصة فى أمريكا ، وساد لوقت

طويل الاعتقاد بأن الرجل العملى مطلوب حتى بالنسبة لدراسة المجتمع أكثر من المنظر، ويبدو هذا التحامل الساذج واضحا خصوصا بعد أن تأكد نتيجة للخبرات الطويلة أنه حتى فى ميدان السياسة الاجتماعية لا يمكن فصل النظرية عن التطبيق . إن كل سياسة تطبيقية تنبع من نظرية فى العملية ، وكل نظرية تحمل فى مضمونها نوعا من الضبط أو المعالجة ، وكل من يحاول أن يفصل النظرية عن التطبيق يكشف عن جهله بعلاقتها ، ومن يدعون أنهم عمليون هم ببساطة لا يعلمون شيئا عن النظريات التى تكمن خلف أفعالهم . هذا وقد أمكن التدليل فى السنين الأخيرة على أن من يؤكد اتجاهه العملى ويدلل على أنه لم يتأثر بالإعتبارات النظرية هو فى الحقيقة عبد لنظريات اقتصادى أو فليسوف بعد به الزمان ، ومثال ذلك أن كلا من المحافظ أو الليبرالى انما يساند سياسات اقتصادية استمدت بنفس الدرجة من النظرية الاقتصادية ومن المعروف أن النظرية السليمة يمكن البرهنة على صدقها عن طريق التطبيق الناجح ولهذا فإننا لا نستطيع أن نحكم على نظرية من حيث صحتها أو فعاليتها قبل اختبارها تطبيقيا . وقد أجمع المنظرون فى ميدان علم الاجتماع على أن التنظير الغامض أو الفشل فى اختيار النظرية لا مكان له فى العلم ، وكل من يقع فى هـذا الخطأ لا يستحق الدفاع عنه .

٥ ـ الاحساس بالمنظور :

قد يجد بعض الناس فى دراسة المشاكل الاجتماعية أمرا مقلقا مثلهم فى ذلك مثل أولئك الذين يعتريهم الخوف من جميع الأمراض التى يجدون أسماءها مسجلة فى قائمة من الكتاب الطبية ، ولهذا فإن بعض الطلاب يشعرون بالضيق من النقد الكبير والمتعدد الجوانب للمجتمع الذى يعرض عليهم أو يطالبون بقراءته عندما يكون عليهم دراسة المشاكل الاجتماعية كمقرر دراسى ، ومن

ناحية أخرى قد يتحول الادراك العميق للخلل الاجتماعى إلى نوع من الهاجس المسيطر ، وذلك حين يتأثرون بعمق بالمعاناه والإحباط وبما يثيره المجتمع من مصاعب وتوترات أمام الناس ، الأمر الذى قد يؤدى بهم الى أن يفشلوا فى رؤية الجوانب الجميلة والمشجعة فى الصورة الكلية ، وربما كان ذلك هـــو الذى يجعلنا نقـول أن الاحساس بالمنظور يصبح أمـرا ضروريا اذا كان علينا أن ننظر الى المشكلة بدون مبالغة أو التواء . ومعنى ذلك أن المشاكل الحالية لابد أن نراها من خـلال الوقائع الماضية وليس من خلال المعتقدات أو الخرافات الماضية ، ذلك لأن الماضى لم يكن يحب بعض الناس أن يصفوه و الماضى الذهبى الخالى من المشاكل ، لأنه من المعروف أن لكل عصر مشاكله ، ومشاكلنا الحالية تمتد جذورها بلا شك فى التجربة الماضية للإنسان .

تقدير الدور السليم للخبراء :

يميل الكثيرون الى عدم الثقة برأى الخبراء ويقولون لسنا فى حاجة الى من يدلنا على ما نفعل ، ويؤكدون أن الخبرة الدارجة أفضل من النظريات المعقدة ذات البريق التى يطلقها خـــبراء أو أساتذة يريدون أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم باتخاذ مواقف الحكمة ، لكن اذا كان من الديموقراطية أن نعترف أن كل شخص له أن يعتنق أفكاره فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن أفكار كل الناس لها قيمة ، ويلاحظ أننا اذا أردنا أن نصل الى رأى مفيد عـــن سبب تعطيل السيارة أو صداع مستمر فى الرأس فإننا نتجة الى سؤال الخبير المناسب لكننا اذا أردنا أن نعلم لمـاذا ظهرت علامات العصيان على ابن أو ابنة أو عن كيفية خفض معدلات الجريمة فإننا نمتنع عن سؤال خبير فى هذه الموضوعات، وبدلا من ذلك نجادل بناء على أفكارنا وربما أيضا مناقشة مثل هذه الموضوعات

مع آخرين لا يعرفون عنها أكثر مما نعرف .

إن هـــذه التناقضات تنبع من الفشل فى التمييز بين موضوعات المعرفة وموضوعات القيم ، ففى مجال المعرفة هناك اجابات صحيحة واجابات خاطئة، بينما لا يكون الأمر كذلك فى ميدان القيم لأن هناك مفضلات مختلفة ، ولهذا يستوى الخبير مع الانسان العادى فى مسائل القيم ، لأن كلا منهما يرتبط بمفضلاته . أما المسائل المتعلقة بالمعرفة فلن يتساوى فيها الخبير بالانسان العادى. ويمكن تصوير هذا الأمر بشكل مبسط فنقول إن وظيفة الخبير العلمى هو أن يدل الناس على أفضل الطرق التى يحصلون من خلالها على ما يريدون ، وكذلك عندما يوافق الخبراء على فائدة سياسة معينة وعلى عقم سياسة أخرى فإنه من الغباء ألا يوافق الإنسان العادى على ذلك . كذلك عندما يختلف الخبراء فإنه من الغباء أيضا أن ينحاز الإنسان العادى إلى رأى دون آخر ، ومثال ذلك ، أنه لما كان خبراء علم الجريمة متفقين على أن السلوك الإجرامى مكتسب وليس فطريا فان الإنسان العادى الذى يتحدث عن غريزة الإجرام أو المجرم بالفطرة فإنما بحديثه هذا يكشف عن جهله . إن وظيفة الخبير السليمة والناجحة فى ميدان المشاكل الاجتماعية أن يقدم وصفا دقيقا وتحليلا متقنا للمشاكل الاجتماعية ويدل الناس العاديين على النتائج التى يمكن أن تترتب على عـــلاج مقترح . كذلك من وظيفة الخبير العلمى أن يدل الناس على ما ينبغى أن يطلبوه ، وهنا نتساءل هل على عالم الاجتماع كعالم أن يبحث عن وسائل لتحقيق المساواة بين الأجناس واقتلاع الفقر وخفض حدة التلوث وما إلى ذلك ، ان الأجابة عـلى هـذا التساؤل قد أثار مناقشات حامية فى العلوم الاجتماعية ، وجوهر هـذه المناقشة يدور حول الموضوع التالى : هل على العالم الاجتماعى كعالم أن تكون لديه أحكام قيمية فى الوقت الذى يكون منصرفا فيه كلية الى البحث عن الحقيقة ؟

لقد أجاب معظم علماء الاجتماع فى الجيل الماضى على ذالك بقولهم ان علم الاجتماع يجب أن يكون متحذرا من القيمة فهـــو علم خالص يسعى الى أن يحقق نموذجا فى البحث كالنمـوذج السائد فى الكيمياء والفيزياء ، أى أنه يسعى الى اكتشاف المعرفة وليس مطلوبا منه أن يتورط برأى فى المسائل الاجتماعية الجارية، لكن كثيرا من علماء اجتماع اليوم يعارضون هذه النظرة ويؤكدون أن علماء الاجتماع لا بد أن يسهموا عن طريق توصياتهم فى المسائل المتعلقة بالسياسة العامة ، وأكثر من ذلك يشعر هؤلاء بأن علماء الاجتماع ليس لهم أن يبدوا رأيهم فيما يستطيع المجتمـع أن يفعله بشأن التفرقة العنصرية والتخلف الحضرى وتحديد النسل والإنحرافات الجنسية فحسب ، بل ان عليهم واجبا أن يقولوا أيضا ما يجب على المجتمع أن يقوم به ازاء هـــذه المشاكل (١) . وعلى الرغم من أن هـــذا الموضوع لا زال محل نقاش لم يتم حسمه حتى الآن بين علماء الاجتماع الا أن القول بأنهم يجب أن يسهموا فى توجيه السياسة الاجتماعية الى ما ينبغى أن يكون وأن يعاونوا على دفع عجلة الاصلاح الاجتماعى يبدو أنه يجد له أنصارا متزايدين باستمرار .

التوجيه الشخصى :

ان الطالب أثناء دراسته للمشاكل الاجتماعية سوف تنمو عنـده استجابة شخصية لها ، فكل طالب يحتمل أن يكون اتجاها معينا نحو المشاكل الاجتماعية وربما يفضل اتجاها من الاتجاهات التى ناقشناها من قبل ، إن كثـيرا من الطلاب يقبلون على دراسة المشاكل الاجتماعية ليس من باب الفضول ولـكن

---

1 — Thomas Ford Hoult, 'Who shall prepare Himself to the Battle' American Sociologist, Vol. 3 (February, 1968), pp 3-7.

مثل هذه الدراسة ضرورية ، ومعنى هذا أنه من الناحية العملية تتباين مواقف الطلاب واتجاهاتهم عند الدراسة ولذلك فإن على الاستاذ الذى يقوم بتدريس المشاكل الاجتماعية أن يحرص على تكوين رأى عام أكثر علمية بين طلابه ، لأن التغيرات التى يمكن أن تحدث فى السياسة الاجتماعية تكون فى أغلب الأحيان مصاحبة للتغيرات التى تحدث فى تفكير أكبر قدر من الناس .

علم اجتماع المشاكل الاجتماعية

إن من يدرسون علم الاجتماع ربما يكون لديهم معرفة من نوع ما بالنظرة المتميزة لهذا العلم إلى المشاكل الاجتماعية إلا أنه من المفيد فى كتاب يعرض المبادىء التى تشكل مدخلا لدراسة علم الاجتماع أن نناقش عدداً من الجوانب التى تشكل الإطار السوسيولوجى المرجعى عند فهم ودراسة المشاكل الاجتماعية .

١ — التغير الاجتماعى :

لقد سبق أن ذكرنا فى فصل سابق أن التغير فى الحياة الاجتماعية لا يتوقف ، ذلك أنه على الرغم من أن التغير قد يكون تدريجيا وغير ملحوظ إلا أن المجتمعات تتغير بصفة مستمرة ، وعلى ذلك فإن التغير الاجتماعى المستمر ينبغى أن يكون من الوضوح بشكل كاف عند الدارسين الذين نشأوا وسط تغيرات اجتماعية سريعة تحدث فى عصرنا ، فالحروب الكبيرة والصغيرة ، وتطور الصواريخ ، والأسلحة ذاتية الحركة والتصويب ، والطيران بدون طيار ، والتليفزيون التجارى ، وارتياد الفضاء ، والتطور الذى تم فى مجال الطاقة الذرية ، هى جميعا أمثلة على بعض التغيرات التى ظهرت خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، إلا أن جميع جوانب المجتمع لا تتغير بنفس المعدل أو على الأقل فى نفس الاتجاه ، وقد

لاحظ ذلك أحد كبار علماء الاجتماع عندما أشار إلى أن التغيرات التكنولوجية (المادية) تسبق دائماً التغيرات المعنوية (اللامادية) الأمر الذى ترتب عليه ما أسماه التخلف الثقافى، وهو التخلف الذى يطلق عليه البعض التفكك الاجتماعى على أساس أن هذا التفكك يعتبر نتيجة مباشرة للتخلف المشار إليه (١).

إن استمرارية التخلف الثقافى ومعدلاته المتباينة يعتبران من العوامل الرئيسية فى فهم السلوك الانسانى وبالتالى فإنها فى غاية الأهمية فى تحليل المشاكل الاجتماعية.

٢ - النسبية الثقافية:

إن الممارسات الاجتماعية تختلف بطريقة لانهائية تقريبا، فالحكومات قد تكون ديمقراطية، جمهورية أو ملكية، أو قد تكون اشتراكية، كما أن وسائل الإنتاج قد تكون مملوكة ملكية خاصة ومدارة بطريقة فردية أو تكون مملوكة ملكية خاصة ولكنها مدارة بطريقة عامة، أو تكون مملوكة ملكية عامة، وجدير بالذكر أن أحد هذه الممارسات الثقافية يمكن أن يواجه احتياجات أى مجتمع معين، ولهذا فإن قدرة الإنسان على التوصل إلى أساليب بالغة التعدد لحل المشاكل الجماعية يعتبر جوهر فكرة النسبية الثقافية.

ويلاحظ أن المجتمعات تجهل بشكل عام مبدأ النسبية الثقافية لأن كل مجتمع يميل إلى الاعتقاد بأن طريقته فى إنجاز متطلباته هى أكثر الطرق منطقية وسلامة أو ربما أنها الوحيدة التى تتمتع بالمشروعية، ومثال ذلك أن المنظور الذى يحظى بانتشار عالمى عن أنماط الأسرة يشير إلى أن هناك مجتمعات قليلة تؤسس

1- William Ogburn, 'on Culture and Social Change' (Chicago University Press, 1964.)

الزواج على التجاذب الرومانتيكي بين الرجل والمرأة ، كما أن مصلحة الوحدة الأسرية الأكبر ينظر إليها غالبا على أنها أكثر أهمية من تطلعات الزوجين .

وتتضمن فكرة النسبية الثقافية أن أي سمة ليس لها معنى في ذاتها وإنما يكون لها معنى بناء على المضمون الثقافي الذي توجد فيه، فالعادة لا تكون حسنة أو سيئة بذاتها ، فهي حسنة إذا كانت منسجمة مع بقية الثقافة التي تمارس من خلالها وظائفها ، وتكون سيئة إذا اصطدمت ببقية أجزاء الثقافة ، ومثال ذلك أن الزواج التعددي الذي يشارك فيه عدد من الأزواج الحياة مع زوجة واحدة ربما يكون عمليا لمجتمع بدائي يريد أن يحافظ على نمو السكان في مستوى معين أو يريد أن يواجه الجوع في البيئة التي يعيش فيها بطريقة ناجحة . وهذا هو الذي نعنيه بمصطلح النسبية الثقافية ، حيث يجب فهم أي فكرة أو ممارسة في ضوء علاقتها ببقية أجزاء الثقافة التي تنتمي اليها .

٣ ـ السلوك المتعلم (المكتسب)

إن الاعتراف بأن الشخصية أو السلوك ينبع إلى حد كبير من المجتمع والثقافة التي يعيشها الفرد يعتبر أحد اكتشافات الإنسان الهامة ، ومثال ذلك أنه في مجتمع معين قد يعلم الأطفال السلوك العدواني بينما يعلمون في مجتمع آخر الخجل والتبعية . إن النوع الإنساني من الناحية البيولوجية واحد ولكن السلوك الانساني يتغير بدرجة ملحوظة من جماعة لأخرى ومن ثقافة لأخرى كذلك. وقد يواجه الباحث عند دراسة المشاكل الاجتماعية بادعاء، مؤداه أن التغيرات المقترحة غير مرغوب فيها لأنها ضد الطبيعة الانسانية أو ضد الطرق المألوفة التي تعود الناس أن يتصرفوا على أساسها ، ويتصور البعض أن هذه التغيرات سوف لا تحدث أي تأثير لأنها جديدة أو مختلفة أو راديكالية .

إن الدارس الذى يتفهم القواعد أو المبادىء السابقة سوف يحتاج إلى أدلة أكثر إقناعا من الأقوال أو الشعارات القبلية حتى يتسنى له قبوله أو رفضه أى حلول مقترحة لمشاكل الاجتماعية .

مداخل لدراسة المشاكل الاجتماعية :

نظرا للعدد الضخم من المشاكل الاجتماعية وتداخلها بعضها مع بعض بطبيعتها ، فإن مدخلا واحدا لدراستها لا يمكن أن يكون كافيا ، فهناك على الأقل ثلاثة مداخل متمايزة نسبيا ثبت فائدتها فى دراسة المواقف المختلفة التى تترتب على المشاكل الاجتماعية .

١ ـ مدخل التفكك الاجتماعى :

تجرى الحياة الاجتماعية من خلال ظروف أو أوضاع منظمة ولهذا فإن سلوك الأفراد والجماعات يتم ضبطه من خلال مجموعة كبيرة من القواعد والمعايير التى تحدد أى أنواع السلوك مسموح به أو مرغوب فيه أو يمكن التسامح معه . ومن الناحية الرسمية أعلى مستوى القانون نجد أن المعايير مقننة أى أنها مكتوبة وهناك عقاب لكل انتهاك لأحد هذه المعايير . وهكذا فالقانون يمنع أن يقتل شخص آخر ويضع عقوبة الإعدام أو السجن المؤبد لمن يرتكب مثل هذه الجريمة ، إلا أن عقوبة وضع سيارة فى غير المكان المخصص لها بسيط . فى الوقت الذى يؤدى عدم اتباع المطاعم للاجراءات الصحية إلى غلقه ، إلا أن أغلب المعايير فى أى مجتمع من ذلك تعتبر أقل رسمية من القوانين لأنها تأخذ شكل توقعات معينة لما سوف يقوم به الناس ، ولهذا فإننا نتوقع أن ينفذ الشرطى القانون ، وأن تحب الأم أطفالها ، وأن يؤدى العامل عمله فى الوقت المخصص لذلك .

إن هذه الشبكة الواسعة من التوقعات الاجتماعية المتفق عليها عن السلوك شخصى تشكل ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميته « التنظيم الاجتماعى » تستدمج هذه التوقعات عن طريق أعضاء مجتمع معين ، حيث يمكن ضمان يام التوقعات بوظائفها بشكل طبيعى ما لم يواجه المجتمع بتغيرات غير متوقعة وسريعة . فالناس يتصرفون عادة كما يتوقع الآخرون منهم ، ويرتبط بتصرفهم بذا ما يتبعونه من طـــرق عادية فى السلوك وهى الطرق التى تنطوى على لمفهومات الخلقية لما هو حق أو طبيعى أو حسن .

ومع ذلك فالقواعد لا تؤدى وظائفها دائما بكفاءة . فهى عرضة للانهيار تحت تأثير التغير الاجتماعى ، والناس يحاولون أن يتكيفوا مع الظروف لجديدة مع التقيد بالأساليب التى تحظى بالاحترام ، إلا أنهم بدلا من ان يتوصلوا إلى الرضى والاشباع فانهم يصبحون عرضه للاحباط والشقاء ، ذلك لأن النظام الذى كان سائدا فى المـاضى والذى كان يسمح لهم بالتنبؤ بالمستقبل ند حل محله التخبط والاضطراب وهـذا هـو الظرف الذى يؤدى الى ظهـور ما يسمى بالتفكك الاجتماعى ، وهناك امثلة عديـدة على ان التغيرات التى حدثت فى الظروف الأساسية للحياة قد ادت الى انهيار المعايير التقليدية الأمر الذى أدى الى انتشار الشقاء الفردى .

وهكذا نستطيع أن نتبين أن أحـــد المسالك التى يسلكها التحليل الجيد للمشاكل الاجتماعية يكون من خلال تحليل التفكك الاجتماعى الذى يصاحب التغير الاجتماعى . وفى هـذا الصـدد يؤكد مدخل التفكك الاجتماعى أنه فى وقت ما من التاريخ لم يكن للمشكلة وجود أو لم تكن محل ملاحظة أو ربما لم تكن مشعورا بها ، هذا التأكيد ينطلق من ادعاء هذا المدخل أن المجتمع كان

متوازنا نسبيا يوما من الأيام حيث كانت الممارسات والقيم التى تساندها فى حالة من الاتفاق والانسجام . لكن التغير الاجتماعى قد أدى إلى كسر هذا الاتفاق والاخلال بهذا الإنسجام ، لأن التغير عادة ما يجلب معه ممارسات جديدة وظروف جديدة تجعل القديم منها لا يصلح ويترتب على ذلك أن القواعد القديمة تصبح أمرا مشكوكا فى قدرتها على تنظيم السلوك فى الوقت الذى لم تقبل فيه بعد وبشكل عام القواعد الجديدة ، ومعنى ذلك أن التغير قد قد أدى إلى تفكك التنظيم الذى اعتمد عليه نسق السلوك السابق . وطبقا لهذا المدخل ، فإن قواعد جديدة وممارسات جديدة كذلك سوف تنمو ، الأمر الذى سيصحبه بالضرورة توازن جديد ، الذى يمكن أن يظل ثابتا حتى تبدأ دورة أخرى من التغير وهكذا (١) .

والمزاعم التى يعتمد عليها مدخل التفكك الاجتماعى لا تبدو صحيحة كلية وخاصة عند التجربة الواقعية فليست هناك فترات من الثبات الثقافى الكامل تنفصل بعضها عن بعض عن طريق دورات التغير لأن التغير والتفكك وإعادة التنظيم ظواهر مستمرة بلا توقف ، إلا أنه من المفيد أحيانا فى فهم مشكلة معينة أن نرجع إلى فترة سابقة تكون الظروف فيها ثابتة نسبيا ، وبشرط أن يكون الموقف الحالى قد تطور عنها مباشرة ، ولسوف نسأل دائما عند تحليل مشاكل اجتماعية بعينها إلى أى مـــدى تنبع هذه المشكلة من التغير الاجتماعى والتفكك الاجتماعى . وماذا يستطيع اتجاه التغير الاجتماعى أن يدلنا على الحلول الممكنة لهذه المشكلة .

---

1 - Edwin M. Lemert, Human Deviance, Social problems and Social Control (Englewood Cliffs N.J., Prentice-Hall, Inc., 1967), pp. 31-39.

ومن المستحسن عند تطبيق مدخل التفكك الاجتماعي في دراسة المشاكل الاجتماعية أن نسأل مجموعة من الأسئلة منها ما يلي :

١ — ماذا كانت عليه القواعد والممارسات التقليدية ؟

٢ — ما هي التغيرات الاجتماعية الكبرى التي قللت أو أنهت تأثيرها ؟

٣ — ما هي القواعد القديمة بالذات التي انهارت؟ وهل كان انهيارها كاملا؟

٤ — هل التغير الاجتماعي مستمر ، وبأي سرعة ، وإلى أي اتجاه ؟

٥ — ما هي الجماعات غير المرحبة أو الرافضة ، وما هي الحلول التي تقترحها ؟

٦ — كيف تتناسب الحلول المقترحة المتنوعة مع اتجاه التغير الاجتماعي ؟

٧ — ما هي القواعد التي يحتمل أن تصبح مقبولة في المستقبل ؟

مدخل الانحراف الشخصي :

يجب أن نلاحظ أنه عند استخدام مدخل التفكك الاجتماعي في فهم المشاكل الاجتماعية كان التركيز على القواعد التي انهارت والتغير الاجتماعي العام الذي صاحب هذا الانهيار ، والقواعد الجديدة التي ظهرت . ولكن عند استخدام مدخل الانحراف الشخصي فإن التركيز يكون على دوافع وسلوك مجموعة معينة من الناس تقع عليهم مسئولية إحداث المشكلة وعلى تعريف طبيعتها وعلى اقتراح حلول للمشكلة أو معارضتها . إن هؤلاء الناس يعتبرون منحرفين حيث يرتبط انحرافهم بطرق معينة وعديدة بالمشاكل الاجتماعية ، لهذا فنحن نريد أن نعرف كيف يتطور الانحراف الشخصي وما هي أنماطه التي ترتبط عادة بالمشاكل الاجتماعية .

أ - أسباب الانحراف الشخصى :

لا ينبثق الإنحراف من جرثومة أو على الأقل لا يكون كذلك فى الغالبية العظمى من الحالات ، فالأفراد يصبحون عادة منحرفين من خلال عملية تعلم المعايير (القواعد السائدة فى مجتمعهم) فنمو الانحراف هنا مرتبط بنمو الشخصية ، ذلك أنه عند نمو الإنحراف إما أن يكون هناك عدم قدرة على اتباع المعايير المتفق عليها ، وإما أن يكون هناك فشل فى قبول هذه المعايير .

هناك بعض الأشخاص لا يستطيعون اتباع المستويات المقبولة بوجه عام بسبب ظروف تتعلق بتكوينهم البيولوجى والانفعالى والاجتماعى ، أى أنهم معوقون بيولوجيا وانفعاليا أو اجتماعيا ، ومثال ذلك أن المعوق اجتماعيا لا ينتهك المعايير حقيقة وانما يبدى عدم قدرة للتعلم واتباع المعايير ، ويصبح وجود عدد كبير من هؤلاء فى حد ذاته مشكلة اجتماعية ، أما فى حالة المعوق عقليا فسبب الانحراف يرجع فى الغالب الى أسباب بيولوجية ومع ذلك فهناك جماعات عديدة لا تستطيع كليا أن تتبع بوجه عام المعايير المقبولة مثل مدمنى المخدرات والمقامرين لأنهم لا يملكون القوة الكافية على تغيير أنماطهم الانحرافية. إن أغلب هؤلاء الأفراد استدمجوا معايير المجتمع فى وقت مبكر من حياتهم ولكنهم يظهرون لأسباب انفعالية أو اجتماعية غير قادرين على السيطرة على سلوكهم الذى يتوقعه الأعضاء السويون فى المجتمع ، ويشكل مثل هؤلاء المنحرفين مشكلة اجتماعية ، أو قد يسهمون فى مشاكل اجتماعية أخرى ، إذ أنهم عادة ما يحتاجون الرعاية الطبية ، أو قد ينخرطون فى أنشطة اجرامية .

وعند تطبيق مدخل الانحراف الشخصى فى دراسة المشاكل الاجتماعية نجد أنه من الملائم أن نطرح الأسئلة التالية :

١ - ما هى الجماعات والأشخاص المنحرفين الذين تنطوى عليهم المشكلة الاجتماعية ؟

٢ - هل المنحرفون هم أنفسهم المشكلة وكيف ؟

٣ - هل يسهمون فى خلق المشكلة فعلا وكيف ؟

٤ - كم من الانحراف الظاهر تتسبب فيه جماعات تنتمى الى معايير أخرى مقبولة على نطاق واسع ؟

٥ - ما هى الثقافات الفرعية المنحرفة المتضمنة فى ذلك ؟ وما هى المعايير التى تتبعها تلك الجماعات ؟

٦ - هل المنحرفون مجموعة من الناس سيئة التوافق أساسا ؟ وما هى الحاجات العصابية التى تدفعهم أو تحركهم ؟

٧ - ما هى البدائل المحتملة التى تصلح لمعالجة المنحرفين ؟

مدخل الصراع القيمى :

تكشف قيم المجتمع عما يفضله ويرفضه كما أنه يستمد طابعه من قيمه وجدير بالذكر أن المجتمعات الحديثة تتميز بالتنوع واللاتجانس الأمر الذى نتوقع معه أن نجد فى المجتمع الواحد أنساقا متعددة من القيم حتى أن الاتفاق بينها يصبح أمرا صعبا . ولهذا يقال ان الصراعات حول القيم فى المجتمع الحديث تعاون على وجود المشاكل الاجتماعية من زاويتين : الأولى ، أنهما تعاون على إيجاد المشاكل من خلال التحديدات المتصارعة للظروف الاجتماعية المرغوب فيها . والثانية ، أنها تسمح بالخلفية الخلقى الذى يشجع الانحراف الشخصى .

ومعنى ذلك أن صراعات القيم متضمنة فى أصول المشاكل الاجتماعية

وطرق تحديدها وأساليب مواجهتها ، وفى هذا الصدد اقترح ريتشارد فولر Richard Fuller [1] . وهو واحد من الذين كان لهم الفضل فى تطوير هذا المدخل عددا من المراحل التى تمر فيها المشاكل ثناء عملية تحديدها وأساليب مواجهتها ، وتتلخص فى ما سماه بالوعى بوجود المشكلة وتحديد سياسة مواجهتها والاصلاح الذى يترتب على ذلك .

ويحسن من أجل توضيح معالم هذا المدخل أن نسأل عددا من الأسئلة فيما يلى :

١ — ما هى القيم التى تدخل فى صراع مع بعضها ؟

٢ — إلى أى حد يكون صراع القيم عميقاً ؟

٣ — ما هى الجماعات فى المجتمع التى تنحاز إلى مجموعة أو أخرى من القيم المتنافسة ؟وما مدى قوتها ؟

٤ — أى القيم تكون مشتقة من قيم أخرى أكبر مثل الديموقراطية والحرية .

٥ - ما هى التضحيات القيمة التى يتطلبها كل حل ؟

- هل هناك بعض المشاكل لا يمكن حلها فى الوقت الحاضر بسبب عدم ! ان إنهاء الصراعات القيمية؟

1 - Richard C. Fuller and Richard R. Myers, "The ... History of a Social Problem,' American Sociological ... Vol. 6 (June, 1941), pp. 320-328.

الفصل الثانى عشر

تطبيقات علم الاجتماع

ازدهر علم الاجتماع خلال الثلاثين سنة الماضية وامتد إلى آفاق جديدة وانعكس ذلك على النتائج التى يتوصل اليها وعلى كفاءة الأدوات التى يستخدمها فى البحث . ومن المعروف أن علم الاجتماع قد أصبح نظاما علميا معترفا به ومطلوبا فى كل أنحاء العالم اليوم . فمن المألوف أن يطلب المشتغلون بالطب والتربية والادارة والعمل السياسى والمثقفون بوجه عام رأى علم الاجتماع أو موقفه من بعض القضايا والمشكل التى تهم الانسان الحديث ، أو التى قد تعين على فهم أفضل وعلى مواجهة سريعة لما قد يعانيه الناس من صراعات أو توترات. بل إن الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة قد رأت من الضرورى للطلاب على مستوى الليسانس أو البكالوريوس أو الطلاب على مستوى الدراسات العليا أن يتعرفوا على علم الاجتماع ، لأن كثيرا من مبادئه وامكانيات تطبيقه على الشئون العملية أمر أصبح ضروريا لكل دارس تقريبا وفى هذا الصدد ونتيجة لهذا التوسع فإن علماء الاجتماع يشعرون اليوم بثقل المهمة الملقاه على كاهلهم لأنهم يدركون أنهم مطالبون بتقديم اجابات جاهزة عن التساؤلات والمشاكل التى تظهر فى الحياة اليومية ، كما أن الكثيرين يتوقعون أن يزودهم علم الاجتماع بالحكمة التى تجعلهم ينظرون إلى تعقيدات الحياة الحديثة نظرة أكثر صوابا ، تلك النظرة التى يتوقعون منها أن تعطيهم التبصر السليم وتزودهم بالحلول البديلة الممكنة وتساعدهم على اتخاذ القرار المناسب .

وهناك عدد من المسائل ترتبت على المكانة المرموقة التى يحتلها علم الاجتماع

فى المجتمع الحديث ، فقد ظهر واضحا وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار العلوم الاجتماعية الأخرى ، أن علم الاجتماع قد أصبح لديه من المعرفة ومن فنون البحث التى يمكن أن تطبق بشكل أو بآخر على فهم مشاكل المجتمع الحديث، الأمر الذى يخلق أمام علم الاجتماع فرصة ومشكلة فى نفس الوقت فقد تحول هذا العلم من مجرد نظام علمى صغير يدرس فى الكليات والمعاهد والجامعات إلى نظام علمى يقوم على البحث الواسع النطاق فى المجتمع تستعين به كل المؤسسات والمنظمات خارج نطاق المؤسسات العلمية ، ومن هذه الزاوية أصبح متصلا بطرق كثيرة بالمجتمع . وهذا يعنى أن فائدة علم الاجتماع التى أصبحت واضحة تماما خلقت عددا من المشاكل الجديدة والصعبة أمامه، فقد أصبحت له صلة تتزايد باستمرار بالمؤسسات وبناءات القوة فى المجتمع الحديث ، وهو موقف يظن معه البعض أنه يؤثر على قيم علماء الاجتماع أنفسهم ، وفى نفس الوقت سجل علم الاجتماع نموا ملحوظا وانتشارا نحو آفاق جديدة بعضها يمثل عودة إلى اهتمامات قديمة كانت قد هجرت، ويعاد اكتشافها من جديد ،ويظهر ذلك من الرغبة التى يبديها علماء الاجتماع الآن وبالحاح لتطوير علم المجتمع ، وهو ما أعاد إلى الأذهان الاهتمامات الأولى للرواد الأوائل حول المنهج والنظرية . ولكن ذلك يتم جنبا إلى جنب مع الاهتمامات الجوهرية بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل، ومثال ذلك ما يحاوله الآن الباحثون فى تطبيق علم الاجتماع باستخلاص أنسب الوسائل لمواجهة المشاكل الاجتماعية الكبرى ، والتى أصبح العمل فى ميدانها مؤديا إلى إضفاء حيوية كبيرة لهذا العلم . وهناك ميدان آخر تظهر الآن فيه دراسات كثيرة وهو دراسة المجتمعات النامية التى زودت علماء الاجتماع المحدثين بالتحليلات المقارنة لتجارب اجتماعية وثقافية مختلفة انعكست على القدرة المتزايدة التى تظهر الآن على الوصول إلى تعميمات أكثر دقة . إن هذا التطور الجديد فى

ميدان علم الاجتماع ق. يعنى عودة إلى الماكروسوسيولوجى Macro Sociology أو علم اجتماع الوحدات الكبرى . ذلك أن النظرة الضيقة التى انتشرت فى علم الاجتماع لسنين طويلة قد عوقته عن أن يسهم فى الفهم المتكامل لقضايا المجتمع ومشاكله وجعلته يتخلف عن المشاركة فى إثراء النظرة الكلية التى لابد منها لتحقيق أهداف التنمية الشاملة ومواجهة المشاكل الكبرى للمجتمع .

استخدامات علم الاجتماع

إن المجتمع الذى يتبين أن علم الاجتماع مفيد (عمليا) عليه أن يفعل شيئين : أولهما ، أن يتطلع إلى تعاون علم الاجتماع فى توفير المهارات والمعرفة اللازمة لحل المشاكل وتطوير البرامج الاجتماعية ، وأن يقدم ثانيا ، المصادر التى عن طريقها يستطيع علم الاجتماع أن يطبق معرفته وأن يسعى إلى معرفة جديدة ، ومعنى ذلك أن المجتمع يجب أن يخلق المناخ الملائم الذى ينمو منه علم الاجتماع مما يجعله مقبولا ومطلوبا من الصفوة الاجتماعية وصناع القرار ، وقد وصل علم الاجتماع بالفعل إلى هذا المركز فى بلاد كثيرة أوربية وأمريكية ، ويقترب من ذلك فى أغلب دول العالم النامى ، مما يمكن القول معه أنه أصبح معترفا به جماهيريا أكثر من أى وقت مضى ، ولقد وصل علم الاجتماع إلى هذا المستوى لأنه تبين أنه أصبح مفيدا بالفعل لرجال الإدارة ومن بيدهم إصدار القرار وخاصة عند محاولة فهم أو مواجهة المشاكل المعقدة فى المجتمعات الحضرية والتنظيمات الواسعة المدى وفى النظم التى تتغير بسرعة مثل نظام التربية ، وإذن يمكن أن نؤكد الآن أن هناك مجموعة من الاستخدامات التطبيقية لعلم الاجتماع جذبت اهتمام أقسام عديدة من المشتغلين بالسياسة العامة ، وبغض النظر عن ذلك فثمة فائدة عامة لعلم الاجتماع وخاصة فى المجتمعات المتقدمة وهى فائدته

الثقافية والفكرية تلك التى تتمثل فى المعلومات التى يطرحها من خلال دراساته وتعين على اتخاذ موقف معين أو منظور محدد وخاصة عند أولئك الذين يملكون مقدرة النقد أو الرؤية المستقبلية .

١ ـ الاستخدامات التطبيقية لعلم الاجتماع

يعتبر علم الاجتماع التطبيقى فرعا حديثا نوعا ما من علم الاجتماع ويتزايد الاهتمام بأبحاثه كلما تزايدت الرغبة فى المجتمع الانتفاع بالمعرفة العلمية بوجه عام وخاصة عندما يتساءل الناس «إذا لم يكن علم الاجتماع مفيدا فلأى شىء يهتم به الباحثون ؟» وجدير بالذكر أن كثيرا من علماء الاجتماع كانوا يصرون على الفصل بين ما هو تطبيقى وبين ما هو أساسى فى العلم كما هو الشأن فى العلوم الطبيعية ، وينحازون إلى أهمية البحوث الأساسية . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل البحث التطبيقى أقل احتراما من البحث الأساسى وخاصة فى الدوائر الأكاديمية .

إن الجيل الجديد من علماء الاجتماع فى كثير من بلاد العالم يجادلون الآن وبحماس حول ضرورة الاهتمام بالدراسات التى يمكن أن تندرج تحت علم الاجتماع التطبيقى ، ومصدر هذا الحماس هو ذلك الاهتمام المتجدد بكيفية تطوير علم الاجتماع ليقوم بوظيفة حيوية فى مختلف التنظيمات والمجتمعات ، ويقول فى هذا الصدد كل من ألفن جولدنر Alvin Gouldner وميلر Miller «أن الرسالة التاريخية للعلوم الاجتماعية هى أن تعاون البشر على أن يضعوا أيديهم أو أن يتملكوا المجتمع بالفعل »[1] ولقد أثار هذا الاهتمام بتطبيقات

---

1 - Alvin W. Gouldner and S M. Miller, eds 'Applied Sociology opportunities and problems (New York : Free press, 1965).

علم الاجتماع مناقشات عديدة بين الدارسين حول معنى البحث التطبيقى وأهميته (١) ، ولكن التمييز بين البحث الأساسى والتطبيقى ليس تمييزا حاسما فى علم الاجتماع ، ومثال ذلك أن البحث الذى يوجه لاكتشاف المشاكل والنتائج المترتبة على سياسة إسكانية متكاملة من أجل مشروعات الاسكان الشعبى لاشك أن له أهمية ملحوظة فى التطبيق . ولكن مثل هذا البحث من ناحية أخرى يسهم فى التوصل إلى معرفة جديدة عن المناطق المتخلفة وطأة التنظيمات الاسكانية على الصداقة والجوار وما إلى ذلك . وعلى ذلك قد لا ننظر إلى دراسة معينة على أنها إسهام فى علم الاجتماع التطبيقى ، الا أنها يمكن أن تصبح كذلك من خلال اهتمام عالم الاجتماع ، وخاصة عند انتقاله لبعض المسائل التى يرى أن لها أهمية فى تنظيم المجتمع أو مواجهة مشكلة قائمة بالفعل .

٢ - مستويات التحليل فى علم الاجتماع التطبيقى

إن النظرة المتدنية التى تلحق بالبحث التطبيقى تعتبر فى واقع الأمر انعكاسا للمستوى البسيط من التحليل الذى يظهر غالبا فى مثل هذه الأبحاث ، لكن البحث السطحى الذى يؤكد على جمع الحقائق أكثر من تأكيده على التحليل ليس صفة متضمنة بالضرورة فى البحث التطبيقى ، ذلك أن الخصائص العامة

---

١ - أثيرت هذه القضية فى عدد من الكتب العامة ، أنظر :
paul Lazarsfeld, Willam Sewell and Harold Wilensky, eds, The Uses of sociology (New York : Basic Books, 1967). وأيضا : Arthur B. shostak, ed , Sociology in Action : Case Studies in Social problems and Directed Social change (Homewood : The Dorsey press, 1966).

للبحث السوسيولوجى التطبيقى تكمن فى الاهتمام الدائم باكتشاف وتحديد الحقائق المتصلة اتصالا وثيقا بالمشكلة الاجتماعية ويعتبر ذلك وظيفة هامة للبحث لما نعرفه من أن هناك بعض الخرافات والأفكار الخاطئة حول جوانب عديدة من السلوك الإنسانى لابد من استبعادها من أجل وصف دقيق للغاية عن الفعل الذى يتم من خلال مضمون أى نظام اجتماعى ، وإذا اقتصر البحث التطبيقى من ناحية أخرى على مجرد جمع الحقائق مهما كان الجمع دقيقا ،فإن تفسير أو استخدام هذه الحقائق سوف يترك لاولئك الذين لهم مصلحة فى البحث أو الذين مولوه ويمكن أن يتعرض التفسير حينئذ إلى الالتواء وفقا لأهوائهم وأهدافهم ،وربما كان هذا الموقف هو الذى قلل من احترام مايسمى بالبحث التطبيقى . وهناك أنواع عديدة من البحث التطبيقى نبرز منها ما يلى :

١ - بحوث تقييم الأداء :

وهى البحوث التى تعتمد على جمع الحقائق بطريقة متقنة ولكن بأسلوب يمكن من تقييم كفاءة الأداء ،أى تقييم مدى كفاءة الفعل فى الوصول إلى الأهداف ومثال ذلك أن كثيرا من البرامج الجديدة تهدف إلى إحداث تغييرات فى الظروف المؤدية إلى عدم كفاءة الأساليب التربوية أو إلى استمرار حالة الفقر ، ويكون من مهمة البحث فى هذه الحالة تقييم البرنامج نفسه، وهذا يعنى من ناحية أخرى أن الدراسة تنظم بشكل هادف لتحديد موضوعات البرنامج (الفقراء والأطفال المتأخرين فى المدارس) ومن يديرون البرنامج فى نفس الوقت . و يلاحظ أن بحثا من هذا النوع يتطلع إلى مستوى أعلى فى التحليل أكثر من مجرد جمع الحقائق لأن علماء الاجتماع الذين يقومون بالدراسة عليهم أن يفسروا الحقائق وأن يصدروا الأحكام حول أهداف البرنامج التى ينظر اليها كمعايير أو كمستويات

لاصدار هذه الأحكام . هذا فى الوقت الذى يكون عليهم أن يقوموا بعملهم من خلال علاقة جديدة تماما مع الذين ينفذون البرنامج وهى علاقة حساسة لأن عليهم أن يقيموا مدى نجاح أو فشل هـــذا البرنامج ، وهو أمر يهتم له المنفذون اهتماما شخصيا عميقا ، الا أن الباحثين من ناحية أخرى يحتاجون إلى التعاون الفعال مع نفس هؤلاء المنفذين من أجل تنفيذ مهمتهم بطريقة فعالة .

ب ـ إعادة تحليل الأهداف الاجتماعية

يهدف البحث التقييمى إلى تقييم فعالية برنامج فى ضوء أهـدافه ، ويعتبر التقييم فى هذه الحالة أحد العمليات التى ينبغى تطويرها للتوصل إلى هذه الأهداف ولـكن الهدف فى حد ذاته ، أى هدف البرنامج ، لا يمكن أن يكون محل مناقشة ، ومع ذلك فهناك مستوى آخر من التحليل تكون فيه الأهـداف الاجتماعية أو السياسات ذاتها محـــل الفحص والتحليل النقدى ، وعندما يتم ذلك فإن البحث التطبيقى يتحول من كونه نموذجا هندسيا إلى نمـوذج اكلينيكى ، ويلاحظ أنه عندما يتساءل علماء الاجتماع التطبيقيون عن مدى كفاءة أو مشروعية الأهداف الاجتماعية ، فإنهم يتعرضون من هذه الزاوية لنقد الأسس أو الدعاوى التى تقوم عليها السياسة الاجتماعية .

وهكذا نتبين مدى اتساع أبعاد البحث الاجتماعى التطبيقى الذى يشتمل على جمـع الحقائق الأساسية إلى جانب تقييم الانجازات النظامية ، وتنفيذ البرامج وتقدير مدى فائدة وفعالية الأهداف الإجتماعية ، وإخضاع الدعاوى التى تقوم عليها السياسة الاجتماعية بوجه عام للمناقشة . إن هذه المستويات المختلفة للتحليل تقرب البحث التطبيقى أكثر من القرارات التى تتخذ حول الأهداف والسياسات الأمر الذى يؤدى إلى أن تصبح القيم والمعايير من حيث الدراسة والتقييم أقرب ما تكون إلى العمل الذى يقوم به العالم الاجتماعى .

لقد ظهر بوضوح من خلال العرض السابق أن هناك تفاعلا ضروريا بين البحوث الأساسية التى يجريها علم الاجتماع من أجل إثراء المعرفة والفهم المتطور للمجتمع والحياة الاجتماعية ، وبين البحوث التطبيقية التى تعالج قضايا أو مشاكل واقعية سواء على مستوى تقييمها أو كفاءة البرامج المحددة لمواجهتها أو حتى مناقشة سلامة الأهداف أو السياسات الاجتماعية العامة ، ولعل هذا التفاعل هو الذى وسع من استخدامات علم الاجتماع فى ميادين المهن كالطب والتمريض والخدمة الاجتماعية وربما يكون استخدام علم الاجتماع فى هذه المجالات أمرا عاديا نظرا لأن كثيرا من المسائل المتعلقة بالطب والتمريض والرعاية الاجتماعية قد عولجت بصورة ما من خلال كتابات علماء الاجتماع المهتمين بالحياة الحضرية أو الصناعة أو العمل أو النشاط الاقتصادى ، إلا أن هناك ميادين أخرى كان استخدام علم الاجتماع فيها أمرا جديدا نسبيا فتح المجال أمام النتائج الايجابية التى يتوقع الحصول عليها من استخدام طريقة علم الاجتماع فى الفهم والدراسة والتحليل ، مثـــل الإدارة والمنظمات العسكرية وأساليب تنفيذ القانون وديناميات العمل فى الاحزاب السياسية ، والتخطيط لرفع مستوى المعيشة ، ومقاومة الانحراف ، ومعالجة مسائل البطالة ، وتدريب القوى العاملة . والصحة العامة ، ورعاية المسنين .

غير أن أهم استخدام لعلم الاجتماع على الإطلاق كان فى تحول كثير من الدارسين فى السنين الأخيرة إلى دراسة المناطق النامية وخاصة فى العالم الثالث حتى أصبح من المألوف أن تصدر دراسات تحمل عنوان « اجتماعيات التنمية » أو « القضايا الاجتماعية للتنمية » أو حتى « علم اجتماع التنمية » ويذهب كثير من الباحثين إلى القول بأن هذا النوع من الدراسة الجديدة هو الذى يجمع بشكل مفيد بين الأبحاث الأساسية والأبحاث التطبيقية ، ومن الملائم هنا أن نضرب

ثلاثة أمثلة على تطبيقات علم الاجتماع واستخدام حقائقه المستقاه من أبحاثه الأساسية على النحو التالي :

أولا : استخدام علم الاجتماع في المناطق النامية

يرجع نمو الاهتمام بدراسة المناطق النامية وإلى حد ملحوظ إلى مسيرة الأحداث أكثر من رجوعه إلى تطور العمل السوسيولوجي . ومع ذلك فإن موضوع المناطق النامية يجذب اهتمام الكثيرين الآن . ففي المحل الأول هناك أسباب علمية تكمن في انتهاز الفرصة المتاحة للتوصل إلى دراسات مقارنة على مستوى لم يتح من قبل ، وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بالتوصل إلى تحـــديد الخصائص المشتركة التي تميز العملية التنموية وتحديد الاختلافات التي تعتمد على المفارقات التي ينطوي عليها الزمن والمكان ، ومن المألوف أن يقال الآن أن المناطق النامية تسمى « معامل التغير الاجتماعي » . الا أنه يمكن القول أيضا أن المناطق النامية بغض النظر عن أي اعتبار آخر ، أصبحت محـــل اهتمام لأسباب علمية وعملية معا . ولست أريد أن أدخل في تفاصيل عن هذا الموضوع وخاصة من الناحية النظرية ، الا أنه من الضروري هنا أن ألقى بعض الأضواء على بعض الموضوعات التي أثارتها الدراسات المهتمة بالمناطق النامية مثل :

أ - تغير القيم في وجه التغير الاجتماعي السريع ، وما يمكن أن يؤدي إليه من صراعات بين البناءات التقليدية والبناءات الحديثة للمجتمع وكيفية إنهاء هذه الصراعات حتى يمكن تحقيق أسرع معدل في التنمية .

ب - تنمية المجتمع المحلي أو اللجوء إلى التنمية الاجتماعية الشاملة وهو أمر ينطوي على جدل كبير وخاصة إذا ظلت أقسام كبيرة من السكان تعيش في قرى تقليدية وتعمل بالزراعة ، ويتأخر تحديثها أو تحويلها إلى النموذج الحضري .

حـ - المسائل المتعلقة بالصحة العامة والخصوبة وضبط النسل وما يتصل بها من التربية الصحية والصحة الوقائية من أجل التغلب على سوء التغذية أو مقاومة الأوبئة والأمراض أو تحديد النمو السكانى بما يتلاءم مع الطاقات المتزايدة للانتاج .

د - حجم التكنولوجيا الملائم ونوعه الذى يمكن أن يدخل هذه المجتمعات النامية بصورة لايحدث معها تخلف أو سوء استخدام مما يثقل كاهل الاقتصاد الوطنى فى الوقت الذى كان من الممكن توجيه الاستثمارات اتجاهات أخرى أكثر فائدة فى مرحلة تاريخية معينة .

هـ - المسائل المتعلقة بالرعاية الاجتماعية والاسكان وعلاقتها بالتنظيم الاقتصادى فى المجتمع خاصة إذ كان التخطيط يقوم على تصور مركزى شامل أو على تصور أقليمى محدود .

و - مستوى التغير المطلوب ومدى سرعته ، وهذا أمر يتصل بأسلوب من يصنعون السياسة أو يتخذون القرار فى المجتمعات النامية ، حتى يمكن تجنب الهزات التى يحتمل أن يتعرض لها المجتمع نتيجة الأخذ بسياسات تفوق قدرة الواقع على استيعاب التجديد .

ثانيا : استخدام علم الاجتماع فى المجالات التربوية

من العلامات البارزة فى هذا القرن نمو ذلك النسيج المعقد والمذهل المسمى بالتربية Education ، والذى أصبح يتداخل مع النظم الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية بطرق كان لايمكن التفكير فيها منذ سنوات قليلة ماضية ولقد كان التعليم أو التربية منذ فترة ليست بعيدة مجرد وسيلة للحصول على القدر الضرورى من الثقافة وبعض المهارات البسيطة ، أما الآن فإن ظـــروف العصر جعلته

متشعبا للغاية ، مع اتجاهه نحو التخصص الدقيق فى شتى مجالات العلوم المختلفة .

ويركز المهتمون بالتربية فى المجتمع الحديث على علاقـــة التربية بالبيئة وعمليات التأثير المتبادل بينهما ، وقد كانت معظم الدراسات التربوية تركز على الاثنى عشر سنه الأولى للتربية ، حيث أن التعليم العـــالى لم يظهر الا منـذ فترة وجيزة .

أ ـ وظائف التربية

يقوم التعليم بوظيفة هامة وحيوية من أجـــل بقاء المجتمع واستمراره وذلك نتيجة المحافظة على بعض المعتقدات والمهارات التى لاتورث ولـكنها تكتسب عن طريق التعليم ، الذى يعاون فى تشكيل شخصيات الأفراد بحيث تتلاءم مع الثقافة السائدة . ويسهم بذلك فى تكامل المجتمع عن طريق مساعدة الفرد فى التوافق مع بيئته.

ألا أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا عند دراسة وظائف التربية إختلاف المجتمعات التى تعمل فيها ، فقد تكون بدائية أو نامية أو صناعية حيث أن وظيفة التربية تختلف من مجتمع لآخر كل تبعا لظروفه وتاريخه وبنائه الخاص. فالتربية لاتشكل مشكلة فى المجتمع البدائى إذ أن محتوى التربية متضمن فى الثقافة ذاتها التى تنقل عبر الأجيال بصورة آلية تلقائية كما أن التخصص يكاد معدوما ومستوى التعليم واحد بالنسبة لجميع . أما التربية فى المجتمعات التكنولوجية فهى مسألة معقدة للغاية ، حيث أن الميراث الاجتماعى فيها معقد ومتغير ، والتعليم لاينتهى عند فترة معينة بل يستمر فى حياة الشخص البالغ عن طريق التنظيمات التربوية المتخصصة، ويظهر التعليم العالى فى هذه المجتمعات بشكل واسع هادفا إلى إعـداد المتخصصين فى المجالات العلمية والاجتماعية المختلفة . والنتيجة التى نتوصل اليهما

هنا أنه لا يمكن فهم طبيعة أى مجتمع دون الرجوع إلى نظام التربية فيه .

أما إذا صنفنا المجتمعات تبعا لنوع الثقافة التى يندرج تحتها نسقها فى الانتاج وهو تصنيف يتدرج من البدائى إلى الزراعى إلى المجتمعات الصناعية ، فسوف يتضح لنا مدى التعقيد والتباين فى المجتمعات الأخيرة . ففى القبيلة البدائية التى تعتمد على الصيد والزراعة نجد أن التعليم منظم اجتماعيا من خلال انساق القرابة ومستويات السن والنوع . وفى حالة حدوث أى تجديد يكون ذلك بمحض الصدفة وليس متعمدا . فالحياة الثقافية فى مثل تلك المجتمعات تكون تكرارا لدائرة الأجيال . وعلى النقيض من هذا نجد المجتمع الصناعى المتقدم الذى يتميز بمصادرة الواسعة القائمة على التغير الثقافى الموجه ، خاصة فى مجالات تطبيق العلم على العمليات الانتاجية .

ومن استعراض الانساق السابقة للمجتمعات يتبين لنا أن النسق التربوى أصبح يتغير بصفة مستمرة ليجارى الأحداث فى المجتمع ، كما أن البحث العلمى أصبح وظيفة متزايدة الأهمية للتعليم العالى ، وأصبح التغير الثقافى هو القاعدة وليس الثبات . وهناك ملاحظة هامة وهى أن المجتمعات النامية الآخذة بأساليب التكنولوجيا الحديثة تعانى من التعارض بين ثقافتها التقليدية والثقافة الحديثة المستوردة ، ولذلك تبذل هـــذه المجتمعات جهودا ملحوظة لتوجيه وتغيير أنساقها التربوية من أجل استيعاب الثقافة الجديدة المستعارة من المجتمعات الغربية .

ب ـ التربية وتشكيل الشخصية الاجتماعية :

تغيرت وظيفة الانسان التربوية المعاصرة من تنشئة عامة وواحدة بالنسبة للجميع كما كان يحدث فى المجتمع البدائى ، إلى الانتقاء والتدريب على المهـــن

التخصصية المختلفة فى المجتمع الصناعى الحديث . وتشغل الهيئات الرسمية فى الوقت الحاضر موقفا استراتيجيا هاما فى التنشئة الاجتماعية ، لأنها حلت محل الأسرة والأقارب وجماعة اللعب والطبقة فى تلقين التعليم للصغار ، وأصبح التعليم فى مراحلة الأولى ضرورة للقاعدة العريضة من الأشخاص يليه التعليم الثانوى والجامعى من أجل إعداد الأفراد لنوعيات مختلفة من المهن التخصصية فى الاقتصاد المتقدم .

وترجع أهمية النظم التربوية فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، إلى أن التربية هناك تهتم اهتماما بالغا بإعطاء الأشخاص الأدوار المناسبة لهم ، فالتربية تهدف أساسا إلى استثمار المقدرة الانتاجية للانسان ، التى تؤدى بدورها إلى تمكينه من احتلال مركز وظيفى معين فى المجتمع ، وهكذا تسهم التربية فى عملية التكامل الاجتماعى عن طريق تنشئة الأشخاص وفقا لنسق القيم العام فى المجتمع وتبعا للبناء المتغير للادوار التخصصية .

وجدير بالذكر أن الدول النامية تضع تخطيطا وشرحا مفصلين للعلاقة بين التربية والتكامل الاجتماعى فى ظل ظروف التغير الاجتماعى السريع ، حيث أن معظم هذه الدول تتميز باحتفاظها بثقافتها وبنائها الاجتماعى التقليدى. وتشكل الصفوة المثقفة فى هذه المجتمعات أساس التطلعات نحو إقامة مجتمع صناعى حضرى إلاأن القيم التقليدية للثقافة المحلية غالبا ما تحول دون ذلك. والطبقات المثقفة فى هذه المجتمعات متميزة وصغيرة العدد ولاتتشابه مع غالبية أعضاء المجتمع الذين هم فى العادة ريفيين وأميين وفقراء وبالتالى تختلف نظرتهم إلى الحياة وطرق المعيشة .

وتحت هذه الظروف المتباينة تعترض التكامل الثقافى والاقتصادى والسياسى

مشاكل عديدة ، فقد بينت الابحاث أن الديموقراطية ترتبط ارتباطا وثيقا بمستوى النمو الاقتصادى للمجتمع كما يرتبط نمو التربية وفعاليتها بالسياسات الديموقراطية . ولهذا كان خضوع معظم الدول الأفريقية النامية لحكــومات عسكرية أو ديكتاتورية معوقا أمام بلوغ التربية أهدافها . ومن المعروف أن نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فى بعض هذه المجتمعات لاتزيد عن ١٠ أو ١٥ ٪ من مجموع السكان .

هـ ـ التربية والتكامل الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية :

ترتبط التربية بالتكامل الاجتماعى من خلال توجيه المناهج والمقررات المدرسية لتشكيل الشخصيات الاجتماعية بصورة تتلاءم مع متطلبات البنـاء الاجتماعى . وبهذا المعنى تكون أهداف التربية مقررة من قبل . ونستطيع أن نقدم مثالا على ذلك من الاتحاد السوفيتى ، حيث كان التعليم فى باديء الأمر أداة سياسية لبناء المجتمع الاشتراكى وذلك عن طريق اسهام التعليم فى تشكيل النظرة المادية للعالم بالنسبة للطلاب ، وامدادهم بأسس مناسبة فى مختلف مجالات المعرفة وإعدادهم للقيام بأعمال اجتماعية عديدة . وهكذا يكون للأهداف الواضحة دورا بارزا فى تشكيل الشخصيات الاجتماعية . إلا أن التنظيم المدرسى يتضمن إلى جانب وظيفته الظاهرة وظيفة أخرى كامنة ، وهى التى يتناولها التحليل السوسيولوجى بالبحث وهنا يرى كثير من علماء الاجتماع أن المدرسة تقوم بوظيفتين هما : التنشئة الاجتماعية والاختيار . حيث أصبح النسق الاختيارى للتعليم يرتكز على تكافؤ الفرص ونبذ فكرة الطبقة فى التعليم ، وهـذا يـؤكد أهمية الاختيار فى تنشئة الفرد وتطويره . ويؤكد هؤلاء العلماء على الأهمية المتزايدة لعمليات الاختيار ، وارتفاع مستويات التعليم فى كل جيل جديد، وهو

أمر سيؤدى بالضرورة الى التقارب بين الاجيال وليس الى الصراع كما يدعى الكثيرون .

التعليم العالى فى المجتمعات الصناعية :

أصبحت الجامعات تحتل مكانة خاصة فى عالم اليوم حيث تشهد الى قيام علاقة من نوع جديد بين التعليم العالى ومتطلبات المجتمع الصناعى الحديث . ومن هنا أصبح التعليم العالى جزءا رئيسيا من رغبات وأمنيات الناس من أجل مستقبل أفضل وهدفا جوهريا فى خطط الدولة القومية من أجل النمو الاقتصادى . ولما كانت العلاقة بين التعليم والمجتمع هى التى تحدد اليوم وظائف الجامعة الحديثة فقد أصبح التعليم مركز التجديد الثقافى، ولم تعد الجامعة تقتصر على عدد محدود منعزل من الأساتذة والطلاب ، بل أصبحت الآن مليئة بالأقسام المتخصصة والمعامل ومراكز البحث .

هذا وترتبط الجامعة فى الوقت الحاضر وبشكل واضح بالاقتصاد فى أى مجتمع صناعى من خلال سوق القوة البشرية الحرفية ومن خلال الأنشطة البحثية فى العلوم التطبيقية وقد ظهرت علاقة جديدة يمكن ادراكها بين الجامعة كبناء متكامل وبين المجتمع الصناعى وذلك عند تطبيق نظريات العلم على العمليات الصناعية التى تمخضت عنها الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، مما أدى الى تطورات متتالية للمهن التكنولوجية فى مجال الزراعة والكيمياء وصناعة استخراج المعادن والهندسة الميكانيكية والكهربية وماشابه ذلك ، وأصبحت هذه الوظائف الجديدة التى يشغلها المتخصصون تشير الى مرحلة جديدة فى تطور وسائل الانتاج وهذا أدى الى أن أصبح الشخص الحاصل على درجة عالية من التعليم ، والأساس الذى يقوم عليه المجتمع الحديث .

ثالثا : دور علم الاجتماع فى المجالات الطبية

ليس هناك شك فى وجود بعض العوامل الثقافية والايديولوجية التى تؤكد على ضرورة الاستعانة بعلم الاجتماع فى المجالات الطبية ، ذلك أنه يقدم معلومات متنوعة تتعلق بالبناء الاجتماعى للمجتمع والعلاقات التفاعلية المتباينة بين أعضائه وجماعاته والنظم الاجتماعية المختلفة وارتباطها ببعضها ، والتدرج الطبقى فى المجتمع وأسبابه وعلاقة الفرد بالمجتمع والعوامل المؤثرة فى الشخصية الإنسانية ، كل هذا يتيح للعاملين فى المجالات الطبية فرصة أفضل لتطبيق العلاج بصورة سليمة ومناسبة ، وخاصة حين يتعرضون أثناء ممارستهم لأعمالهم لنوعيات متباينة من الأشخاص يحتاج كل منهم لرعاية من نوع خاص تختلف عن الآخرين ، ولهذا فإن دراسة علم الاجتماع بالنسبة للعاملين فى المجالات الطبية تعتبر شيئاً ضروريا وأساسيا ، نظرا لأنهم يتعاملون مع المرضى على أساس إنسانى فى المحل الأول ولذلك تصبح دراسة علم الاجتماع مفيدة فى مجالات طبية عديدة مثل الوقاية وتشخيص المرض ، وفى العلاج والتأهيل ، فضلا عن أنها تقدم نماذج أفضل للتفاعل من المرضى والقائمين على العلاج بما يساعد على سرعة الشفاء ، وتعين على تحديد مواقع المؤسسات العلاجية ورسم برامج المجتمع المحلى الصحية ، وتطوير البرامج الطبية وغيرها .

أ – الاسهامات السوسيولوجية فى الوقاية وتشخيص الأمراض

تؤكد البحوث الوبائية بصفة أساسية على أهمية العوامل الاجتماعية المرتبطة بانتشار الأمراض ، فقد تبين من الدراسات الوقائية وجود علاقة وثيقة بين المستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى وبين مخاطر التعرض للمرض . وقد أفادت هذه الدراسات فى نجاح محاولة إيجاد وسائل مناسبة لتقديم خدمات

صحية عديدة للمناطق المحرومة منها بصورة تتناسب مع مستواها .

وقد يتساءل البعض عن نوعية العلاقات القائمة بين العوامل الاجتماعية والمرض الوبائى ، ونود أن نشير هنا إلى أنها تظهر فى ثلاث مراحل (١) ارجاع العدوى بالمرض إلى الخصائص الطبيعية المتميزة التى تحيط بالطبقة الاجتماعية مثل التغذية والاسكان الخ ... (٢) ادراك الاختلافات النفسية الاجتماعية psychosocial التى تنشأ بين البيئات المختلفة تبعا لإختلاف ظروف كل منها (٣) كشف العلاقة العكسية بين الطبقة الاجتماعية ومعدلات المرض والتى يمكن تداركها فى ضوء الاختلافات الثقافية فى اتجاهات الأفراد نحو الرعاية الطبية[1]. إن كل تفسير من التفسيرات السابقة يكشف استراتيجية مختلفة لخفض معدلات الاصابة بالمرض . ومحاولة خلق اتجاهات ثقافية إيجابية نحو الرعاية الصحية تكون أكثر صعوبة من إقامة المساكن أو بناء العيادات . فالناس ينشأون وفى عقولهم أفكار معينة تعلموها من بيئتهم الاجتماعية ، وبالتالى فإنه من الصعوبة بمكان اقتلاع الأفكار الخاطئة بسهولة . وقد أظهرت نتائج الابحاث فى هذا المجال أن تحديد العلاقة بين الثقافة والاتجاهات نحو الرعاية الطبية يمكن أن يؤدى إلى اكتشاف أساليب تنفذ عن طريقها وسائل الرعاية الصحية لكى تزيد من فعاليتها وتأثيراتها فى الجماعات التى كانت تتجنبها من قبل .

وهناك كثير من الدلائل تؤكد على أهمية المنظور السوسيولوجى فى توجيه التشخيص الطبى ، من منطلق أن معاناة المريض من الألم تعتبر مفتاح التشخيص ، فقد تبين من دراسة أجراها زوروسكى Zborowski أن الذكور الأمريكيين

---

1 — John M. Ellis, 'Socio-Economic Differentials in Mortality from Cronic Diseases' p. 36.

الذين ينتمون إلى أصل إيطالى يعلنون عن آلامهم أكثر من الأمريكيين الاصليين فى المستشفى ويتجنبون ذلك عندما يكونون مع أهليهم ويشير هذا السلوك الى أنهم يخجلون من إظهار آلامهم أمام أفراد أسرهم ، لأن هذا يتعارض مع دورهم فى الأسرة كذكور بالغين وهكذا فإنه عن طريق معرفة الإعتبارات الثقافية يمكن تجنب كثير من الأخطاء فى تشخيص المرض .

ب ـ الاسهامات السوسيولوجية فى العلاج والتأهيل :

تساعد الدراسات السوسيولوجية إلى حد كبير فى التوصل إلى تقبل المرضى للعلاج الطبى المقدم لهم . فقد تبين من إحدى الدراسات التجريبية وجود ترابط إيجابى بين المضمون الذى يشرح الطبيب من خلاله للمريض حالته المرضية ، وبين الدرجة التى يتقبل بها المريض العلاج الموصوف له (١) .

ومن ناحية أخرى تسهم دراسة علم الاجتماع فى عمليات العلاج النفسانى ، فهى تتيح لمن يقوم بالعلاج النفسى أن يكتشف تأثير عدد من الانساق الاجتماعية المختلفة ، التى قد يكون المريض منتميا إلى إحداها وبالتالى ينجح فى اختيار الوسيلة المناسبة للعلاج التى تتلاءم مع احتياجات المريض (٢) .

وعموما فإن العاملين فى المجالات الطبية الذين يكون لديهم دراية بأبعاد التحليل البنائى ـ الوظيفى كما يطبق على أنساق المعتقدات والسلوك يصبحون أكثر مقدرة على رعاية مرضاهم . وهذا النمط من المعرفة ينبه الممارس الطبى إلى

1 – Mark Zborowski, 'Cultural Components in Responses to Pain' in jaco (ed) patients physicians and Illness, pp. 256-268

2 – Lois pratt and Others 'phisicians: Views on level of the Medical Information among patients', American journal of public Health (October, 1957) pp. 1282-1283.

أن المواقف التى قد تكون مرفوضة تماما من وجهة النظر الطبية يمكن أن تكون وظيفية وفعالة من وجهة نظر المريض . ومثال ذلك أن مرضى المستشفيات يميلون بشدة لزيارات الأقارب والأصدقاء لهم . وهذا الاتجاه يهدد إلى حد كبير من سلامة سير العلاج (من وجهة نظر القائمين على العلاج) وبالنظر إلى الدور الرئيسى الذى يلعبه البنساء القرابى فى إشباع الاحتياجات العاطفية ، فإن تحريم الزيارات يمكن أن يكون له مضاعفات نفسية خطيرة على كل من المريض وأقاربه .

هذا وتقدم مارجريت ميد Margaret Mead دليلا قويا عن حاجة المهن الطبية إلى اعادة النظر فى مخططاتها حتى لا تتعرض إلى الخلل الوظيفى الذى يمكن أن يلحق بالنظام الطبى بأكله حين تقول إن الأطباء لا يرون فى ولادة الطفل حدثا طبيعيا له دلالته العظيمة بل يعتبرونه مرضا ، وبالتالى يضعون الأم فى المستشفى ، حيث تحظى بالرعاية التى يحظى بها المرضى ، ويبثون فيها الضعف والإعتماد على الآخرين باستخدام الأدوية المختلفة والحقن ، كما يتم عزلها عن زوجها وأطفالها الآخرين كما نعزل المرضى والمشرفين على الموت . واتباعا للمبادىء التى ترى أن أكثر العناصر أهمية فى الرعاية التمريضية هى الهدوء والسكون والوقاية من العدوى . فإنهم يعزلون الطفل المولود عن أمه ، ويتركون الأب والأخوة والأخوات ينظرون اليه من خلال نافذة زجاجية . وهكذا تصنف الولادة فى عداد الأمراض .

إن تحليل آراء ميد يكشف أن بعض أشكال العلاج الطبى لا يجب أن يكون تطبيقا للمعرفة العلمية المتخصصة فقط ، ولكنها يجب أن تنطوى على

مزج بين كل من معطيات الطب والثقافة التى يكون لها تأثيرها الواضح على المهن الطبية ، ويحاول الطب فى الوقت الحالى اصلاح مساره ببعض الممارسات الجديدة مثل نظام ترك الطفل المولود بجوار والدته Rooming - in والسماح للاب بحضور عملية الولادة . وهذا يؤكد أن الخبرة السوسيولوجية يمكن أن تؤدى إلى إتمام العمل بصورة أفضل وذلك من خلال تأكيدها على ضرورة إدراك مدى تأثير الوسط الثقافى على السلوك.

ويستطيع علم الاجتماع أن يسهم فى علاج المرض عن طريق توفير الوثائق والمعلومات وتحديد الاستجابات الصحيحة للموقف وخاصة عندما يبحث الأشخاص عن العلاج من مصادر غير طبية . ومثال ذلك ، أنه من المعروف أن الكثيرين فى المجتمع المصرى يلجأون إلى أشياء بعيدة عن العلم والطب تماما فى علاج أمراضهم مثل إقامة حفلات « الزار » لعلاج الأمراض النفسية اعتقادا منهم أنها تطـــرد الشياطين التى تسكن أجساد الانسان وتسبب له المتاعب والهواجس ، كذلك اللجوء إلى تقديم القرابين أو لبس الاحجبة أو زيارة المشايخ والأولياء كوسائل لعلاج الأمراض المختلفة ، وينتشر أيضا استعمال الوصفات البلدية التى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى استفحال المرض . وقد بينت بعض الدراسات الحديثة إلى أن الاستعانة برجال الدين فى علاج الأمراض النفسية يكون له أثر ايجابى حيث أن زيارتهم للشخص المريض يكون وقعها أكبر من زيارة الطبيب النفسى سواء بالنسبة للمريض أو للمجتمع ككل ، حيث مازال الناس يخجلون من أمراضهم النفسية ويحاولون اخفاءها بشتى الطرق . وقد بينت إحدى الدراسات فى هذا المجال أن الأشخاص المصابين بأمراض نفسية والذين ينتمون إلى أسر من الطبقات الدنيا لديهم قابلية لتقبل العلاج أكثر من الذين ينتمون إلى أسر من الطبقات المتوسطة . حيث يخشى هؤلاء من

تأثر علاقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والمهنية إذا عرف الناس حقيقة أمراضهم النفسية بينما لا يهتم أفراد الطبقات الدنيا بمثل هذه الأمور .

ويمكن لعلم الاجتماع أن يسهم أيضا بصورة فعاله فى إعادة التأهيل أو الاصلاح حيث أن معرفة الظروف البيئية النفسية والاجتماعية للمريض تساعد إلى حد كبير فى تلافى كثير من المضاعفات فى وقت مبكر . والتطبيق الحقيقى أو الواقعى لعلم الاجتماع فى عملية إعادة التأهيل يكون أكثر ملاءمة فى المستشفيات العقلية ، حيث أن الظروف الاجتماعية والبيئة كثيرا ما تساعد على تفاقم كثير من هذه الأمراض ، ولهذا فإن معرفة هذه الظروف تساعد إلى حد كبير فى علاج المرضى وشفائهم . وقد تبين من ملاحظة المرضى وأقاربهم فى حالة تفاعلهم أثناء الزيارة أهمية التفكير الايجابى عن دور الأقارب فى العلاج، والعمل على تطويل ساعات الزيارة .

وقد كانت الإجراءات النموذجية للطب النفسى psychiatry تؤكد على العلاج المركز من الطبيب النفسى ، وذلك من أجل إحداث تغيرات فى قيم وشخصية المريض حتى يتمكن من التوافق مع المجتمع ، ولكن نظرا للنقص الشديد فى الأطباء النفسيين وخاصة فى المجتمع المصرى ، فقد أدى هذا الوضع الى محاولة البحث عن أساليب أو طرق بديلة للعلاج . وأحد هذه البدائل ما يسمى بالعلاج الاجتماعى Social Treatment وهذا الاسلوب يتضمن تطبيقا لاحدى نظريات علم الإجتماع الاساسية التى تشير الى أن القيم والشخصية تتأثران بجميع أنواع التفاعل الاجتماعى التى تتاح للفرد وليس فقط بالاتصال أو التفاعل مع الاطباء النفسيين . والخطة تقوم على استخدام الاحتكاك اليومى بين المرضى وبين بقية أعضاء الهيئة فى المستشفى (وخاصة

هيئة التمريض) سواء كانوا متخصصين أو نصف متخصصين لإحداث التغيرات المرغوبة فى اتجاهات المرضى وسلوكهم [1] .

وقد عرض كل من كامينج وكلانندى Cumming and Clanancy كيفية تحقيق « الشفاء الاجتماعى » فى احدى المستشفيات العقلية وكيف أن هذه الطريقة مستمدة من أصول علم الاجتماع [2] . إلا أن المحاولات المبكرة لتحقيق مثل هذه الظروف فى العلاج لاقت فشلا واضحا لأن أسلوب الرعاية السائد فى تلك المستشفى لم يكن كافيا لاحداث التأثيرات المطلوبة . وبالتالى أصبح تغيير البناء الاجتماعى للمستشفى أمرا ضروريا للتوصل إلى هيئة على مستوى عال ، عن طريقها يمكن تحقيق الفلسفة العلاجية . ولعل السبب فى فشل التجربة فى المرة الأولى يرجع الى إختيار أعضاء هيئة التمريض Nursing staff من طبقات عامية أو فقيرة ، مما أثر فى فهمهم وبالتالى فى مقدرتهم على تطبيق العلاج الاجتماعى .

ولتجنب هذه الأخطاء وإحداث التغيرات المطلوبة ، تمت الاستعانة بالاعتبارات السوسيولوجيه التالية : لابد أن يكون الترتيب أو التنظيم التنفيذى لهيئة التمريض مقسما بحيث يشتمل على قادة أكثر خبرة من الناحية العلاجية ، وهكذا يمكن زيادة مقدار التفاعل الاجتماعى الذى يمارسونه مع النسق الأدنى فى نفس الهيئة مما يرفع من كفاءة وفاعلية هؤلاء بمرور الوقت ، وهذا يؤدى

---

1 — Green blatt et al 'Improing patient Care Through Organizational Changes in the Mental Hospital' psychiatry XIX (August, 1958), pp. 249-261.

2 — Ibid.

إلى زيادة التكامل الاجتماعي ، ومعنى هذا أن التسلسل الرئاسي في المستشفى وتعدد التخصصات لا بد أن يكون بشكل يمنح فرصة مناسبة للتفاعل مع أشخاص عديدين (١) .

حـ - دور علم الاجتماع في تدعيم التفاعل بين الهيئة الطبية والمرضى

يستطيع التدريب السوسيولوجي ، الرسمي أو غير الرسمي ، أن يؤثر في توجيه الوظائف الطبية بطرق عديدة وخاصة من حيث تحسين نوعية التفاعل مع المرضى . ويبدأ التدريب بالتعلم ولهذا يجب أن ينظر إلى السلوك الانساني علمياً لإبراز النواحي العقلية للمريض بدلا من الاكتفاء بردود الفعل العاطفية . وفي إحدى المحاضرات التي ألقاها أحد أساتذة الاجتماع على طالبات التمريض قال إذا (رأت الممرضة) امرأة ، تدمن المخدرات ، كعادة إجتماعية سيئة تعلمتها من بيئتها الاجتماعية ، أو فلاحا ، يبصق ، على الارض ، ووجدت في هذا شيئا يثير الاشمئزاز ، أو لاحظت حشود الاقارب الذين يزورون المرضى باعتباره شيئا ، مزعجا ، أو المريض الذي تم تأهيله ولا يرغب في العودة إلى العمل نظرا ، لكسله ، . فإن الأحكام القبلية يمكن أن تقف حائلا بينها وبين مقدرتها على تقديم الرعاية البناءة للمرضى ، لأن هذه العادات السيئة (من وجهة نظر الممرضة) والتي تبدو من المرضى تشكل صدمة ثقافية بالنسبة لها لأنها تتعارض بشدة مع ثقافتها الخاصة . ولذلك لا بد لها من إعادة النظر إلى تلك المفهومات في ضوء فهم ودراسة العادات والتقاليد الشائعة في قطاعات المجتمع المختلفة والتي ينتمي اليها هؤلاء المرضى . وهذه المعرفة تساعد إلى حد

I — Alfred H. Stanton and Others. 'The Mental Hospital (N.Y) Basic Book. 1954. pp. 22-23.

كبير فى تخطى كثيراً من العقبات والاتجاه نحو الطريقة الصحيحة فى العلاج . ومن هنا تكون دراسة علم الاجتماع ذات فائدة فى التوصل إلى فعالية العلاج، وذلك بالتأكيد على الارتباط الفعلى الذى يجب أن يقوم بين خصائص من يقوم بالعلاج وبين المريض وهو الارتباط الذى يؤدى إلى التفاعل العلاجى الناجح . ففى دراسة تجريبية للعلاج النفسى تبين أن العلاقة بين المريض وبين من يقومون على علاجه تختلف بشدة تبعاً لمقدار المسافة الاجتماعية بينهما ، وأن العلاقة العلاجية تكون أكثر فعالية عندما يكون المعالج والمريض من نفس المكانة الطبقية [1] .

من ناحية أخرى يستطيع التحليل والبحث السوسيولوجى أن يكشف مصادر عداء بعض الناس للطب والدواء . والمعرفة الناجمة عن ذلك يمكن استخدامها فى انقاص درجة التوتر بين الرجل العادى والطب . وخاصة عندما تكون جذور هذا الصراع غير خاضعة للتوجيه أو الضبط ، إن هذه المعرفة التى يمكن أن يتزود بها المعالج تمكنه من أن يقلل إلى حد كبير من عداء المرضى. فنحن نعلم أن كثيراً من المرضى تكون لديهم أفكار مسبقة مستقاة من الطب الشعبى أو الوصفات البلدية أو الأفكار الخاطئة التى تقاوم الطب والوسائل الحديثة فى العلاج ما يجعل هؤلاء يقاومون اتباع تعليمات الطبيب إلى حد كبير ويلجأون إلى شتى الوسائل بدءا بزيارة المشايخ حتى استشارة كبار السن أو اللجوء إلى غير المتخصصين كالداية أو حلاق الصحة وقد يلجأون أخيراً إلى الطبيب، ولكن فى كثير من الأحيان يكون المرض قد استفحل ومن ثم يستعصى العلاج.

---

1 — Ozzie Simmons. ·Implications of Social Class for public Health' in jaco (ed.) patients, physicians and Illness, pp. 109-110

أن معرفة هذه الأشياء والمقدرة على اقناع المريض بخطتها يساعد إلى حد كبير فى تطبيق العلاج الصحيح . ومن هذا تظهر ضرورة الالمام بالعوامل الاجتماعية التى تعوق أو تعترض سبيل الشفاء .

هذا وتعتبر المعلومات عن مستويات الصحة من العوامل الرئيسية فى تخطيط مواقع الخدمات الصحية . وقياس مستويات الصحة هو أحد اسهامات علم الاجتماع فى هذا المجال.ويتطلب المقياس الصحيح أن توضع جميع أبعاد الظاهرة فى الحساب . فالصحة ليست جزءا منفصلا عن المجتمع ؛ بل هى فى الواقع جزء لا يتجزء منه ، وعن طريقها يتمكن الفرد من القيام بأدواره الاجتماعية المتعددة (١) .

د – تطبيق المناهج السوسيولوجية فى تطوير البرامج الطبية .

أصبح من الضرورى فى الوقت الحاضر أن يعيد الطب النظر فى موقفه . ذلك أن من أهم المشاكل الحالية التى تواجهه ما يظهر الآن من عدم وضوح معالم الرعاية الطبية نتيجة لزيادة التخصص بصورة ملحوظة ، وعدم التقدير الكافى للمظاهر النفسية والاجتماعية للمرض التى يكون لها أكبر الأثر فى النواحى البيولوجية .

وقد أدخلت كثير من المدارس الطبية لتدارك هذا النقص «الرعاية الشاملة» Comprehensive Care فى برامجها التدريبية ، بحيث يشمل البرنامج جميع الجوانب النفسية والاجتماعية والعضوية مجتمعة . وهذه الدراسة الشاملة تتيح

---

1 – Kenneth R. Hammond and Fred Kern• • Teaching Comprehensive Medical *Care* (Combridge. Mass ; Commonwealth Fund, 1959).

العاملين فى المجالات الطبية الفرصة للاحتكاك المباشر بالمرضى والاحساس بمخاطر المرض النفسية والاجتماعية .

ويقوم المتخصصون فى مجال علم الاجتماع وعلم النفس بزيارات مستمرة لتطبيق خبراتهم فى تطوير برامج الفعل الاجتماعى Social action المخطط لتحديد تأثير هذه التجديدات التربوية على اتجاهات ممارسة الطلاب لخبراتهم الطبية ، ونوعية الرعاية الطبية التى يلقاها المرضى الذين يقوم على رعايتهم هؤلاء الطلاب . وقد أظهرت نتائج إحدى الدراسات التقييمية أن برنامج « الرعاية الشاملة » يزيد من تقدير الطلاب لمقدار الوقت الذى يقضيه أو ينفقه الطبيب مع كل « حالة » مما يزيد من اهتمام الطلاب برعاية المريض (١) . وهذه الدراسات التقييمية قدمت مساعدة فعالية للتربية الطبية بإظهار أنماط الطلاب الذين تأثروا أكثر من غيرهم بهذه البرامج الجديدة . وعلى سبيل المثال فقد بينت الدراسة أن الطالب المرتبط عاطفيا بأسرته يكون أكثر اهتماما برعاية المرضى الذين يشرف على رعايتهم أكثر من هؤلاء الذين تكون علاقاتهم العاطفية بأسرهم منخفضة .

وفى دراسة تقييمية حديثة تقيس تأثيرات المحاضرات التى تلقى عن طريق التليفزيون على تحسين مستويات الطلاب من حيث تزويدهم بالحقائق والمعلومات الطبية ، تبين مدى الحاجة الملحة إلى تطوير محتويات المحاضرات لتحقيق الهدف من إلقائها . لأن بعض المحاضرات فقط تؤدى إلى زيادة المعرفة

---

1 — Patricia L. Kendall, 'Evaluating an Experimental program in Medical Education,' in Mathew B. Miles ed. Innovation in Education, New-York, Columbia University, 1964, pp. 350-355.

والمعلومات الطبية وهى التى يلقيها على الأخص المحاضرين الذين يتميزون بكفاءة عالية فى الإلقاء والقدرة على توصيل المعلومات إلى الطالبة بصورة واضحة ومفهومة ، وهذا الشرط لا يتوفر فى الكثيرين ممن يقومون بعملية التدريس ولهذا لا يتحقق الهدف من محاضراتهم فى كثير من الأحيان .

وهذا يؤكد مرة أخرى مدى أهمية الدراسة السوسيولوجية فى هذا المجال لأنها تعاون إلى حد كبير على تفهم نوعية الطلاب واختيار الاسلوب الملائم لالقاء المحاضرات الذى يجعلهم يستفيدون إلى أقصى درجة من المعلومات التى تلقى عليهم .

المراجع العربية

١- احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الأول : المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .

٢- سناء الخولى ، الأسرة والحياة العائلية ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ، ١٩٧٧.

٣ - صلاح العبد ،، علم الإجتماع التطبيقى وتنمية المجتمع العربى ،، دار التعاون للطبع والنشر ، ١٩٧٢.

٤ - عبد الحميد لطفى ،، علم الاجتماع ،، دار المعارف ،الطبعة الرابعة ، ١٩٧١

٥ - على احمد عيسى ،، المجتمع ،، مترجم، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ .

٦ - غريب سيد احمد وآخرون ،، المدخل فى علم الاجتماع المعاصر ،، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٤ .

٧ - محمد عاطف غيث ،، علم الاجتماع ،، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٢

٨ - محمد عاطف غيث ،، علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع ،، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

٩ - محمد عاطف غيث ،، دراسات فى علم الاجتماع التطبيقى ،، دار الكتب الجامعية الاسكندرية ، ١٩٧٢ .

١٠ - محى الدين صابر ،، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ،، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليان ، ١٩٦٢ .

١١ - يوسف كامل ،، ضبط النسل وتنظيم الأسرة ،، مترجم، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .

المراجع الأجنبية

1. Anderson, Charles H. "Toward a New Sociology": A Critical View, Ontario, 1971.

2. Berger. Peter, "Invitation to Sociology : A Humanistic Perspective, Garden City, New York, Anchor Books, 1963.

3. Bierstedt, Robert, "Sociology and General Education" in Charles H. Page (ed), Sociology and contemporary Education, N. Y, Random House, 1964.

4. Biesanz and Others "Modern Society" Prentice-Hall Inc., N. Y, 1954.

5. Blake, Judith and Davis, Kingsley, "Norms, Values and Sanctions" in Robert E. L. Faris (ed) Handbook of Modern Sociology, Shokie, 1964.

6. Blumer, Herbert, "Symbolic Interactionism : Perspective and Method, Englwood, New Jersey, Prentice-Hall, Inc., 1969.

7. Cohen, Percy S., "Modern Social Theory "Heinemann Educational Books, London, 1969.

8. Cooley, Charles Horton, "Social Organization" New York, Scribner, 1909.

9. Coulson, Margrett A. and Riddell, David "Approaching Sociology : A Critical Introduction, London, 1970.

10. Davis, Kingsley., "Human Society", Macmillan Company, Inc., New York, 1949.

11. Druker, Peter, "The Employee Society" American Journal of Sociolgy, 57 (January, 1953).

12. Durkheim, Emile, 'The Rules of Sociological Method' Trans. Sarah A Soloway and John H. Mueller (ed.), N.Y, Free press, 1950).

13. Elkin, Frederik and Handel Gerald, "The Child and Society" : The Process of Socialization" N.Y, Random House, 1972.

14. Etzioni. A, "Toward a Macrosociology" in Mckinney and Tiryakian (eds.), Theoretical Sociology, N.Y, 1971.

15. Foster, George, "Traditional Cultures and the Impact of Technological Change", N.Y, 1962.

16 Friedricks, Robert. "Sociology of Sociology". Collier — Macmillan. Canada, Ltd, Torento, Ontario, 1970.

17. Frend, Sigmund, "Civilization and Its Discontents, N.Y, Norton, 1961.

18. Gerald, Leslie, R, "The Family in Social Context" N.Y, 1967.

19 Goldchmidt, Walter, "Understanding Human Society" Routledge and Kegan Paul, London, 1959

20 Goode, William, "Family Disorganization" in Robert K Merton and Robert Nisbet, "Contemporary Social Problems, N.Y, Harcourt Press Jovanovich Inc, 1971.

21. Goode, W, The "Family" New Jersey, 1964.

22. Giddings, Franklin, "Principles of Sociology" New York, Macmillan, 1896.

23. Gouldner Alvin, "The Comming Crisis of Western Sociology, New Delhi, 1971.

24. Hobart, Charles, "Commitment, Value Conflict and the Future of the American Family" Marriage and Family Living 25 (November, 1963).

25. Hobbs, Thomas, "Leviathan, Oxford, England, 1881.

26. Hollingshead, August and Redlick, Frederick C. "Social Class and Mental Illness, N.Y, Willey, 1958.

27. Horton, Paul B and Leslie, Gerald R. "The Sociology of Social Problems" Appleton century Crofts, N.Y, 1970.

28. Hunt, Elgin, 'Social Science" Macmillan Company, N.Y, 1955.

29. Inkeles, Alex, "What is Sociology ? An Introduction to the Disciplne and Profession" Prentice-Hall, Inc, Englewood Cliffs, New Jersey, 1965.

30. Johnson, Harry, "Sociology : A systematic Introduction" Routledge and Kegan Paul, London, 1961.

31. Kenniston, Kenneth. "The uncommitted : Alienated Youth in American Society, New York, Harcourt, 1965.

32. Kluckhohn, Clyde and Kelly, W. H., "The Concept of Culture" in Ralf Linton (ed.), The Science of Man in the World Crisis, New York. Colombia University Press 1945

33. Levy. Marion, The Structure of society. princeton: University press. 1948.

34. Lundberg and Others, "Sociology. New York. 1958.

35. MacIver. R "The Web of Government" .New York, Macmillan; 1947.

36. MacIver, R; and Page. Charles H «Society : An Introduc-

tory Analysis' Macmillan and Company Limited, 1964.

37. Madge, John, 'The Origins of Scientific Sociology' N. Y. The Free Press, 1962.

38. Mayer, Kurt B., 'Class and Society' New York, Random House, 1955

39. McKee, James B, 'Introduction to Sociology' Hotl, Rinehart and Winston, Inc., 1969

40. Merton, Robert, 'Discussion' American Sociological Review, 13 April, 1948.

41. Mosca, Gaetano, 'The Ruling class' New York, McGraw-Hill, 1939.

42. Mills, Right C. W. 'The power Elite' New York, Oxford University Press, 1956.

43. Mills, Right C.W. 'The Sociological Immagination' New-York, Oxford University Press, 1959.

44, Moore, Wilbert, 'Social Change' Prentice-Hall of India, New Delhi, 1965

45. Murdock, Peter George,' How Culture Change, in Shapiro (ed.), Man, Culture and Society, Oxford University Press New-York, 1956

46. Nisbet, Robert, 'Conservatism and Sociology' American Journal of Sociology September, 1952.

47. Nisbet, Robert, 'The Social Bond : An Introduction to the Study of Society, Alfred. A. Knoph, Inc, New-York, 1970

48. Nisbet. Robert, Sociological Tradition "Heinemann Educatoinal Books, LTD, London, 1966.

49. Ogburn, William, 'Technology and the Changing Family' Houghton Mifflin, Boston, 1955

50. Ogburn, W., and Nimkoff, M. 'A Handbook of Sociology 'Routledge and Kegan Paul, London, 1960

51. Ogburn W, and Nimkoff. M; 'Sociology' Boston, 1950

52. Osipov, G; 'Sociology :Problems of Theory and Method" Progress Publishers; Moscow, 1969.

53. Parsons, Talcott, 'Essays in Sociological Theory' The Free Press, Glencoe, Illinois, 1958

54. Parsons, T., The Structure of Social Action' New-York McGrow-Hill, 1937

55. Parsons, T. and Bales, R., 'Family, Socialization and Interaction Process' The Free Press, Glencoe, Illinois, 1955.

56. Piaget, J; 'The Origin of Intelligence in the Child' Routlege and Kegan Paul, London, 1956

57. Riesman, David and Others, 'The Lonley Crowd' Conn, yale University Press, New-Haven, 1950.

58. Sellew Gladys and Others, 'An Introduction to Sociology' Harper and Row Publishers, New-York, 1958

59. Sjoberg, Gideon: 'The *Preindustrial* City : *Past* and *Present*,' The Free *Press*, New-York, 1960.

60. Smelser, Neil; 'Sociology : An Introduction' Wiley Eastern Private LTD, Publishers, New Delhi, 1970.

61. Sorokin, Pittrim; 'Social and Cultural Dynamics' New-York, 1937.

62. Sorokin P; 'Society Culture and Personality : Their Structure and Dynamics, Harper, N Y, 1947.

63. Spencer, Herbert, 'principles of sociology' Appleton-Century-Crofts. N.Y. 1910.

64. Sumner W.G and Keller A. G; 'The Science of Society' New Haven, 1927.

65. Sumner. W. G; 'What Classes Owe to Each Others' New York, Harper and Row, 1903.

66. Timasheff N; 'Sociological Theory' New-York, 1955

67. Thomas, William I. and Znaniecki, Florian 'The Polish Peasant in Europe and America, Gorham Press, Boston, 1918.

68. Toennies, Ferdinand; 'Community and Society' Trns and ed by Charles P. Loomis, Michigan State University Press 1957.

69. Tylor, Edward: 'Primitive Culture' Vol. 1. New-York. 1889.

70. Wallis, Wilson; 'The Nature of Culture' in Nordskog (ed.), Social Change, McGraw-Hill Book Company, New-York. 1960.

71. Weber, Max; 'The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism' Scribner N.Y. 1948.

72. Wells, Alan; 'Social Institution' Heinman Educational Books LTD London 1970.

73. White, Leslie 'The Science of Culture' Farrar Straus, New York 1949.

74. Winch. Robert; 'The Modern Family, Holt. Rienhart and winston, Inc. New York 1971.

75. Worsley, *Peter* and Others, 'Introducing Sociology' Penguin Books 1970.

76 Wrong, Dennis, 'The Oversocialized Conception of Man, in Modern *Sociology*' American Sociological Review, 26 Apail, 1961.

77. Zborowski. Mark, '*C*ultural Components in Responces to pain' in jaco, 'Patients. Physicians and Illness.

78, Yinger,Milton; '*C*ontracultnre and *S*ubculture' American Sociological Review, 25 (October 1960).